

القراءات المعاصرة



مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

العدد : ٣٠ جمادى الأولى ١٤٠٨ ١ كانون ٢ «يناير» ١٩٨٨ السنة ٨

مركز تحقيقات كميبيوتر علوم

ل



مرکز تحقیقات رایانه‌ای و علوم رایانه‌ای



التراث العربي

مركز أبحاث التراث العربي - دمشق

العدد : ٣٠ - جمادى الأولى ١٤٠٨ كانون الثاني - يناير ١٩٨٨ - السنة الثامنة

المدير المسؤول :

علي عقلة عرسان

رئيس التحرير :

د. عبد الكريم اليكافي

أمين التحرير :

عبد اللطيف أرنكاووط

هيئة التحرير :

د. عبد الهادي هاشم

د. ابراهيم الكيلاني

د. نشأت المحمارنة

د. عدنان درويش

ترسل المواد والمراسلات الى العنوان التالي :

المدير المسؤول - اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ص.ب. : ٣٣٣٠ - ٢٤٤٢٩٩ - ٢٤٤٣٢٩

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي أصحابها



مركز تحيت تكملة مركز دراسات

الاشتراك السنوي

- ٦٠ ل.س للأفراد داخل القطر
- ١٠٠ ل.س أو ما يعادلها للبلدان العربية مع أجور البريد
- ١٥٠ ل.س للدوائر الرسمية والمؤسسات داخل القطر
- ٢٠٠ ل.س أو ما يعادلها للبلدان الأجنبية مع أجور البريد

■ الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكا أو يدفع نقداً إلى : (معاسب مجلة التراث العربي) ■

الاخراج الفني : أكرم أمدار

المحتويات

- أبو نصر الفارابي - المعلم الثاني د. عبد الكريم اليافي ٧
- المجالات الثقافية للمرأة العربية في بلاد الشام د. صالحة سنقر ١٥
- النحاة والمفكرات صلاح الدين الزعبلوي ٢٣
- ابن خلدون شاعراً محمد خير شيخ موسى ٤٩
- وحدة القصيدة في نقد القرطاجني خليل الموسى ٦٥
- شعر أبي الطمّحان القيني بين جنتين ياسين محمد الفاخوري ٧٤
- رحلة مع يعقوب بن كلّث د. طارق تامر ٨٣
- الحياة الفكرية في العصر المملوكي د. صادق آئينه وند ٩٠
- وهنا ... كان العرب أيضاً نهيلة العمصسي ٩٨
- الصيدلاني الأندلسي أبو العباس الثباتي (ابن الرومية) فاضل السباصي ١١٦
- أسباب الخلاف اللغوي وأسلوب البحث في تراث العالم محمد وليد حافظ ١٢٢
- ابن رشد العالم والفيلسوف حسان الككاتب ١٣٣
- سور دمشق - حارس أعني من الخدمة بعد ١٥٠٠ عام محمود عصام الميداني ١٣٩
- تلخيص المتشابه في الرسم مرض : د. نسيب نشاوي ١٤٦
- التراث العربي .. خطّة ومنهج د. شكري فيصل ١٤٩
- كتب وأنباء تراثية فاطمة عصام صبري ١٥٨



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

أبو نصر الفارابي

المعالم الثاني

د. عبد الكريم اليافي

أبو نصر الفارابي محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ من أكبر رجال الفكر في تاريخ الثقافة الإنسانية عامة والعربية الإسلامية خاصة . وهو صاحب التصانيف الكثيرة في الفلسفة والمنطق والموسيقى وغيرها من العلوم والفنون. يقول ابن خلكان : « هو أكبر فلاسفة المسلمين » ولم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه . والرئيس أبو علي بن سينا بكتبه تخرج وبكلامه انتفع في تصانيفه .

ولد حوالي سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م) في مدينة وسيج من منطقة فاراب التي كانت مدينة فاراب قصبتها فنسب إلى المنطقة . ويذكر ابن خلكان أن مدينة فاراب كانت تسمى في عهده أطرار . وقد ذكر أن ولادته كانت في سنة ٢٦٠ ولكننا نؤثر سنة ٢٥٩ لما نعرف في علم السكان أن الأعمار غالباً تقرب من الأرقام المدورة أي التي تنتهي بالصفراً أو الخمسة وهذا التقريب الذي ينتهي بتراكم الأعمار في تلك الأرقام يظهر خاصة في تعدادات السكان الرسمية في العصر الحاضر ويقال لهذه الظاهرة جاذبية الأرقام المدورة .

هذا حين يرد ذكر فاراب التي تقع في تركستان أو فيما وراء النهر تطالعنا الكثرة الكاثرة من علماء تلك المناطق في شتى الميادين فهم يكادون يتصدرون الحضارة العربية الإسلامية . وقد ذكر ياقوت في سادة فاراب بعض العلماء الذين خرجوا من هذه المدينة فعد في تلميذهم اسماعيل بن حماد الجوهري مصنف الصحاح وهو بين المجسمات أحد أركانها ، وخاله أبا ابراهيم اسحاق بن ابراهيم الفارابي صاحب « ديوان الأدب » في اللغة أيضاً كما ذكر أسماء بعض المحدثين والقراء . والعلماء الكثر من بقية مناطق تركستان وخوارزم وخراسان أكثر من أن يحيط بهم الحصر .

ويذهب بنا الخيال حين نتحدث عن بعض أولئك العلماء الأعلام إلى الأبطال الفرسان العرب المسلمين الذين حملوا راية الاسلام والسلام والهدى والعلم وانتشروا كالبرق في

بقاع الممورة شمالا وشرقا وجنوبا وغربا ليظهروا تلك الرسالة الكريمة كما نتصور
 المغازي المنظمة والمؤزرة بالنصر التي انطلقت بهم من مراكز مشهورة الى مختلف الجهات .
 نحن هنا نذكر المغازي التي فصلت من العراق الى الشمال والى الشرق . فكانت الكوفة
 مركزا للتي اتجهت نحو الري واذربيجان ، وكانت البصرة مركزا للتي انطلقت نحو فارس
 وخراسان . وكانت جميعا في جهادها تخرج الناس من حنادس الجهل وتحررهم من قيود
 الطغيان وتصلهم من وراء الدين الجديد برفعة السماء وبالقيم العليا من عدالة ومساواة
 وتنظيم ومعاملة كريمة بينهم ثم بينهم وبين الآخرين . وكانت أمواج القبائل العربية
 المرتحلة تنزل في تلك الربوع الجميلة وتستوطنها وتختلط بأهاليها تماثلا وتزاوجا لتكوّن
 فيما بعد أمة واحدة هي الأمة الإسلامية لا تفريق فيها بين الأفراد من جهة النسب والحسب
 والأصول الا بالمعلم مقرونا بالعمل الصالح لأن العلماء عندهم ورثة الأنبياء .

كان أولئك المجاهدون يتقدمون لا يخشون عقبة من العقبات ولا جبلا من الجبال ولا
 واديا من الوديان ينفقون أموالهم وأرواحهم ويذكرون الآية الكريمة : « ولا ينفقون نفقة
 صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون »
 (التوبة ١٢) . ويتبادر للذهن أبيات للشاعر الحميري يزيد بن مفرغ الذي كان بعد تلك
 المغازي في جيش عبّاد بن زياد المتجه نحو الهند يصف فيها رسم الأبطال القتلى وأشلأهم
 وجماعهم وسراييلهم المخضبة بالدماء في ساحات الجهاد وفي فجاج الجبال :

كم بالجروم وأرض الهند من قدم ومن جماجم قتلى ما هم قبروا
 ومن سراييل أبطال مضرجة ساروا الى الحرب ما خاموا ولا ذمروا
 بقندهار ومن تنعتهم منيته بقندهار يرجمونه الغبر

ومهما كان من أمر فان الفتى الفارابي عكف في مسقط رأسه على دراسة طائفة من
 العلوم والفلسفة واللغات بالإضافة الى لغته التركية، فدرس العربية والفارسية واليونانية
 ثم انتقل به أبوه الى العراق واستوطن بغداد حيث أتم دراساته العلمية والفلسفية واللغوية
 فدرس فيها على أبي بشر متى بن يونس من أشهر مترجمي الكتب اليونانية ومن أبرز
 الباحثين في الفلسفة والمنطق . « وله اذ ذاك صيت عظيم وشهرة وافية ويجتمع في حلقاته
 كل يوم المشون من المشتغلين بالمنطق » كما يقول ابن خلكان . ثم « ارتحل الى مدينة حران
 وفيها يوحنا بن حيلان فأخذ عنه طرفا من المنطق أيضا ، ثم انه قفل راجعا الى بغداد ،
 وقرأ بها علوم الفلسفة وتناول جميع كتب أرسطاطاليس ، وتمهر في استخراج معانيها
 والوقوف على أغراضه فيها » كما جاء أيضا في كتاب « وفيات الأعيان » . وكذلك درس في
 بغداد العلوم العربية على ابن السراج وأتيح له فيها أيضا اتمام دراساته في الرياضيات
 والطب والموسيقى ووصل في هذه الميادين خاصة في الفلسفة الى القمة والى درجة من
 النبوغ عالية ، فطبقت شهرته الآفاق . اهتم بفلسفة اليونان ولا سيما بكتب أرسطو فشرحها
 وعلق عليها تعليقات كثيرة بمباراة حسنة وإشارات لطيفة واصطلاحات عربية مناسبة
 و « تفهيم المعاني الجزلة بالألفاظ السهلة » حتى انه لا يعتبر في رأينا شارحا بل معقبا

وستمناً فأطلق عليه لقب « المعلم الثاني » كما كان يطلق على أرسطو « المعلم الأول » . وليس شيء أدل على تبسيط الفارابي لفلسفة اليونان وإيضاحها مما ذكره ابن سينا في ترجمته هو لنفسه إذ قال : « وانتهيت الى العلم الالهي ، وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة . فما كنت أفهم ما فيه ، والتبس علي غرض واضعه ، حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظاً وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به ، وأيسمت من نفسي وقلت : هذا كتاب لا سبيل الى فهمه .

فحضرت يوماً - وقت العصر - في الوراقين . فتقدم دلال بيده مجلد ينادي عليه ، فعرضه علي ، فرددته رد متبرم معتقد أن لا فائدة في هذا العلم فقال : اشتريه ، فصاحبه محتاج الى ثمنه ، وهو رخيص ، أبيعك بثلاثة دراهم ، فاشتريته ، فإذا هو كتاب أبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة . فرجعت الى داري ، وأسهرت قراءته ، فانفتح علي في الوقت أغراض ذلك الكتاب ، لأنه كان صار لي محفوظاً على ظهر القلب ، ففرحت بذلك وتصدقت في اليوم الثاني بشيء كثير على الفقراء ، شكراً لله تعالى . »

هذا وأكبر الفضل في توطيد علوم الفلسفة في الحضارة العربية الإسلامية إنما يعود اليه بعد أبي يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي الملقب بفيلسوف العرب . وقد توفي الكندي حوالي عام ٢٦٠ أي قريباً من تاريخ ميلاد الفارابي كان جذوة نار الفلسفة التي اشتملت في تلك الحضارة ينبغي لها بعدئذ ألا تخمد بل أن تشتد وتزداد توقداً ، إذ نبغ بعد حين الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا في المشرق ثم نهض بعد حين أيضاً القاضي أبو الوليد ابن رشد في المغرب . هذا في اختصاص الفلسفة الأرسطية المشائية وحدها دون الإشادة بأعلام الفلاسفة والحكماء في المجالات الأخرى كآبي الريحان البيروني وهبة الله أبي البركات البغدادي والغزالي وأمثالهم الكثيرين .

وقد همرت كتب ابن سينا وابن رشد الفلسفية الباحثين حتى أنها صرفتهم بعض الشيء عن الرجوع الى الأصول التي تفرعت عنها ألا وهي كتب الفارابي .

أنالت كتب الفارابي التي ألفها على المائة . وقد طبع بعضها . وفي دور الكتب والغزائن العامة والخاصة في المشرق والمغرب طائفة من مخطوطاتها ، كما ترجم قسط منها الى الفارسية والتركية والعبرية واللاتينية والألمانية والفرنسية والانكليزية والاسبانية .

ويبدو أن الفارابي وهو الفيلسوف المنقطع الى الفكر قد ضاق ذرعاً ببغداد على الرغم مما زودته به من علوم لجوها السياسي والعسكري القلق فقد شهد عهد الخلفاء المقتدر والقاهر والراضي والمتقي وكلها عهود مضطربة وهو من طبعه الهدوء والتأمل وحب السلم فخرج منها حوالي عام ٣٣٠ قاصداً بلاد الشام ولم يفادها سوى رحلة قصيرة أو رحلتين الى مصر .

وكان في مقامه بدمشق لا يكون غالباً الا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض كما ذكر ابن خلكان وكان « كثير الانفراد بنفسه ويلتزم غياض السفرجل وربما صنف هناك وقد ينال فتحمل الريح تلك الأوراق وتنقلها من مكان الى مكان » كما ذكر الصندي في السوافي بالوفيات . ويحدثنا ابن خلكان أيضاً عنه فيقول :

« وكان أزهق الناس في الدنيا لا يحتفل بأمر مكسب ولا مسكن وأجرى عليه سيف الدولة كل يوم من بيت المال أربعة دراهم وهو الذي اقتصر عليها لقناعاته » .

ولم يزل على ذلك الى أن توفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة (٩٥٠ م) بدمشق وصلى عليه سيف الدولة في أربعة من خواصه وقد ناهز ثمانين سنة ودفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير » .

لا تستطيع هذه المقالة أن تأتي على جوانب أبي نصر المتعددة في شتى العلوم . وإنما نشير هنا الى كتاب مهم - وكل كتبه ذات شأن - ألا وهو « احصاء العلوم » يمدده بعض الباحثين على صغر حجمه أول موسوعة وضعت في العالم أحصى فيه العلوم المشهورة اذ ذاك علماً علماً وتوخى في عرضها البساطة والسهولة ليقدم فكرة عامة واضحة عن موضوع كل علم ومنفعته نظراً وعملاً . وذلك كله في خمسة فصول :

الأول : علم اللسان وفروعه من نحو وصرف وبيان وشمع وما الى ذلك .

والثاني : علم المنطق وأجزاؤه .

والثالث : علوم التعاليم أي الرياضيات .

والرابع : العلم الطبيعي والعلم الالهي .

والخامس : العلوم المدنية أي علم الأخلاق وسياسة المدن وعلم الفقه وعلم الكلام .

وفي رسالته « التنبيه على سبيل السعادة » التي حققها صديقنا الدكتور سحبان خليفات شبه بهذا التقسيم . وقد عالج أبو نصر غالبية هذه الأقسام ولا سيما ما له علاقة بالفلسفة ومعالجة واسعة . وبحثنا هذا لبيان سعة بحوثه والتنويه بمكانتها ، لا لتفصيل عناصرها فذلك شأن آخر .

ومن أشهر كتبه « السياسات المدنية » و « آراء أهل المدينة الفاضلة » وموضوع هذين الكتابين يدخل في الفلسفة والاجتماع . وما يتضمنانه من آراء يجعل مؤلفهما في طليعة الصفاة المختارة من أصحاب الفكر الاجتماعي الذين نادوا بإنشاء مجتمع عالمي سليم تتعاون الأمم جميعاً فيه على إحلال السلام وممارسة الفضائل وتحصيل السعادة ليكون ما يدعى بالمعمورة الفاضلة . وقد يكون من المناسب أن نتوقف قليلاً عند تفكيره الاجتماعي . لقد قسم الفارابي الاجتماعات الانسانية أقساماً فمنها الكاملة ومنها غير الكاملة . والكاملة ثلاث عظمى ووسطى وصغرى . فالمعظمى اجتماعات الجماعة كلها في المعمورة ، والوسطى اجتماع أمة في جزء من المعمورة ، والصغرى اجتماع أهل مدينة في جزء من مسكن أمة . وغير الكاملة اجتماع أهل القرية واجتماع أهل المحلة ثم اجتماع في سكة ثم اجتماع في منزل وأصغرهما المنزلة .

والخير الأفضل والكمال الأقصى إنما ينال أولاً بالمدينة ثم بالمعمورة لا بالاجتماع الذي هو أنقص من المدينة . ومن هذا نرى دقة ذهن الفارابي وتمييزه صنوفاً مختلفة للاجتماع . ويريد بالكمال استطاعة المجتمعين الاكتفاء بأنفسهم من جهة المعاش والحياة الاقتصادية .

وقد تفرقت الأمور في الوقت الحاضر . ولكننا نجد يتسامى فيتصور اجتماع الأمم كلها اجتماعاً كاملاً ويخرج بهذا التصور الأممي عن عادة اليونان لأن أغلب فلاسفتهم لم يتجاوزوا في ترتيب أمورهم الاجتماعية نطاق مدتهم . وربما بعثه على هذا اتجاه الدين الاسلامي .

ونظام المدينة الفاضلة والأمة الفاضلة والمعمورة الفاضلة كنظام البدن التام السليم الصحيح الذي يتعاون أعضاؤه كلها على تميم حياته وعلى حفظها عليه . ثم يستمر في هذا التشبيه البيولوجي ويشرح به النسق الاجتماعي . ففي البدن القلب وأعضاء تقرب مراتبها من ذلك الرئيس وكل واحد فيها جعلت فيه قوة يفعل بها فعله ابتغاءً لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس وأعضاء أخرى فيها قوى أخرى متميزة ولكنها متفاوتة ومتضامنة ، كذلك ترتيب المجتمع بحيث يكون الرئيس فيلسوفاً أو نبياً أو جملة من الفلاسفة والحكام وبحيث يؤدي الإنسان في المجتمع الفاضل عمله اداءً تاماً ويقوم فيه بما يحسن على غرار ما يجري في البدن من انسجام في وظائف أعضائه ونسجه . هذا ومن المناسب أن ننوه بأن اللغة العربية ربطت بين الحكم والحكمة والحكومة والحكماء والحكام فجعلت هذه الألفاظ كلها من أصل واحد اشارة الى لزوم الحكمة في إدارة الدولة . كذلك يجدر الإيحاء في تشبيه المجتمع بالبدن الى ما سبق به الحديث الشريف : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتماطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ولا يخفى أنه يترتب على التفصيل في هذا التشبيه قضايا سياسية واجتماعية متعددة تتعلق بنظام الحكم وشكل الرئاسة وحكم النخبة المختارة والتماسك الاجتماعي والطبقات الاجتماعية وأمور التخطيط وكلها يمكن أن تشتق من هذا المذهب العضوي الاجتماعي .

إن الفارابي الى جانب تفوقه في الفلسفة والتفكير الاجتماعي المثالي ومعرفته بشتى العلوم كالرياضيات والطب وما الى ذلك كان الوجه المنيب في علم الموسيقى والتأليف فيه أبان الحضارة العربية الاسلامية . وكتاب الموسيقى الكبير الذي ألفه وقد طبع حديثاً بمصر محققاً في سلسلة تراثنا مصدر أساسي للاطلاع على فن الموسيقى وتاريخها وأصول صناعتها والأمور العامة منها وأصناف الألحان والايقاع ووجوه استخراج النغم من الآلات المشهورة وما الى ذلك . ويدل الكتاب على مدى تعمق المؤلف في هذه الصناعة . وله كتابان آخران في الموسيقى يذكرهما المترجمون له . وقد ربط الألحان أحياناً بالحالات النفسية . ويعكس أن الآلة المسماة بالقانون من وضعه وهو أول من ركبها هذا التركيب . وشهرته الموسيقية نسجت حوله الأساطير ، منها ما ذكره ابن خلكان في أول لقائه سيف الدولة الحمداني في مدينة حلب . ولا نستطيع أن نملك أنفسنا دون ذكرها . هذا وإن الأساطير إنما تنسج لتوكيد فكرة أو تشيلاً أو توليد شهرة . قال صاحب الوفيات : ورأيت في بعض المجاميع أن أبا نصر لما ورد على سيف الدولة وكان مجلسه مجمع الفضلاء في جميع المعارف ، فادخل عليه وهو يزي الأتراك ، وكان ذلك زيه دائماً ، فوقف ، فقال له سيف الدولة : اقم ، قال : حيث أنا أم حيث أنت ؟ فقال : حيث أنت ، فتخطى رقاب الناس حتى انتهى الى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه ، وكان على رأس سيف الدولة مسالك ، وله معهم لسان خاص يسارهم به قتل أن يعرفه أحد ، فقال لهم بذلك اللسان : إن هذا الشيخ قد أساء الأدب ، واني مسأله عن أشياء إن لم يوف بها فاحرقوا به ، فقال

له أبو نصر بذلك اللسان : أيها الأمير ، اصبر فان الأمور بمواقبها ، فمجب سيف الدولة منه ، وقال له : اتحسن هذا اللسان ؟ فقال : نعم أحسن أكثر من سبعين لساناً ، فمظم عنده ، ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فن ، فلم يزل كلامه يملو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل ، وبقي يتكلم وحده ، ثم أخذوا يكتبون ما يقوله ، فصرهم سيف الدولة وخلا به ، فقال له : هل لك في أن تأكل ؟ فقال : لا ، فقال : فهل تشرب ؟ فقال : لا ، فقال : فهل تسمع ؟ فقال : نعم ، فأمر سيف الدولة باحضار القيان ، فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بأنواع الملاهي ، فلم يحرك أحد منهم آلتة الا وعابه أبو نصر وقال له : أعطت ، فقال له سيف الدولة : وهل تحسن في هذه الصناعة شيئاً ؟ فقال : نعم ، ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها وأخرج منها عيذاناً وركبها ، ثم لعب بها ، فضحك منها كل من كان في المجلس ، ثم فكها وركبها تركيباً آخر ، ثم ضرب بها فبكي كل من كان في المجلس ، ثم فكها وغير تركيبها ، وضرب بها ضرباً أخرفنام كل من في المجلس حتى البواب ، فتركهم نياماً وخرج .

ويعلق الصنفدي في الوافي بالوفيات على هذه الأسطورة فيكتب : « قلت : وهذه الواقعة ممكنة من قبل أبي نصر لأنه إذا غنى الساميين مثلاً بما لابن حجاج من ذلك المجون الحلو في نغم فان السامع يضحك . وإذا غنى بأشعار ميمية العرب والرقيق من فراقياتهم وحزنياتهم في نغم النوى وما أشبه ذلك فان السامع يبكي . وكذا حاله إذا أراد أن يشجع أو أن يمسح أو غير ذلك . »

وثمة أسطورة ثانية ذكرها طهير الدين البيهقي المتوفى ٥٦٥ هـ في كتابه تاريخ حكماء الاسلام وهي رواية أخرى للأسطورة السابقة ولكنها تتعلق بالصاحب اسماعيل بن عباد أشد تعبيراً عن تأثير موسيقى الفارابي في المستمعين . وكذلك نجد أسطورة ثالثة دسجها محمد بن اسماعيل شهاب الدين العجازي المصري الشافعي المتوفى سنة ١٢٧٤ هـ في كتابه سفينة الملك ونفيسة الفلك تتعلق باختراع الفارابي آلة المود . ان هذه الروايات نظنها مصطنعة للدلالة على مكانة الفارابي في الموسيقى .

والخلاصة أن الفارابي غرة من غرر الحضارة العربية الاسلامية وكوكب متالق من كواكبها الكثيرة النيرة الدرية تزهى به وبأمثاله الحضارة الانسانية كلها بكل الحضارة الاسلامية . وهو فيما سبق اليه من تفكير في تعاون الأمم على انشاء المعمورة الفاضلة حقيق بأن يخلد اسمه في كل منظمة عالمية ترفع ذلك الشعار وتعلم بتلك الغاية النبيلة وتسمى فيما تستطيع نحو تحقيقها . ولا شك أن أكبر الأعمال الانسانية بدأت بالأحلام السليمة العالية .

لما أنهيت كتابة هذا البحث طويت أوراقه وأغمضت عيني أسبح في أمواج الأحلام فاذا بهي أتوهم خيالا بقربي أوجسته خيال أبي نصر وكان خيالاً شاعرياً فذكرت أنه ينسب اليه شعر لا بأس به فسألته عن صفة ما ينسب اليه منه فاذا بصوته يقرع جدار القلب بلطف وأصيح فأتبين الفاظه :

تركت الشعر للشعراء غيري ولكني ألهم به لماما
لعل القول ينفذ في قلوب فيوظفها إذا كانت نياما

ثم يرين الصمت . فاذا بالغيال ينبس بهذه الأبيات التي تشرح اعجاب الفارابي
بالحضارة العربية الاسلامية :

الفارس العربي فوق حصانه	كالبرق بين سباب وروابي
يمضي وفي يده الكتاب مبشرا	بالفسار والزيتون والاطياب
اعلى حضارات الانام حضارة	كالشمس لاحت من بيان كتاب
ضامت رحاب الكون من اشراقها	وتزينت بالمعلم والآداب
ملات محبتها حشاشة مهجتي	وتقرحت في فكرها اهدابي
كم مرة حاولت حصر كنوزها	فاذا بها تسمو على استيعاب
الدين قلبي والعروبة منطقي	ونوابغ اليونان هم اترابي
فاراب مثل بقية المدن التي	لمت وكم في الارض من فاراب
اواه كم حلّ الربيع وكم حلا	ثمير بظلّ ماذن وقباب
وتواصل الغصب العميم وثمرت	رايات غلم محكم وصواب
وخرجت من بغداد اقصد جلتا	ارتاض في اقليمها الغلاب
وخميصة بالنيربين عهدتها	ملهاي في تموز او في آب
عطفت عليّ بظلمها وثمارها	والجو كالعلم البديع السابي
متقللا في روضها متاملا	في حلّ مشكلة وشرح صواب
وزجاجتين هما معي فزجاجة	لكتابتني وزجاجة لشرابي
وتطوف بي الدنيا فانكر شرها	بيني وبين الشر الف حجاب
الفكر والنغم الطروب صناعتني	والزهد خلقي والتقى جلبابي
ارعى نجوم الليل في خفقانها	وابشها مما ادون ما بي
كم كنت افكر في تلمس ناظم	لمسببات الشيء والاسباب
واجيل فكري في الوجود ونوعه	من ممكن ثرّ ومن ايجاب
واصوغ للحن الرخيم فواصلا	اعيت على غيري من العساب
فكتبت في سفر الخلود صحائفا	تبقى على الازمان والاحقاب
وجهلت ارسم عالما فيه اوى	نسب الفضيلة اشرف الانساب



تبا لمجتمع حديث عائم	في ضفتيه مخادع ومرابي
ومكافح الارهاب في اقواله	سرا يدبثر اقبح الارهاب
ويح لابناء التراب تناحروا	سفها وشاو مصيرهم لتراپ
اولا يرون الحق في توطيده	يسمو على الاهواء والاراب
لهفي على القيم الرفيعة بدلت	وغدت شعار ثعالب وذئاب
وحضارة لمعت بغير فضيلة	كالفقر لاح عليه لمع سراپ
ليت المواطن كلهن توحدت	في ظل حكم موثق الاسباب
العدل من اركانه والسلم من	اهدافه وحماته كالغاب

* * *

ما اجمل الدنيا اذا ما سادها	سلم وعاش الناس كالأحباب
وتهطلت نعم السماء عليهم	مثل السحاب يمر خلف سحاب
هل كنت الا كوكبا عبر الدجى	اشرفت قدما من بيان كتاب
لم يبق بعد سطوع شمس المصطفى	عذر المنحرف ولا مرتاب

* * *

اجلانا للفكر نرفعه معا لمكلم الاجيال للفارابي

* * *

المجالات الثقافية للمرأة العربيّة في بلاد الشام في العصرين الأموي والعبّاسي

د. صالحة سنقر

تهتم هذه الدراسة ببيان ثقافة المرأة العربية في بلاد الشام في العصرين الأموي والعبّاسي . وتأخذ بعين الاعتبار ارتباط ثقافة المرأة في هذين العصرين بالعلوم الشائعة والقيم السائدة وتأثيرها بالواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لبلاد الشام في تلك الفترة .

ومن الطبيعي أن تكون ثقافة المرأة آنذاك جزءاً من الثقافة القائمة في البيئة الشامية بما فيها من تنوع وتعدد وما تتضمنه من ثقافة نظرية غالباً وعملية أحياناً ، وما اتسمت به من توجه ديني تشريعي .

ومع أن من الأفضل أن نعتد في حديثنا عن ثقافة المرأة العربية ما كتبه هي عن ذاتها ، إلا أن عدم توفر هذه الكتابات يضطرنا إلى الوقوف على ما كتبه الرجل عنها وما ورد في الكتب التاريخية والأدبية والتشريعية والعلمية ، وسنعمد في تحليل ثقافة المرأة العربية إلى بيان المجالات التي طرقتها كأداة لتقويم تلك الثقافة ، رغم أن تلك الفترة التاريخية هيأت للرجل المناخ الثقافي المناسب ، وأضفت عليه قيمة معينة سواء بالأدوار التي يقوم بها أو النشاطات التي يمارسها ، وتركزت المرأة ملحقة به ، أخذت عنه تميز حياتها بين العزلة والمشاركة بين أن تكون فعالة في جميع مجالات الحياة ، وبين أن تكون سلبية تأخذ بأفكار غير ما وتوجه وفق رغباتهم وأفكارهم .

وسيتنصر البحث على المرأة الفاعلة المثقفة التي استطاعت أن تتجاوز واقعها وتبني ذاتها وتنمي فكرها وثقافتها ، آخذين بعين الاعتبار أن الظروف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية القائمة آنذاك حالت دون تحقيق جماهير النساء عامة ما تصبو إليه أنفسهن ، معتمدين دراسة المجالات الثقافية وتحليلها وبيان فاعلية المرأة فيها ، وأثر ذلك على المجتمع عامة وعلى علاقة المرأة بالرجل بخاصة ، مبينين دور المرأة

العربية في مجال الحديث والتصوف والأدب والتربية والسياسة لنخلص في النهاية الى رسم صورة لدور المرأة في الحياة الثقافية وموقفها بالنسبة للرجل من خلال المجالات المتوفرة لها والقيم التي عاشت بين ظهرانيها.

□ المرأة والعلوم النقلية :

اهتمت بلاد الشام في العصرين الأموي والعباسي بالعلوم النقلية عامة وبالحديث بخاصة سماعاً وحفظاً ورواية وتحليلاً ، فقد بلغ عدد النساء المحدثات « ٦٤ » محدثة منهن فاطمة بنت الحسين (١) التي عاشت في العصر الأموي في مدينة دمشق واشتهرت برواية الحديث عن جدتها فاطمة بنت محمد عليه السلام .

و « ٦٣ » محدثة تسعة منهن وجدن في العصر العباسي الأول و « ٥٤ » محدثة عشن في العصر العباسي الثاني .

وقد أدى توفر المناخ الثقافي في البيئة المناسبة في بعض المدن الى دفع المرأة للتعليم فيها أكثر مما هو في بيئات أخرى . ونلاحظ تركزاً واضحاً للمحدثات في مدينة دمشق التي ضمت في العصرين الأموي والعباسي « ٥٥ » محدثة ، في حين شهدت مدينة حلب « ٤ » محدثات فقط ، وشهد بيت المقدس « ٥ » محدثات (٢) .

العصور	المدن دمشق	حلب	بيت المقدس
عدد المحدثات	عدد المحدثات	عدد المحدثات	عدد المحدثات
العصر الأموي (٤١ هـ - ١٣٢ هـ)	١	-	-
العصر العباسي الأول (١٣٢ هـ - ٦٥٦ هـ)	٩	-	-
العصر العباسي الثاني (دويلات وفاطمي) (٦٥٦ هـ - ٩٢٣ هـ)	٤٥	٤	٩

جدول رقم (١) توزع المحدثات بحسب العصور .

وقد وجدت فروق في مستوى المحدثات بين محدثات أتقن علم القراءات والتفسير والحديث والفقه وبين محدثات أتقن بعضاً من هذه العلوم . ونظرة تحليلية لواقع المحدثات في بلاد الشام في هذين العصرين تكشف لنا عن أن بعض المحدثات تعلمن وعلمن الآخرين وأن بعضاً منهن تجاوزن التعلم والتعليم الى اجازة الآخرين في الحديث وذلك بحسب قابليات كل منهن ، وما تمتعت به بعض النساء من قدرات فائقة .

والمرأة خلال فترة تعلمها كانت تتلمذ على أيدي بعض العلماء وتتابع تعليمها منهم واستماعها عنهم .

وتذكر كتب التاريخ أن (٥٣) محدثة استمعن إلى ١٢٠ عالماً ، أي أن وسطي الذين كانت تتعلم منهم يتراوح بين اثنين إلى ثلاثة علماء ومن الطبيعي وجود تباين في عدد العلماء والمحدثين ، الذين أخذت عنهم النساء آنذاك بين امرأة وأخرى . ففاطمة الجلية وكريمة الزبيرية وخديجة الدمشقية وسواهن قد سمعن عن محدث واحد ، في حين سمعت عائشة المقدسية (٣) عن تسعة محدثين (٤) .

عدد العلماء	:	٣ - ١	٦ - ٤	٩ - ٧
عدد المحدثات	:	٤٥	٤	٤

الجدول رقم (٢) - عدد العلماء الذين استمعت إليهم المحدثات .

ومما لا شك فيه أن متابعة التعلم واتقان قراءة الحديث وتفسيره وتعرف معانيه وبيان مدلولاته يجعل المرأة المثقفة لذلك جديرة بأن يمتدح بأهليتها كمحدثة وأن يجاز لها رواية الحديث وتفسيره وقد تبين أن « ٢٢ » محدثة أجاز لها « ٢٧ » عالماً رواية الحديث أي أن وسطي عدد العلماء الذين أجازوا للمرأة رواية الحديث يتجاوز (١٢) عالماً وهو عدد يثبت كفاءة المرأة واتقانها للعلوم النقلية والدراسات المعاصرة في علم التقييم (علم الديسمولوجيا) تشير إلى أن تقويم معرفة الإنسان لشيء ما يتطلب الوقوف على آراء عدد من المقومين يتراوح بين (٥ - ٧) أشخاص .

ومن اللافت للنظر ما حصلت عليه المحدثات فاطمة بنت سليمان بن عبد الكريم الأنصارية (٥) الدمشقية من ثقة العلماء واعترافهم بجدارتها وقدرتها في هذا العلم إذ تجاوز عدد العلماء الذين أجازوا لها رواية الحديث المائة .

وإذا وصلت بعض النساء المثقفات إلى مثل هذا المستوى من التحصيل والاتقان فإنه من البدهي أن تفيد الآخرين وأن تزودهم بعلمها قراءة ورواية للحديث فقد قرأت (٢٥) محدثة على (٦٢) طالب علم أي بوسطي يتراوح بين اثنين إلى ثلاثة طلاب لكل محدثة .

كما أن رواية الحديث لا تقتصر على قراءته فقط بل تتطلب دراسته وتفسيره ، وقد بلغ عدد المحدثات اللواتي اكتسبن ثقة رواة الحديث وأصبح من المشهود لهن دقة ما يروينه « ١٧ » محدثة روى عنهن « ٢٧ » طالباً . وقد روى عن المحدثات زينب بنت أحمد عبد الرحيم (٦) والتي امتازت بدقة الرواية والأمانة العلمية خمسة من المحدثين . وقد مكن اتقان المرأة المحدثات لدورها كقارئة ورواية وتعليمها الآخرين من أن تجيز بعض متعلميها الذين أصابوا قدرًا كافيًا من علم الحديث ومعرفته فقد أجازت إحدى عشرة محدثة رواية الحديث لطلابها .

ان هذه الصورة الرقمية لواقع المرأة المحدثنة تكشف لنا وبوضوح عن ثقافة المرأة في العلوم النقلية وتعدد الأدوار التي تقوم بها من خلال تعلمها من الآخرين وتعليمها لغيرها وتقويمها لمن تابع الدراسة والحديث وعدم اقتصارها على جانب دون جوانب أخرى مما يتيح لنا القول بأن ما قامت به المرأة وما شغلته من أدوار مماثل في هذا الجانب الأدوار التي قام بها الرجل الى حد كبير مع اختلاف في الكم .

واذا كانت معرفة الأدوار التي قامت بها المرأة ذات دلالة كبيرة على فعاليتها ، الا أن ما يزيد الصورة وضوحاً ويعطي الدلالات تأكيداً هو معرفة المادة التي كنّ يقرأنها ويروونها ويخبرن من خلالها والوقوف على أسماء الكتب والمؤلفات التي كانت مجال القراءة والبحث والتحليل والتفسير تكشف عن نوعية الثقافة المتداولة في ذلك الحين ، ومن سبر أسماء الكتب التي قرأتها المحدثات والتي بلغ عددها (٢٤٠) كتاباً يتبين لنا أن « ٧٦ » (٧) كتاباً منها كانت كتباً دينية ركزت على الجانب التشريعي . وان أربعة منها كانت كتباً أخلاقية وثلاثة كانت كتباً لغوية، وثلاثة آخر كانت كتباً لشخصيات عربية .

ورغم هذا التنوع المحدود في محتوى الكتب بين جانب تشريعي وأخلاقي ولغوي وصوفي ، الا أن نسبة الكتب التشريعية وحدها بالنسبة للمجموع العام بلغت ٨٠٪ .

وهذا يعكس طبيعة الثقافة الدينية والمفاهيم المتداولة في ذلك العصر ، وقد شاع تداول كتب معينة بين المحدثات ، وكأنها أساس علم الحديث واتقانه .

فقد ذكر المؤرخون أن كتاب صحيح البخاري قد تداولت قراءته الكثيرات وكذلك الحال في كتاب ابن عرفة وكتاب الفوائد وكتاب انتخاب الطبراني وغيرها .

ورغم أن بعض المحدثات قد اطلعن على مؤلفات الشيخ الرئيس ابن سينا الا أن تركيزهن انصب على مؤلفاته الدينية فلم يتناولن اطلاقاً مؤلفاته العلمية والطبية والنفسية .

□ المرأة والتأليف :

تحتاج عملية التأليف الى الكثير من التعمق والتخصص في الميدان الذي يؤلف فيه، وهذا يتطلب تفرغاً كاملاً للبحث والدراسة .

ومن المسير على المرأة آنذاك وما تؤديه من واجبات متعددة أن يتحقق لها ذلك ، ومع هذا نلاحظ أن البيئة في العصر العباسي قد سرت لبعض النساء الظروف المساعدة والمناخ المناسب للتأليف . فقد قامت فاطمة بنت محمد بن أحمد السمرقندي (٨) بتأليف كتب عديدة في الفقه والحديث اعتمدتها في تدريسها لطلابها ، ولم تكتف بأن تجعل محتوى الكتب يدور حول العلوم النقلية وما تداوله الرواة بل تحلت كتبها بنظرات ابداعية تجديدية، واتصفت فتاواها بالأمانة العلمية، حيث حرصت ألا تخرج أي فتوى إلا موثقة بخطها وخط أبيها وخط زوجها .

ولتضمنها في المسائل الفقهية وتجرها فيها جعلها الملك العادل نور الدين الشهيد
مستشارة له في بعض الأمور الداخلية والمسائل الفقهية .

ولم يكن تأليف الكتب قصراً على المرأة الحرة بل استطاعت بعض الجوارى أن يسهمن
في التأليف ، فقد تميزت لبنة جارية (٩) الخليفة الحكم بن عبد الرحمن بالكتابة في مجال الشعر
والنحو والحساب والعروض .

□ المرأة وتكريم العلماء :

ان وجود العلماء في أمة ما يعطيها حقها في اثبات الوجود والأصالة وتفرد الشخصية
بين الأمم الأخرى ، وتقوم الدول بما تملك من علماء ومبدعين ، مما يجعلها تحرص على
توفير المناخ المناسب للنشاط العلمي وتأمين الحوافز المناسبة المادية منها والمعنوية لهم ،
ليجتهدوا في العلم الراغبين فيه .

وقد ساهمت المرأة في العصرين الأموي والعباسي بتكريم العلماء ، حيث باعت
فاطمة بنت محمد بن أحمد السمرقندي (١٠) سواربها لتقدم الفطور في كل ليلة من ليالي
رمضان للعلماء والفقهاء .

□ المرأة والتصوف :

شهدت تلك الفترة الى جانب المحدثات الفقيهات والواعظات نساء صالحات قانتات
عابدات متصوفات تتمتعن بالجرأة في اعلان مبادئهن والمغالاة فيهما في كثير من الأحيان
والتضحية في سبيلها .

ولم يكن تصوف أكثرهن عن جهل ، فقد تتمتعن بالفصاحة والبيان وربط التصوف
لديهن بالقيم الانسانية والتربوية .

وقد امتازت رابعة العدوية (١١) مثلاً كما وصفها ماسينيون بقدرتها على معالجة
الأحوال الصوفية المختلفة وعلى البحث في فروض دقيقة في العمليات والمقائد ومن
أقوالها (اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم) الا أن التصوف ارتبط لدى بعض
النساء بأداء سلوكيات خاصة فقد كانت النساء المتصوفات اذا ضمنن عن القيام في
صلاتهن تعلقن بالعبال ، كما ارتبط التصوف لدى بعضهن بالزهد والياس أمثال أم هارون
الغراسانية (١٢) التي عاشت حياتها في دمشق تأكل الخبز وحده وكانت تزور بيت المقدس
شهرياً مشياً على الأقدام .

وأمثال زجلة المابدة (١٣) التي وصفها الحواص بأنها صامت حتى اسودت وبكت حتى
عميت وصلت حتى اقصت .

والتصوف سلوك تصبّد فيه بعض النساء سيولهن نحو حب الله ، فقد وصفت
اليسا بنت الفضل (١٤) المحبة لله المتصوفة ب : (انسه في الوحدة ، طامه الحب عند الجوع ،
وشرا به الحب عند الظلم لا يمل من طول خدمته لله تعالى) .

ومن الطبيعي أن تعرض بعض المتصوفات اللواتي عرفن بزهدهن وانصرافهن عن الحياة الدنيا وخروجهن عن قواعد الدين أنفسهن إلى القتل (أمثال حمادة الصوفية) (١٥) التي قتلت صلباً .

□ المرأة والأدب :

لم تكن المرأة العربية بمعزل عن الحركة الأدبية في العصرين الأموي والعباسي ، فقد شاركت في فروع الأدب جميعها ونظمت الشعر الجيد بتنوع موضوعاته وتمدها من وصف وراثاء وفخر وحب وعتاب وهجاء .. الخ .

وامتاز أديها بصورة عامة بسعة الثقافة وبرقة اللفظ وعذوبة المعنى . كما اهتمت بالنثر ، والخطابة والبيان ، ويمكن القول أن طرق المرأة لباب الأدب شعراً كان أم نثراً جاء وسيلة لإثبات الذات والتعبير عن النفس والحفاظ على الشخصية ، وساعدها في ذلك ما تتمتع به من رقة الاحساس وشدة العاطفة فقد استعانت بالشعر للتعبير عن مكنونات نفسها وعميق انفعالاتها فليس كالشعر وسيلة معينة للتعبير عن الحب ومثيل ذلك فعلت عفراء بنت عقال (١٦) حيث نظمت الشعر في ابن عمها عروة بن حزام الذي قتله هواها ومعرفة غدر الآخرين بهما حيث تقول :

يا عروة ان العي قد نقضوا عهد الإله وحاولوا الغدرا

وحين تجزع لوفاته لا تجد الا الشعر بديلاً لراثائه ، والتعبير عن عظيم مصابها فتقول :

الا ايها الركب المخبون ويحكم بحق نعيم عروة بن حزام

فلا تهنيء الفتيان بعدك لذة ولا رجعوا من غيبة بسلام

وقل للعبالي لا ترجين غائباً ولا فرحات بعده بسلام

وتستمر عفراء في نذبه الى أن توفيها المنية في اليوم الرابع لوفاته كذلك ترثي ابنة أبي عبابة (١٧) أباهما الذي مات من ضرب السياط التي عرضه لها بشر بن مروان .

وترثي ميسون الباهلية (١٨) أخاها المقصص بقولها :

يا طول يومي بالقلب فلم تكد شمس الظهيرة تتقى بعجاب

لكم المقصص لا لنا ان أنتم لم ياتكم قوم ذوو احساب

وليس أبلغ من رثاء أروى بنت العارث (١٩) بن عبدالمطلب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حيث تقول :

الا يا عين ويعك أسعدينا الا وابكي امير المؤمنين

رؤينا خير من ركب المطايا وفارسها ومن ركب السفينا

وهي أبيات حكم معاوية بن أبي سفيان حين سمعها على نساء بني هاشم بالفصاحة
قائلاً : (ان نساء بني هاشم لأفصح من رجال غيرهم) .

أما امرأة يزيد بن سنان (٢٠) التي أرقها الشوق والعنين وكابدت الكثير من ألم
فراقها لزوجها الذي طال غيابه في الحرب تقول :

تطاول هذا الليل فالعين تدمع	وأرقني حزني فقلبي موجع
فبت أقاسي الليل أرمي نجومه	وبت فؤائي عانيا يتقرع
إذا غاب منها كوكب في مغيبه	لمحت بعيني أخراً حين يطلع
إذا ما تذكرت الذي كان بيننا	وجدت فؤائي للهوى يتقطع
وكل حبيب ذاكر لعبيبه	يرجني لقاء كل يوم ويطمع
فذا العرش فرج ماترى من صبايتي	فانت الذي ترعى أموري ونسمع

وهذا ما جعل عبدالملك بن مروان حين سمع هذه الأبيات يأمر بالآية يمد المقاتلون
عن بيوتهم أكثر من ستة أشهر .

وخديجة بنت أحمد كلثوم المافري (٢١) التي كانت تعاني من ألم فرقة حبيبها أبي
مروان عبدالملك بن زيادة الله بمد أن تأمر من حولهم للتفريق بينهما تقول في أبيات
عاطفية رقيقة :

فرقوا بيننا فلما اجتمعنا	مزقونا بالزور والبهتان
ما أرى فعلهم بنا اليوم إلا	مثل فعل الشيطان بالإنسان
لهف نفسي عليك بل لهف نفسي	منك أن بنت يا أبا مروان

ولم يكن أمامها سوى الشمر وسيلة للتعبير عن الاحتجاج على قسوة الحكم الذي
فرضه أخوها الكبير عليها حين أمر بالآية ترى من أحبته .

فتقول :

أخي الكبير وسيلتي ورئيسي	ما بال حظي منك حظ بغيسي
أبغي رضاك بطاعة مقرونة	عنسدي لطاعة ربي القدوس
يا سيدي ما هكذا حكم النهي	حق الرئيس الرفق بالمرؤوس
وإذا رضيت لي الهوان رضيت	ورأيت ثوب الذل خير لبوس

وإذا وجدت المرأة ضالتها في الشمر للتعبير عن حبها ولوعتها فإنها كثيراً ما استعانت

بشمر الهجاء للتعبير عن مشاعرهما السلبية تجاه الخاطئين بحقها ، فحميدة بنت النعمان بن بشير^(٢٢) حين تشمر بمدم أهلية زوجها روح بن زنباع لها فتتهجوه بقولها :

وهل أنا الا مهرة عربية سليلة افراس تجللها بفل
فان انتجت مهرا كريما فبالحرا وان يك إقراف فما انجب الفعل

وحين تبلى بالزوج الآخر الفيض بن محمد بن أبي عقيل الذي يدمن الشراب ويستمر فيه الى أن يفقد وعيه فيلطم وجهها ويقيء في حبرها فانها تهجوه بقولها :

وليس فيض بفيض العطاء لنا لكن فيضا لنا بالقيء فياض
ليث اللبث علينا باسل شرس وفي العروب هيوب الصدر جياض

وحين ترغم عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصارية^(٢٣) على الزواج ممن لا يليق بها ولا يكافئ قبيلتها ، تلوم أخاها أبان بن النعمان قائلة :

اطال الله شاوك من غلام متى كانت مناكحنا جذام
اترضى بالأكارع والذنابي وقد كنا يقرء بنا السنام

ولم تقتصر المرأة العربية على نظم الشعر هجاء ولوماً وعتاباً بل اعتمدت الى جانبه النشر وسيلة لذلك .

فأم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان^(٢٤) تعتمد أسلوباً نثرياً بليفاً حين ترد على الحجاج بن يوسف الذي وفد على زوجها الوليد بن عبد الملك ونصحه بأن يدع عن نفسه مفاكحة النساء لأن المرأة برأيه ريعانة لا قهرمانة ، ولا يجوز اطلاعها على الأسرار أو مشاورتها في الأمور لأن رأيهن الى آفن وعزمهن الى وهن وأنه من الأوفر للعقل ان لا يجلس أمير المؤمنين معهن ... الخ .

فهي تخاطب الحجاج قائلة : (أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة ولا يقتل ابن ذات النطاقين وأول مولود في الاسلام ، وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من الامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه فان كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به عنك أمك فما أحقه بالأخذ عنك والقبول منك ، وان كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فانه غير قابل منك ولا مصغ الى نصيحتك) .

وأم علقمة الخارجية^(٢٥) التي عرفت بجرأتها في قول الحق ولو أدى ذلك الى حتفها تهجو الحجاج بن يوسف قائلة : (لقد خفت الله خوفاً صيرك في عيني أصفر من ذبابة) .
وحين طلب أن تنظر اليه قالت (أكره أن أنظر الى من لا ينظر الله اليه) .

وحين يريد استشارة جلسائه من أهل الشام في أمرها قالت : (لقد كان جلساء أخيك فرعون أرحم من جلسائك حين استشارهم في أمر موسى) .

وام عوف امرأة ابي الاسود الدؤلي (٢٦) التي طلقها زوجها وألبسها صفات ليست
منها تهجو زوجها في مجلس معاوية قائنه : (يا امير المؤمنين ما علمته الا سؤولا جهولا
ملحاً بخيلاً ، اذا قال فشره قاتل ، وان سكت فذو دغائل ، ليث حين يامن ، وثملب حين
يخاف ، شحيح حين يضاف ، اذا ذكر الجود انقمع لما يعرف من قصر رشائه ، ولؤم أبائه ،
ضيفه جائع وجاره ضائع ، لا يحفظ جاراً ، ولا يحمي ذماراً ، ولا يدرك ثاراً ، اكرم
الناس عليه من أماته وأهونهم عليه من أكرمه) .

وأجادت المرأة المدح وسلكت مسلك الشمرام في مدح الملوك والأمراء فكانت تفد
عليهم وتنشدهم من قصائدها فيكرمونها ويصلونها ويستضيفونها مدة طويلة ، فقد
أجادت الشاعرة سارة العلوية صناعات كثيرة ومدحت أمير المؤمنين المستنصر بالله الحفصي
بقولها :

الشرق يزهو بكم والمغرب وكذا الزمان يتيه بكم ويقرب
وحين ارتحلت الى ابن الأحمر في الأندلس أنشدته بقولها :

سما لك ملكاً لا يزول مجدداً وعزاً وتأييداً ونصراً مؤيداً
وحين انتقلت الى ملك المغرب الأمير يوسف بن عبدالحق المريني أنشدته قائلة :

ملائت الأرض من قسط ومن عدل وقلب أعدائكم بالرعب والذعر

وعندما تتحسس المرأة العربية الامانة ولا تقوى على الدفاع عن ذاتها تعتمد شمر
العتاب لتنبه الآخرين الى الظلم الذي وقعت فيه ، فها هي الخنية جومر (٢٧) تعاتب
مروان الشامي الذي باعها للمهدي بيع المتاع بقولها :

وانت الذي أخلفتني ما وعدتني واشمت بي من كان فيك يلوم
وابرؤتني للناس ثم تركتني لهم غرضاً ارمى وانت سليم

وأثقت المرأة وصف ما حولها شعراً ونشراً بما امتازت به من دقة الملاحظة وعميق
الاحساس فليلى بنت عبيدالله بن الرحال بن شداد الأخيلية (٢٨) وصفت توبة بن حمير
الذي كان يهواها ورفض أبوها زواجها منه وزوجها لغيره بقولها :

(كان سبط البنان ، حديد اللسان ، شجاً للأحزان ، كريم المخبر ، نظيف المنظر ،
جميل المنظر) .

وقد وصفته شعراً بقولها :

بعيد الثرى لا يبلغ القوم قفره	الد ملده يغلب الحق باطله
اذا حل ركب في ذراه وظله	ليمنهم مما يخافى نوازله
حماهم بنصل السيف من كل قادح	يغافونه حتى تموت خصائله

كما وصفت ميسون بنت حميد بن بعدل الكلبيه (٢٩) زوجة معاوية بن أبي سفيان
بيئتها البدوية الأولى التي عاشت فيها طفولتها ورافقها بقولها :

لبس عباءة وتقر عيني أحب الي من لبس الشفوف
وبيت تغفق الأرياح فيه أحب الي من قصر منيف
وبكر يتبع الأظعان صعب أحب الي من بغل زفوف
أما عائشة الباعونية الدمشقية (٣٠) فقد وصفت مدينة دمشق بقولها :

نزه الطرف في دمشق ففيها كل ما تشتهي وما تغتار
هي في الأرض جنة فتأمل كيف تجري من تحتها الأنهار
وتناغيك بينها صارخات خرست عند نطقها الأوتار
كلها روضة وماء زلال وقصور مشيدة وديار

وإذا كان بعض رجال ذلك العصر قد فاضوا من خلال الشرع بشراهم فوصفوا
الشراب وألوانه وأنيته وساقيته والحانة التي يتوفر فيها وتفننوا في ذلك فإن بعض النسوة
المربيات كأم حكيم بنت يحيى الأموية (٣١) زوجة الملك بن عبد العزيز ومن بعده هشام
ابن عبد الملك والتي عاقرت الشراب وادمنت عليه تقول :

ألا فاسقياني من شرايكم الوردي وإن كنت أنفست فاسترهننا بردي
وسواري ودمليجي وما ملكت يدي مباح لكم نهب فلا تقطعوا وردي

والى جانب تلك الصورة السلبية في شعر المرأة نجد المرأة الحازمة الفارسية التي
ثبتت الحماسة في نفوس المقاتلين وتشير اريحيتهم للأقدام والمثابرة أمثال أم البراء
بنت صفوان بن هلال (٣٢) التي تنادي المقاتلين لينضروا تحت لواء الخليفة علي بن أبي طالب
والحرب معه ضد معاوية حيث تقول :

أسرج جوادك مسرعا ومشمرا للحرب غير معرفه لفرار
أجب الإمام ودب تحت لوائه وافر العدو بصارم بشار
يا ليتني أصبحت ليس بعورة فأذب عنه عساكر الفجار

وهكذا يتبين لنا أن المرأة العربية في العصرين الأموي والعباسي قد آجادت فنون
الأدب وطرقت مجالاته ، ولم تكن بذلك بل تمكنت من تحقيق مكانة متقدمة فيه ، مما
جعل النقاد يقيمون المقارنات بين الشاعرات ليبيّنوا سمات كل شاعرة وخصائص شعرها .
فالأصمعي (٣٣) الذي عرف بقدرته اللغوية ومهارته في التحكيم في جودة الشعر رأى أن
ليلي الأخيلية أشعر من الخمساء . وعلل ذلك بأن (ليلي أكثر تصرفاً وأغزر بحراً وأقوى
لفظاً) .

ولم ينفرد الأصمعي في رأيه هذا فقد أجمع الكثيرون على أن الأخيالية أفصح من الغنساء ونتيجة هذا التفوق والتميز فلم يعد شعر ليلى الأخيلية يقوم مع شعر نساء أخريات متميزات بل كثيراً ما قوّم مع شعراء متميزين وجدوا في تلك الفترة الزمنية ذاتها كالنابغة الجعدي الذي فضلت عليه .

والى جانب تفوق المرأة في مجال الشعر الذي أصبح مجال دراسة ومقارنة فإن المرأة العربية في ذلك العصر قد أدت دورها كناقدة ومقومة للشعراء أمثال عزة بنت جميل (٣٤) الففارية الصخرية التي أحباها كثير وعرف بها ، والتي نقدت شعره مبينة أوجه القوة والضعف فيه فهي تدخل عليه متكررة وتطلب منه أن ينشدها أشد بيت قاله في حب عزة ويجيبها قائلاً :

وجدت بها وجد المضلّ قلوّصه بمكة والركبان غادر ورائح

وتقف عند معنى هذا البيت لتبين له ، أنه لم يصنع شيئاً فقد يجد المضل ناقة يركبها .
ويدقق كثيراً بالمعنى وينشد قائلاً :

وجدت بها ما لم يجد ذو حرارة يمارس جمسات الركي النواجح

وتقف ثانية عند معنى البيت المنشود وتجيبه فقد يجد هذا من يسقيه :
وينشد بعدها قوله .

وجدت بها ما لم تجد أم واحد بوأحدها تطوى عليه الصفائح

وتوافق عزة على المعنى وتقبل به .

ولا تكتفي بسماع الأبيات وتدقيق معانيها وقبول أفضلها بل تتشدد أحياناً حين ترى غلبة بعض الشعراء على حبيبها الشاعر كثير حتى أنها حينما يدخل يوماً عليها تقول له :

(ما ينبغي أن نأذن لك في الجلوس لأنني رأيت الأحوص ألين جانباً عند الفواني منك في شعرك وأضرع خدّاً للنساء) .

كل هذا جعل الملك بن مروان يدخلها على حرمه ليتعلم من أدبها فقد سمع شعرها وحوارها الشعري مع كثير ، ونقدها للشعراء ، وأعجب بسرعة بديهتها وحسن منطقتها ، حين سألها بعد أن بلغت من العمر عتياً عن الذي عجب كثيراً منها قائلة :
(أعجبه مني ما أعجب المسلمين منك حين صيروك خليفة) .

□ المرأة ولحن الغناء :

وإذا كان الشعر قد حظي باهتمام المرأة في تلك الفترة فإن الشعر الملحن والمغنى قد راق لبعضهن حيث اهتمت البيئة بالغناء والموسيقى وحرص الخلفاء والولاة على أن تضم قصورهم الجوّاري والإماء المتقنات للغناء والفن .

فقد حظيت المغنية دنيا بنت أحناني الدمشقية عند الملك (٣٢) الأشراف بالاهتمام والرعاية وكثيراً ما كانت تخضع الجارية الى تربية وتأديب طويلي المدى لتصل الى درجة اتقان كافية ، تصلح بعدها لأن تكون مغنية عند أحد الخلفاء .

وبذل عبدالرحمن بن عنبه بن سميد العاص جهده في تأديب الجارية بوبه (٣٣) ليهدئها بعد ذلك الى هشام بن عبدالملك مما جعل اسماعيل بن عمار يقول فيها :

بوب حيت عن جليذك بوبا مغطئاً في تعيتي ام مصيبا
بنت عشر اديبة في قرش بخ فاكرم بهم ابا ونسبها
ادبت في بني امية حتى كملت في حورهم تاديبها

وكثيراً ما ارتبط في أذهان المواطنين أبيات مميّنة لمغنية بعينها فحباة (٣٤) جارية يزيد بن عبدالملك اشتهرت بالأبيات التالية :

واني وان فدت في طلب الفنى لأعلم اني لست في الحب اوحدا
اذا أنت لم تعشق ولم تدري ما الهوى فكُن حجراً من يابس الصخر جلعدا
فما العيش الا ما تلذ وتشتهي وان لام فيه ذو الشئان وفندا

واستطاعت بعض المغنيات أن توجد لذاتها طريقة متميزة ومدرسة خاصة يأخذ عنها الآخرون ، فجميلة السلمية (٣٥) التي كانت أعلم المغنيات في العصر الأموي أخذ عنها ممهد وابن عائشة وغيرهم كثيرون ، وكان ممهد يقول (أصل الغناء جميلة وفروعه نحن، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين) .

كما قال عنها أبو خليفة (لا يشك في فضيلتها في الغناء ولم يدع أحد مقاربتها في ذلك وكل مكى ومدني يشهد لها بالفضل) . فكانت تعلم الغناء لمن هو راغب فيه ، ولم تغن لأحد الا في منزلها . ولم يمنع الغناء المغنيات عن العبادة وأداء الواجبات الدينية فجميلة السلمية أدت فرائض الحج برفقة مغنين وجماعة من الأشراف . وخاتون (٣٦) المغنية أقامت مسجداً في دمشق سمي باسمها .

□ المرأة والتربية :

عملت المرأة العربية في بلاد الشام كمرربة لأولادها وأفراد أسرتها ، كما شاركت الإمام والجواري في تربية أولاد الأسر التي وجدت فيها .

وكانت المرأة تهتم بتربية الأبناء وفق القيم الشائعة والمبادئ التربوية السائدة ، ولم تكن لتعمل في المجال التربوي كاختصاصية وإنما يلحظ المتقصي لتلك الفترة أن بعض النساء تميزن باتقانهن طرائق تربوية صحيحة جعلت الآخرين يشقون بهن ويكلفونهن بتربية أولادهم أمثال قبول بنت عبدالله (٣٧) التي كانت مولاة المستنجد بالله والتي تمتعت بنفوذ وسلطان وأشرفت على تربية قطب الدين قيمان وسنقر الصغير .

وامثال هجيمة بنت حبي الأوصابية الدمشقية (٢٨) والتي تكتنى بأم الدرداء الصغرى حيث تميزت باتقانها الفقه وربطها العلم بالعمل وحسن روايتها الحديث وقد أخذ عنها الكثيرون أمثال مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم ، ومن أقوالها التربوية :

- أفضل العلم المعرفة .
- تعلموا الحكمة صفاراً تعلموا بها كباراً .
- ان كل زارع حاصد ما زرع من خير او شر .
- وكانت تحض على العمل وتقول : (ما بال أحدكم يقول اللهم ارزقني وقد علم أن الله لا يطر عليه من السماء ديناراً ولا درهما) .
- ولم تكتف بالقول وانما عمدت الى نشر ما تؤمن به من مبادئ تربوية في دمشق وبيت المقدس حيث كانت تقيم ستة أشهر في دمشق وستة أخرى في بيت المقدس .

□ المرأة والعلوم التطبيقية :

بين النساء المثقات في المصريين الأموي والعباسي بعض ممن مارسن العلوم التطبيقية أمثال سارة الحلبية (٣٩) التي عملت في الطب والكيمياء ، حيث كانت تحل الذهب بمعرفة وخبرة وتكتب به ، وكانت تتعاطى الكثير من الصناعات .

وامثال عائشة بنت طلحة بن عبيد الله التيمية (٤٠) التي ملكت خبرة ممتازة في علم النجوم فما مرّ نجم في السماء الا وعرفت اسمه وخصائصه ووقت ظهوره .

□ المرأة والخط العربي :

اذا كان بعض النساء قد اتقن رواية الحديث نقلاً بما تمتعن به من ذاكرة قوية الا ان اتقان الحديث والحرص على امانة النقل تتطلب كتابته على نحو دقيق . مما دفع ببعض النساء الى الاهتمام بكتابة الخط العربي والتفنن بتجميله . فهذه فاطمة بنت محمد بن أحمد السمرقندي (٤١) وفاطمة بنت محمد بن عبد القادر بن عثمان (٤٢) والتي تعرف ببنت قريزان اشتهرتا بجودة الخط والمباراة الفصيحة .

والبنة كاتبة المستنصر بالله الأموي (٤٣) لم تقتصر على كتابة الأحاديث بل اهتمت بالكتابة الديوانية أيضاً .

□ المرأة وتشبيد المؤسسات :

عمدت النساء الى اقامة المؤسسات وتشبيد الابنية المناسبة التي تتيح لها مجال العمل والتأمل الفكريين عندما تتوفر لها الامكانيات المالية الكافية والمرأة العربية التي استطاعت أن تطرق أبواباً علمية متعددة تمكنت من اشادة ابنية مختلفة الأنواع، متعددة الوظائف، يمكن أن نذكر منها :

١ - بناء المدارس :

شهدت مدينة دمشق حركة عمرانية كبيرة للمدارس والمؤسسات التربوية فقد استطاعت خاتون بنت ظهير الدين شومان (٤٤) بناء المدرسة الشومانية وعرفت تلك المدرسة باسم الطيبة، كما بنت خاتون بنت مسعود الزنكي (٤٥) مدرسة في جبل قاسيون . وأنشأت خديجة خاتون بنت عبد الملك المعظم بن العادل (٤٦) المدرسة المرشدية على نهر يزيد بالصالحية ، وشيدت ست الشام بنت أيوب اخت الملك العادل (٤٧) المدرسة الشامية والتي دفنت فيها فيما بعد .

وأنشأت عائشة زوجة شجاع الدين بن الدماغ (٤٨) المدرسة الدماغية التي كانت قبلة للعلماء الشافعيين والحنابلة .

كما شيدت عذراء بنت نور الدين شاهنشاه بن نجم الدين أيوب المدرسة العذراوية والتي تخرج منها الكثير من العلماء الى جانب أنها كانت مكاناً يتجمع فيه النساء لسماع الوعظ وتلقي الدروس ، وبنت عزيزة الدين بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين المدرسة الماردانية ، وبنت بابا خاتون بنت أسد الدين شيركوه المدرسة العادلية الصغرى في سوق المصرونية ، كما بنت تركان خاتون بنت مسعود بن قطب مودود بن اتبك زنكي ابن اق سنقر المدرسة الانطاكية في جبل قاسيون . كما بنت ام حسام الدين بنت أيوب المدرسة الجوانية .

وبنت ربيعة خاتون صاحبة اخت صلاح الدين (٤٩) مدرسة صاحبة في حي الأكراد .

ولم يكن انشاء المدارس في مدينة دمشق وحدها بل شهدت مدينة حلب بناء مدارس عديدة منها مدرسة الفردوس التي أنشأتها صفية (٥٠) بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب التي وقفت عليها أوقافاً عظيمة ووضعت فيها جماعة من الفقهاء والقراء والصوفية .

٢ - بناء مؤسسات للمعوقين :

اهتمت المرأة العربية بتكريم الانسان وأخذ المعوقون جانباً من اهتمامها فها هي فاطمة (٥١) بنت عبد الملك بن مروان تقيم داراً للضيافة لتكون مأوى للمكفوفين في منطقته المعقبة في دمشق .

٣ - بناء المساجد :

اقتدت المرأة العربية بأفعال الرجال فرفعت المساجد ، واستطاعت الست صفية (٥٢) أن توقف جامعاً باسمها في دمشق وأن تضع جملة شروط تتعلق بمواصفات الخطيب والإمام والمؤذن وغيرهم من العاملين فيه ، وأن توقف مسجداً آخر في مدينة حلب .

٤ - بناء الأربطة والأترية والغانقات :

الى جانب تشييد المدارس والمساجد عمدت بعض النساء العربيات الى بناء الأربطة

والأثرية والخانقاهات منها تربة ست الشام بنت أيوب أخت الملك العادل ، وتربة قماري بنت خاتون ، وتربة عصية الدين بنت معين الدين أنر ، والتي بنتها الى جانب الرباط .

ولما كانت تلك المؤسسات العلمية والدينية تتطلب رصيـداً مالياً كافياً فقد عملت النساء القادرات على وقف المنشآت التي تكفي لرغد تلك المؤسسات بالمال اللازم أمثال خديجة بنت نصر الله الدمشقية^(٥٣) التي وقفت بيتها على جامع الحنابلة بدمشق ، وخديجة بنت عبدالله بن عبد المناف^(٥٤) التي وقفت ربع غلة وقفها لمسجدي الطواشي وعبد الغفار وصفية بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب^(٥٥) التي وقفت أوقافاً عظيمة لصالح مدرستها بما فيها قرية كفر زيتا وغيرها .

وفاطمة بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب التي وقفت خانقاه الكاملية^(٥٦) في مدينة حلب ، وأم حسام الدين^(٥٧) بنت أيوب التي وقفت حصتها بمزرعتها في جرمانا .

الا أن بعض النساء وقفن ممتلكاتهن على الأشخاص لا على البناء كما فعلت فاطمة^(٥٨) بنت علي بن أحمد بن منصور الغساني التي وقفت على امام محراب مسجد دمشق وحقها المالكية المشتغلين في المسجد نفسه .

□ المرأة والسياسة :

شاركت المرأة في المصريين الأموي والعباسي بإدارة دفة السياسة وبسطت نفوذها في قصور الأمراء والخلفاء اما بطريق مباشرة أو غير مباشرة .

ومع أن علماء الأنثروبولوجيا يميلون الى اعتبار السياسة عمل الرجل ولا يستثنى من هذه القاعدة الا بعض النساء الموهوبات المعظيات . وان المفكرين الغربيين من دوركهيم الى بارسوز يرون أن المرأة أكثر عاطفية وتعبيراً وأقل عقلانية ونفماً من الرجل . الا أننا لا نستطيع أن نتجاهل دور المرأة الاستراتيجي في العمل السياسي في تلك الفترة فقد سعت المرأة وراء السلطة متعلقة بالرجل محاولة السيطرة على البلاد من خلاله ، بحيث كان بعض رجال السياسة واجهة ، كونه ابن المرأة الحاكمة فعلياً أو زوجها^(٥٩) .

فمنذما انحرف الحاكم عن الطريق الصحيحة للحكم سارعت أمه الى قتله ، فالزمرد بنت جادلي أخت الملك الدقاق صاحب دمشق ، والتي اشتهرت بالحزم والدين وحسن تدبير الأمور ، أمرت بقتل ولدها شمس الملوك حين تمادى في غيه وكثر فسادة وسفكه الدماء ومواطاة الفرنج على بلاد المسلمين وست الملك بنت العزيز بالله الفاطمي كلفت الوزير ابن دواس بقتل أخيها الحاكم بأمر الله لتماديته في بغيه وتقتيله الأبرياء ونهبه الدور واستحيائه للنساء .

وفاخته أم خالد بن يزيد^(٦٠) زوجة مروان بن الحكم انتقمت لابنها خالد من زوجها مروان لقوله : (يا ابن الرطبة) حيث تعاونت وجواربها على قتله .

والمرأة العربية تبقى وفيية لأمرتها فإذا مات الحاكم فيها، حفظت الملك واستطاعت تدبير مملكتها على أحسن وجه ، وهكذا فعلت صفية بنت الملك العادل بن أيوب التي ملكت مدينة حلب بعد وفاة ابنها الملك العزيز وتصرفت في الملك تصرف أشهر السلاطين ، وقامت مملكتها أحسن قيام خلال ست سنوات .

وكذلك الحال عند غازية خاتون أم الملك المنصور (٦١) التي حفظت الملك لولدها المنصور صاحب حماة بعد وفاة زوجها الملك المظفر حتى كبر وسلمته السلطة .

وامتازت بعض النساء العربيات ببعد الأفق والنظرة الحكيمة فماتكة بنت يزيد (٦٢) حين رغب زوجها عبد الملك أن تشهد بمرآثها من أبيها الولديها بحضور شهود في مقدمتهم روح بن زنباع الجذاسي رفضت ذلك وأعلنت على ملا من الجميع تصديقها بما لها على الفقراء من بني آل سفيان ، وهذا يكشف عن نظرة ثاقبة في الحفاظ على عائلتها الأموية وعلى محبة الشعب لولديها مما دفع روح بن زنباع الى وصفها بقوله (انها كجدها معاوية في الدمام) .

ورغم قدرة المرأة على العمل السياسي فقد بقيت الغالبية العظمى من الرجال يرون عدم أهليتها لهذه الفعالية ، ولا أدل على ذلك من قول الحجاج بن يوسف اللوليد بن عبد الملك (٦٣) : (يا أمير المؤمنين دع عنك مفاكة النساء يزخرف القول ، فان المرأة ريحانة لا قهرمانة ، فلا تطلمهن على شرك ، ولا مكايده عدوك ، ولا تطلمهن في غير أنفسهن ، ولا تشغلن في أكثر من زينتهن ، وإياك ومشاركتهن في الأمور فان رأيهن الى أفن ، وعزمهن الى وهن ، وإكيف عليهن من أبصارهن بحجبك لهن ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ، ولا تطلمها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الجلوس معهن ، فان ذلك أوفر لمقلك وأبين لفضلك) .

ويؤكد هذا الرأي قول صمصمة (٦٤) لمعاوية بن أبي سفيان الذي كان يستشير زوجته فاختة بنت قرظلة بن حبيب بن عبيدشمس في كل شأنه قائلاً :

(يا أمير المؤمنين كيف ننسبك الى المقل وقد جلب عليك نصف انسان) (٦٥) .

وكذلك فعل عبد الملك بن مروان الذي كان يأخذ بنصيحة عاتكة بنت يزيد بن معاوية حيث قالت له مرة حين أراد أن يباشر الحرب بنفسه :

(يا أمير المؤمنين لا تخرج السنة لحرب مصعب فان آل الزبير ذكروا خروجك فوجئ الجنود واقم ، فليس الرأي أن يباشر الخليفة الحرب بنفسه) .

وهكذا يتبين لنا أن المرأة العربية في بلاد الشام في العصرين الأموي والعباسي شاركت في مجالات الثقافة جميعها انطلاقاً من الثقافة السائدة آنذاك في المجتمع تلك الثقافة التي يحدد أطوارها بصفات عربية اسلامية والتي تعدد قيمها ومنطلقاتها الفكرية من النظرية العربية والشريعة الاسلامية .

وإن معرفة ما وصلت اليه المرأة العربية من تقدم يدفع المرأة في وقتنا الحاضر لبذل ما في وسعها للتطور وتفتيح طاقاتها الابداعية ، فإذا ما أتيح للمرأة العربية الفرص المناسبة استطاعت أن تقوم بجلال الأعمال ومهمات الأمور .

وعصرنا الحالي والتحديات التي تواجهها الأمة العربية أحوج ما تكون للمرأة المثقفة المبدعة والمؤهلة القادرة على أن تقف إلى جانب الرجل ليبنيا معاً مجتمع التقدم والعدالة .

د. صالحة سنقر

★ ★ ★

□ الحواشي :

- ١ - عمر رضا كحالة - أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام - الطبعة الرابعة - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٨٢ - الجزء الرابع - ص (٤٤) .
- ٢ - مراجع الجدول رقم (١) .
- ٣ - أعلام النساء - الجزء الأول ص (٣٢٠) والجزء الثالث ص (٣) والجزء الرابع ص (٣١) .
- ٤ - راجع الجدول رقم (٢) .
- ٥ - أعلام النساء - الجزء الرابع ص (٦٥) .
- ٦ - أعلام النساء - الجزء الثاني ص (٤٦) .
- ٧ - اقتصرنا في تحديد هذا العدد على أسماء الكتب التي يتوضح من عناونها الكثير من مضمونها .
- ٨ - أعلام النساء - الجزء الرابع ص (٩٥) .
- ٩ - أعلام النساء - الجزء الرابع ص (٢٨٧) .
- ١٠ - أعلام النساء - الجزء الرابع ص (٩٥) .
- ١١ - ابن خلكان - وفيات الأعيان والباء أبناء الزمان - تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٤٨ - الجزء الثاني - ص (٤٨) .
- ١٢ - أعلام النساء - الجزء الخامس ص (٢٠١) .
- ١٣ - أعلام النساء - الجزء الثاني ص (٣١) .
- ١٤ - أعلام النساء - الجزء الأول ص (٧٤) .
- ١٥ - أعلام النساء - الجزء الأول ص (٢٩٣) .
- ١٦ - أعلام النساء - الجزء الثالث ص (٢٩٦) .
- ١٧ - أعلام النساء - الجزء الثالث ص (٢٢٥) .
- ١٨ - أعلام النساء - الجزء الخامس ص (١٣٦) .
- ١٩ - أعلام النساء - الجزء الأول ص (٣١) .
- ٢٠ - أعلام النساء - الجزء الخامس ص (٢٩٧) .
- ٢١ - أعلام النساء - الجزء الأول ص ص (٣٢٢ - ٣٢٣) .
- ٢٢ - أعلام النساء - الجزء الأول ص ص (٣٠٠ - ٣٠١) .
- ٢٣ - أعلام النساء - الجزء الثالث ص (٣٦١) .
- ٢٤ - ابن قتيبة الدينوري - عيون الأخبار - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - مطبعة مصر - ١٩٦٤ - المجلد الرابع ص (٧٨) .
- ٢٥ - أعلام النساء - الجزء الثالث ص (٣٢٨) .
- ٢٦ - أعلام النساء - الجزء الرابع ص (٥٠) .
- ٢٧ - اهتم الأدباء والشعراء بتعليم الجوارح أكثر من اهتمامهم بتعليم الحرائر ، هادلين من ذلك إلى تحقيق ربح مادي . فقد كان حلم الجارية وأدبها يقوم في سوق الرقيق بأكثر مما يقوم به جمالها ، وكانت الجسوارح يفتنن الشعراء ويدربن على حفظ القصائد الشعرية التي تصلح للنساء والتي تمتاز بسهولةها وقرب معناها وعدوية لفظها لتتوسع راجع : ابن الفرج الأصبهاني - كتاب الألفاظ - دار الكتب المصرية - القاهرة - ١٩٢٩ - الجزء الثالث ص ٣٤٤ - ٣٦٦ - ٢٥٩ - ١٥ - ٣١٩ - ٣٦٨ - ٢٦٨ - ١٦٥ - ١٨٨ - ١٩٣ - ٢٠٠ - ٢١١ - ٢٤٣ - ٢٦٦ .



- ٢٨- اعلام النساء - الجزء الرابع ص (٣٣٢) .
- ٢٩- اعلام النساء - الجزء الخامس ص (١٣٦) .
- ٣٠- اعلام النساء - الجزء الثالث ص (١٩٧) .
- ٣١- كانت أم حكيم تشرب الخمر في كأس خاص يزن ثمانين مثقالا من الذهب للتوسع راجع اعلام النساء - الجزء الاول (٢٨٧) .
- ٣٢- اعلام النساء - الجزء الاول ص (١٢٣) .
- ٣٣- اعلام النساء - الجزء الثالث ص (٢٧٢) .
- ٣٤- اعلام النساء - الجزء الاول ص (٤١٩) .
- ٣٥- اعلام النساء - الجزء الاول ص (١٥٨) .
- ٣٦- اعلام النساء الجزء الاول ص (٢٣٤) .
- ٣٧- اعلام النساء - الجزء الاول ص (٢١١) .
- ٣٨- اعلام النساء - الجزء الاول ص (٣١٢) .
- ٣٩- اعلام النساء - الجزء الرابع ص (١٨٤) .
- ٤٠- اعلام النساء الجزء الخامس ص (٢٥٠) .
- ٤١- اعلام النساء - الجزء الثاني ص (٣٢٠) .
- ٤٢- اعلام النساء - الجزء الثالث ص (١٥٤) .
- ٤٣- اعلام النساء - الجزء الرابع ص (٩٥) .
- ٤٤- اعلام النساء - الجزء الرابع ص (٧٤) .
- ٤٥- اعلام النساء الجزء الرابع ص (٢٨٧) .
- ٤٦- اعلام النساء الجزء الاول ص (٣٤٦) .
- ٤٧- اعلام النساء الجزء الثاني ص (١٥٤) .
- ٤٨- اعلام النساء الجزء الثالث ص (١٨٧) .
- ٤٩- اعلام النساء الجزء الاول ص (٣٠٩) .
- ٥٠- اعلام النساء الجزء الثاني ص (٣٤٠) .
- ٥١- اعلام النساء الجزء الرابع ص (٧٦) .
- ٥٢- اعلام النساء الجزء الثاني ص (٣٣٠) .
- ٥٣- اعلام النساء الجزء الاول ص (٣٤٤) .
- ٥٤- اعلام النساء الجزء الاول ص (٣٣٣) .
- ٥٥- اعلام النساء الجزء الثاني ص (٣٤٠) .
- ٥٦- اعلام النساء الجزء الرابع ص (١٠٦) .
- ٥٧- اعلام النساء الجزء الخامس ص (٣٠٩) .
- ٥٨- اعلام النساء الجزء الرابع ص (٨٠) .
- ٥٩- ميشيل زميلست - المرأة والثقافة والمجتمع - ترجمة هيفاء هاشم - منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي - دمشق ١٩٧٦ ص ٦ .
- ٦٠- اعلام النساء - الجزء الرابع ص (١٤) .
- ٦١- اعلام النساء - الجزء الرابع ص (٣) .
- ٦٢- اعلام النساء - الجزء الثالث ص (٢١٩) .
- ٦٣- اعلام النساء - الجزء الاول ص (١٥٢) .
- ٦٤- اعلام النساء - الجزء الرابع ص (١٤) .
- ٦٥- يريد غلبة امراته فاخته بنت قرطة عليه .

النحاة والمفعولات

صلاح الدين الزعبلوي

شك أن على الباحثين أن يكشفوا عما يقع من هفوات العلماء ويتفق من ذلاتهم ، وأن يتداركوا ما فاتهم بعثه فاغفلوه ، وهل يعقب السكوت عن الخطأ إلا جهلاً أو تلعج المشايعة فيه إلا شراً .
على أن عليهم أن يأخذوا فيما يبحثون بسبب وثيق ، فلا يخطئوا السبيل إلى الحق ولا ينسوا عن مزاولة الصبر واستنفاد الوسع في التماسه . وأن يحسنوا التحقيق والتثبت فيما يعميرون فلا يجعلوا بالحكم قبل استيفاء الحجة فيتجه من نقلهم غرض أو انتهاك لمن حبسوا أنفسهم على اللغة فصللت نياتهم في تعري الصواب وابتغاء الحق .

من ذلك ما شغف به الدكتور مصطفى جواد ، عضو المجمع العلمي العراقي ، رحمه الله ، من تتبع للنحاة ، فيما تناوله من مباحث لغوية بارعة في كتابه (دراسات في فلسفة النحو والصرف) . وإذا كان له في هذا المضمار طرائف تبيح على النظر وفرائد تُفري بالتأمل والتدبر فإن له منازع تشف عن حيف لفضل هؤلاء وانتقاص لعظم شأنهم فيما قدموه ، وعلو مرتبتهم فيما أسلفوه .

فكيف يدرك النقد غرضه إذا صار أمره إلى أن تحيئ على الحق فلم يعلق منه بسبب ، ومال عن القصد فلم يحظ منه بطائل .

أسماء المفعولات

عقد الدكتور جواد في كتابه الذي أشرنا إليه فصلاً فيما أسماه (أسماء المفعولات) فحاول التفريق بين المفعول المطلق من جهة ، وبين سائر المفعولات كالمفعول به والمفعول فيه والمفعول لأجله والمفعول معه ، من جهة أخرى . فالمفعول المطلق هو المفعول الحقيقي ،

أما ما عدهاء فليس مفعولاً حقيقياً في واقع الأمر وجوهه • فالمفعول به هو (المفعول به فعل) أي الذي فُعل به فعل • والمفعول فيه هو (المفعول فيه فعل) • وإذا أثرنا شرح ما عناء والكشف عنه والتشيل له قلنا : إذا قلت : ضربت ضرباً فقد أحدثت الضرب فعلاً ، فـ (ضرباً) مفعول حقيقي • أما إذا قلت : ضربت الباب ، فانت لم تحدث الباب الذي أسميته مفعولاً ، وإنما أحدثت الضرب بالباب • وكذلك قولك : أكلت في السوق ، فانك لم تحدث السوق في قولك هذا ، والسوق هو المفعول ، وإنما أوقعت الأكل فيه • ونظير هذا قولك : سميت طلباً للرزق ، فانك لم توقع الطلب وقد جعلته مفعولاً ، وإنما أوقعت سميك من أجل الطلب ، وهكذا •

المفعول المطلق عند الدكتور جواد

ذكر الدكتور جواد أن المفعول الحقيقي قد أسمى (مطلقاً) لخلوه من كل قيد ، على حين قيد كل مفعول سواء بصلة من الصلوات ، فـ (به) و (فيه) و (لأجله) و (معه) هي هذه الصلوات • وما أتى به الأستاذ جواد منسّق سديد ، واضح القصد ، بين الدلالة والفرض ، وقد بسط رأيه هذا ، وأردف (وإذا كان تطبيق الرأي على واقع العربية صحيحاً ، لم يجز لمترض أن يقول لي : هذا لم يقل به العلماء • فالقواعد النحوية لم تنشأ مجموعة ولم يتدعها الجمهور في زمن واحد ، بل نشأت بالتدريج ، وابتدعها نحويون مختلفون في أزمان مختلفة باستقراء كلام العرب وما جاء على مثال كلامهم •) وتابع حديثه فقال (ومن أثبت من علماء النحو المجتهدين رأيه بالدليل البين ، فانه من الغطل والحسد والبلادة أن يقال له : هذا لم يقل به أحد غيرك ، فهو مجتهد ، وبالاختصاص تمت تلك الجمهرة من القواعد ••• وإنما يجوز للمترض أن يبطله باستدلال آخر يدعمه بالبراهين النيّرة والشواهد الكافية) • وأقوال الأستاذ هذه ، بحكمة أيضاً ، ماثلة الأغراض ، لا قلق فيها ولا اضطراب ، وهو في ذلك دقيق البحث ، بعيد الغور ، سليم الحجة •

ولكن ما الذي يمتيه ظاهر رأيه هذا وواضح قوله في الكشف عنه ؟ ألا يعنيان أن النحاة قد أغفلوا ذلك وتجاوزوه • فلم يفتنوا له أو يلتفتوا إليه ، وأنه قد استدرك عليهم ما فاتهم وغاب عنهم فلم يحفلوا به أو يابهوا له ؟ ومؤدى ذلك أنه تفرد بما ساقه من الآراء والأدلة فاتى بما لم تفتح العين على مثله ، ونزع الى ما لم يسبق الى شيء منه •

فهل خفي على النحاة حقاً أن يميزوا (المفعول المطلق) من سائر المفعولات ، وإن يخصّوه بحكم ، أو يفردوه بوصف وحال ؟

المفعول المطلق عند النحاة

ان ما قاله الأستاذ جواد في التفريق بين (المفعول المطلق) وسائر المفعولات ، قد قاله النحاة جملة وتفصيلاً ، بل مضّوا في شرحه وتبنيانه وأفاضوا في الحديث عنه وأسهبوا ، وبسطوا القول فيه بسطاً •

ما ذهب اليه ابن هشام في هذه المسألة :

قال ابن هشام في اعراب قوله تعالى (واعملوا صالحاً - المؤمنون/٢٣) على ما حكاه السيوطي في الأشباه والنظائر (٤١/٤) : (ان صالحاً ليس مفعولاً به ، بل هو اسم نعت لمصدر محذوف ، كما يقول أكثر المربين في أمثاله ، وإما حال كما هو المنقول عن سيبويه ، ويكون التقدير واعملوه صالحاً ، والضمير للمصدر ٠٠) وتابع قوله : (وبيان ذلك أمور أحدها أن الفعل المتعدي هو الذي يكون له مفعول به ٠ والمفعول به هو محل فعل الفاعل ، وإن شئت قلت : الذي يقع عليه فعل الفاعل ٠ وهذا المفعول به هو الذي بنى النحاة له اسم مفعول كمضروب ومأكول ومشروب ٠ فزيد المضروب والغبير المأكول والماء المشروب ، هي محل تلك الأفعال ، وليست مفعولة ، وانما هي مفعول بها ، ومن ضرورة قولنا مفعول به أن يكون المفعول غيره ٠ ومعنى قول النحاة بمفعول به : أنه مفعول به شيء من الأحداث ، والمفعول هو ذلك الحدث الواقع به ، وهو المصدر ، وسماه النحاة مفعولاً مطلقاً ، بمعنى أن سواء من المفاعيل مفعول مقيد ٠ فانك تقول : مفعول به ، ومفعول ليه ، ومفعول له ، ومفعول معه ، وليس فيها مفعول نفسه إلا المصدر فهو المفعول المطلق ، أي المجرد عن القيود ، وهو الصادر عن الفاعل نفس فعله ٠٠٠) .

ثم قال : (وكل فعل لم يبين منه اسم مفعول لم يتقل عنه انه متعدي ، بل هو لازم ، وإن كان له مفعول حقيقي وهو ٠٠٠ المفعول المطلق فهو مصدر وليس مفعولاً به ٠٠) .

واستطرد ابن هشام في إيضاحه فقال : (وأما سيبويه ، رحمه الله ، وهو إمام الصنعة ، فأطلق على المفعول به أنه مفعول ، ولم أر في كلامه (مفعول به) لانه قال : باب الفاعل الذي لم يتمده فعله إلى مفعول ، وباب الفاعل الذي تمده فعله إلى مفعول ٠ وذكر في الأول : ذهب وجلس ، وفي الثاني : ضرب عبدالله زيداً) . أقول : إن إمام الصنعة لم يفتحه أن يقول للمفعول به (مفعول به) ، وإذا كان قد أطلق (المفعول) على (المفعول به) في تسمية الباب اختصاراً ، فيما ذكره ابن هشام ، فقد صرح به في الشرح ، إذ قال (١٤/١) : (وذلك قولك ضرب عبدالله زيداً ، فعباد الله ارتفعها هنا ٠٠٠ وانتصب زيد لأنه مفعول به تمدى إليه فعل الفاعل ٠٠) وأطلق (المفعول) على (المفعول به) اختصاراً وتخفيفاً ، على جهة الاصطلاح ، مستفيض في كلام النحاة عامة ٠ وقد أشار إلى ذلك ابن هشام نفسه ، في مني اللبيب ، إذ قال (١٧٧/٢) : (وجرى اصطلاحهم على أنه إذا قيل مفعول وأطلق ، لم يرد إلا المفعول به ، لما كان أكثر المفاعيل دوراً في الكلام ، خففوا اسمه وأردف (وانما كان حق ذلك ألا يصدق ، إلا على المفعول المطلق ، ولكنهم لا يطلقون على ذلك المفعول إلا مقيداً بقيد الاطلاق) .

تسمية المفعول المطلق بالحقيقي عند ابن هشام :

وختم ابن هشام كلامه فقال : (وتسمية الأول ، أي المفعول المطلق ، مفعولاً حقيقة ، وتسمية الثاني مفعولاً اصطلاحاً ، أو على حذف الجار والمجرور ، وإرادة أنه مفعول به) وأردف (ولا يرد على عبارة سيبويه شيء مما ذكرناه في تسمية معنى المصدر فعلاً حقيقياً ، ولا في تسمية المصدر مفعولاً مطلقاً ٠٠) .

معارضة ما جاء به الدكتور جواد بما تقدم من كلام ابن هشام :

أقول يتبين بما قدمنا من كلام ابن هشام أن الأستاذ جواد لم يصب فيما جاء به طريفاً ، أو يضيف فيما تناوله جديداً ، وإن طلبت كلامه والتستته فيما بسطه ابن هشام ذلك على نفسه وهناك إلى موضعه . فهو لم يزد على أن أورد صدرأ مما أسهب ابن هشام بل النحاة في تفصيله وبسط أطرافه . ومن العجب العاجب أن الأستاذ قد حدد مراجعته التي استقى منها فصول كتابه أو عوّل عليها فيما عرض له من مباحث فجعل (الاشباه والنظائر) في عدادها . فكيف يصرح بجدة بحثه وسبقه إليه وتفرد به ، وقد حكينا ما حكيناه من تفصيل المسألة فيما جاء به هذا الكتاب من كلام ابن هشام ؟ وما الذي قدمه الأستاذ هنا في توفير حق النحاة فيما بسطوه من أصول هذا العلم ومسائله ، وتقرير فضلهم فيما امتدوا إليه من دقائقه وفرائده بالتلفظ والتدبير ، يقبلون وجوه الرأي ويصرفون الفكر ويوالون البحث ويستغفرون الوسع ، في كل ما عرض لهم من أحكام اللغة ، وهو أمر أظهر وأيسر وأعرف من أن يؤتى بمثال له ، وشاهد عليه .

كلام ابن هشام في شذور الذهب :

قد أوضح ابن هشام رأيه في (التفريق بين المفعول المطلق وسائر المفاعيل) في كتابه (شذور الذهب) ، فقال : وسمي مطلقاً لأنه يقع عليه اسم المفعول بلا قيد : تقول ضربت ضرباً فالضرب مفعول لأنه نفس الشيء الذي فعلته ، بخلاف قولك : ضربت زيداً ، فإن زيداً ليس الشيء الذي فعلته ، ولكنك فعلت به فعلاً وهو الضرب ، فلذلك سمي مفعولاً به ، وكذلك سائر المفاعيل (٠٠) .

كلام ابن يعيش في شرح المفصل :

ليس ابن هشام فريداً فيما ذهب إليه من تمييز المفعول المطلق بحد ، أو تخصيصه بتمريف ووصفه بالحققي . فقد قال ابن يعيش في شرح المفصل : (اعلم أن المصدر هو المفعول الحقيقي لأن الفاعل يحدثه ويخرجه من العدم إلى الوجود ، وصيغة الفعل تدل عليه ، والأفعال كلها متعددة إليه . وليس كذلك غيره من المفعولين (٠٠) . وقال أيضاً : (فإذا قلت قام زيد وفعل زيد قياماً ، كانا في المعنى سواء ، ألا ترى أن القائل إذا قال من فعل هذا القيام فتقول زيد فعله ، والمفعول به ليس كذلك . ألا ترى أنك إذا قلت ضربت زيداً لم يصح تعبيره بأن تقول : فعلت زيداً ، لأن زيداً ليس ما تفعله أنت ، وإنما أحللت الضرب به) .

كلام الرضي في شرح الكافية لابن العاجب :

قال الرضي في شرح الكافية : (٠٠) قدم المفعول المطلق لأنه المفعول الحقيقي الذي أوجده فاعل الفعل المذكور وفعله . أما المفعول به نحو ضربت زيداً ، والمفعول فيه نحو ضربت يوم الجمعة ، فليسا مما فعله فاعل الفعل المذكور وأوجده ، وكذا المفعول معه (٠٠) .

وكذلك فتعل الجامي في شرح الكافية أيضاً ، اذ قال : (المفعول المطلق سمي به لصحة اطلاق صيغة المفعول عليه من غير تقييده بالباء أو في أو مع أو اللام ، بخلاف المفاعيل الاربعة الباقية ، فانه لا يصح اطلاق صيغة المفعول عليها الا بمد تقييدها بواحدة منها فيقال : المفعول به أو فيه أو معه أو له ، وهو أي المفعول المطلق اسم ما فعله فاهل نمل ٠٠) .

ما جاء في بعض المظان الأخرى :

وقد جاء في شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك : (وسمي مفعولاً مطلقاً لصدق - المفعول - عليه ، غير مقيد بحرف جرو نحوه ، بخلاف غيره من المفعولات فانه لا يقع على اسم المفعول الا مقيداً كالمفعول به والمفعول فيه والمفعول معه والمفعول له) .

وقال الشيخ خالد الأزهرى في شرح الأزهرية : (المفعول المطلق ، أي الذي يصدق عليه قولنا مفعول صدقاً ، غير مقيد بجار حرف أو ظرف) .

وقال الشيخ حسن العطار في تعليقه عليه : (وانما سمي المصدر مفعولاً مطلقاً لانه المفعول حقيقة ، واطلاقهم على المفعول به انه مفعول بغير تقييد ، عرف اصطلاحياً . والا فزيدا من ضربت زيدا ليس بمفعول لك حقيقة ، بل المفعول لك : الضرب ، اما زيد مفعول به الضرب ٠٠) ونظائر هذا وذاك في معظم الامهات اللغوية .

عودة الى كلام الدكتور جواد ، واستعني عليه :

وقال الاستاذ جواد في فصل آخر : (ولم يبق من المفاعيل ما نسميه مفعولاً حقيقياً أصلياً الا المفعول المطلق ، لان قولك فتحت الباب فتحاً يدل على انك أحدثت الفتح وفتحته واتيته ، فهو مفعول حقيقي أصلي ، لا حاجة به الى القيد اللفظي من قيود المفاعيل الأخرى : به ومعه ولاجله وفيه ، وقد وصفه النحاة بذلك) .

اقول ما دام النحاة قد وصفوا المصدر بأنه المفعول المطلق ، وأضافوا أنه الحقيقي ، وقد رأيت كيف فصلوا القول في الداعي لهذا الوصف ، والملة لهذه التسمية ، والموجب للفصل بينه وبين سائر المفعولات من هذه الجهة ، فأين موضع السبق والتفرد ، ومحل الطرافة والطراة والبهادة فيما استرسل فيه الأستاذ وأسهب ؟

التمدية الحقيقية والتمدية اللفظية عند الدكتور جواد

وما نحن بسبيله كلام الدكتور جواد على التمدية الحقيقية واللفظية ، فقد ذهب الى ان من الأفعال التمدية ما يتمدى حقيقة ، ومنها ما يتمدى لفظاً ، اذ قال : (فالتمدي الحقيقي هو صدور الفعل من الفاعل ووقوعه على غيره . أعني الفاعل يصدر فعله من نفسه على غيره الذي هو المفعول به . فاذا قلت أكلت الطعام ٠٠ فالطعام مفعول به

بتعد حقيقي ، وقولهم سَفِهَ نفسه وغَيَّبَ رأيه ورشِدَ أمره ، إنما هي متعدية تمدياً لفظياً ، وذلك بدلالة جَوَاز قولك سَفِهْتَ نفسك وغَيَّبَ رأيه ورشِدَ أمره . . . برفع هذه الأسماء على الفاعلية ، فمن الحال أن يكون المفعول به الحقيقي فاعلاً ومفعولاً في جملة واحدة) . قال هذا ولم يحاول تعريف ما أسماه بالمفعول اللفظي .

ولنستوف ما ذكره الأستاذ في كتابه (دراسات في فلسفة النحو والصرف) حول هذه التعدية، لننتهي من ذلك إلى الكشف والتحقيق . قال الأستاذ في موضع آخر : (تكلّمنا سابقاً على التعدية اللفظية والتعدية الحقيقية ، والمفعول به اللفظي والمفعول به الحقيقي . وذكرنا من الأدلة ما هو واضح لكل ذي عقل سليم ، عالم بهذا العلم . وذكرنا أن ذلك مما لم يعرفه علماء النحو لأنهم لم يفكروا فيه ، وإنما كان وكدهم أن يمينوا المنصوب ويميزوه من غيره ، لأن المهم عندهم الأعراب الذي به تضبط صحة الكلام ، وبه يعرف اللحن والخطأ فيه) . وقال : (وقد أضفنا صفة الأصلي إلى المفعول المطلق لئلا يلتبس بالمفعول به الحقيقي ، وإن كان مقيداً بالجار والمجرور . فالمفعول به الحقيقي هو مفعول لفظي كأننا ما كان بالنسبة إلى المفعول المطلق) .

ثم تطرق الأستاذ من هذا إلى الخلاف بينه وبين الشيخ رؤوف جمال الدين ، فقال : (وقد ادعى الشيخ رؤوف في مناقشاته أن النحوي المشهور بأبي الفتح عثمان بن جني تكلم على المفعول الحقيقي الأصلي والمفعول اللفظي . . . وهم بمعد ذلك على كلام ابن جني على العامل المعنوي والعامل اللفظي . . . وأين الكلام على العامل اللفظي والعامل المعنوي من الكلام على المفعول به والمفعول المطلق . . .)

ما حده المفعول الحقيقي والمفعول اللفظي

المفعول به عند النحاة هو ما يقع عليه فعل الفاعل ، كما ذكر ابن الحاجب في كافيته ، والأقرب في حده ، كما ذكر الإمام الرضي في شرحه ، أن يقال هو ما يصح أن يعبر عنه باسم مفعول غير مقيد ، مصوغ من فعله . فإذا قلت (أكلت الطعام) كما مثل الأستاذ جواد ، فالطعام مفعول به لأن فعل الأكل قد وقع عليه فعلاً ، وحده أنك تصوغ من (أكل) اسم مفعول غير مقيد تعبر به عن (الطعام) فتقول (الطعام مأكول) ، فمأكول اسم مفعول غير مقيد بجار . ف (أكل) فعل متعد لأنه يباشر مفعوله ، وقد وقع حدثه عليه .

فإذا قلت (مررت بخالد) فخالد ليس مفعولاً به ، لأنه ليس محلاً للحدث إذ لم يتجاوز فيه الفعل فاعله إلى غيره ، فلا مساع للتعبير عنه باسم مفعول غير مقيد . فانت لا تقول في وصفه (خالد مرور) وإنما تقول (خالد مرور به) فتصفه باسم مفعول مقيد بجار . ف (مر) فعل لازم لأن الحدث فيه لم يتجاوز فاعله ، وإنما يتوصل إلى صلتته بحرف الجر .

وإذا كنت قد استدلت بقولك (الطعام مأكول) بأن (أكل) فعل متعد ، فقد استدلت باستناع قولك (خالد مرور) بأن (مر) فعل غير متعد . على أن هناك أمثالا لازمة غير

متعدية قد حذف الجار من صلتها فباشرت ما حقه أن يكون مجروراً ونصبته على الاتساع،
 فيما أسماه (الحذف والايصال) فما القول في منصوبها هذا ؟ انه ليس مفعولاً به لأن الفعل
 لم يتجاوز به فاعله ليقع عليه في الاصل . فاذا حذف فيه الجار اتساعاً فهو على تقدير
 وجوده ، لأن المعنى عليه ، كما يقول ابن يعيش في شرح المفصل . فهو منصوب ولكنه على نية
 الجر ، وقد أسماه الأستاذ جواد المفعول به اللفظي . فالمفعول به اللفظي عنده ، هو
 الاسم الذي يباشره الفعل اللازم دون أن يقع عليه فعل الفاعل ، بحذف الجار منه اتساعاً .

فاذا قلت (جئت فلاناً) ففلان عند الأستاذ ، مفعول به لفظي لأن الفعل قد باشره
 دون أن يقع عليه حدثه ، بعد أن حذف الجار منه ، على الاتساع . وقد يكون للفعل مفعول
 به على الاصل يباشره ويقع عليه فعله ، الى جانب ما أسماه الأستاذ بالمفعول به اللفظي
 كقولك (كلتلك الطعام) فالطعام المكيل مفعول به على الاصل ، فهو المفعول به الحقيقي ،
 والصير اسم منصوب على نية الجر ، فهو المفعول به اللفظي ، لأن الكلام على تقدير
 (كلت لك الطعام) .

واذا كان العرب قد حذفوا الجار على الاتساع سماعاً ، في الفصل اللازم ، أي الذي
 يتمدى بالحرف عامة ، فاسمي هذا (الحذف والايصال) كقولك (جئت فلاناً) ، فانهم
 حذفوا الجار على الاتساع أيضاً قبل الامكنة المختصة ، خاصة ، واسمي هذا عند كثرة
 النحاة (نزع الخافض) كقولك (جئت البيت) فما قول النحاة فيما نصب بعد حذف الجار
 منه على الاتساع ، هنا وهناك ، والأمريههما سواء ؟

قال الأستاذ جواد : (تكلمنا سابقاً على التعدية اللفظية والتعدية الحقيقية ، والمفعول
 به اللفظي والمفعول به الحقيقي . . . وذكرنا من ذلك ما لم يعرفه علماء النحو لأنهم لم
 يفكروا فيه ، وانما كان وكدهم أن يعينوا المنصوب ويميزوه . . .) فهل فصل النحاة
 حقاً وشغلوا عن فارق ما بين المفعول به الذي يباشره الفعل المتعدي أصلاً لوقوع فعل الفاعل
 عليه ، والاسم المنصوب الذي لا يباشره الفعل اللازم الا بعد حذف الجار اتساعاً لانتفاء
 وقوع فعل الفاعل عليه ؟

هل عرف النحاة المفعول الحقيقي والمفعول اللفظي؟

اذا كان الأستاذ جواد قد أتى بالأدلة على سداد التفريق جملة بين المفعولين المذكورين ،
 فان علينا ، كما يبدو ، أن نستظهر بالحجج على أنه كان فيما شرح وبسط وأفاض ، أدنى الى
 الاحتذاء منه الى الابتداء ، وأن النحاة قد تطرقوا الى بحث الخلاف بين هذين الموضعين
 وعرضوا له وأوسموه بحثاً ودرسا ، وأن في دعوى الأستاذ اجحافاً بحق هؤلاء وانتهاكاً .

سببويه والتعدية اللفظية والمعنوية :

هذا إمام الصناعة سببويه قد عرض في كتابه (١٠٨/١) لما أسماه (استعمال الفعل في
 اللفظ لا في المعنى) فذكر أن العرب تتسع في الكلام فتوجز وتختصر بالحذف فتستعمل الفعل
 في اللفظ دون المعنى . وما مثل به لذلك قول عامر بن الطفيل : (ولا بنيئتكم قننا وعوارضا) .

فأصل الكلام (ولابغيتكم بقنا ٠٠) • قال سيبويه : (ولكنه حذف وأوصل الفعل) •
فالضمير المتصل في (لابغيتكم) منصوب على الأصل بوقوع فعل الفاعل عليه فهو مفعول
به حقاً .

أما (قنا) فليس منصوباً على الأصل ، إذ ليس الفعل هاهنا مما يتجاوز فاعله إلى
سواه بالإضافة إلى (قنا) لينصبه ويوقع حدثه عليه • وهو لم يعمل ، إلى ذلك ، في
المعنى ، وإنما عمل في اللفظ ، لأن المعنى على الجرح واللفظ على النصب • قال سيبويه في
تعليل استعمال الفعل في اللفظ دون المعنى (٨٢/١) : (لأن قنا وعوارض مكانان ، وإنما
يريد بقنا وعوارض ، ولكن الشاعر شبهه بدخلت البيت) • قال الشارح : (الشاهد
فيه نصب قنا وعوارض على اسقاط الجرح ضرورة ، لأنهما مكانان مختصان لا ينتصبان
انتصاب الطرف وهما بمنزلة ذهب الشام) • أقول لو عمل الفعل في المعنى لقليل (لابغيتكم
بقنا) لكنه عمل في اللفظ فقال (لابغيتكم قنا) • فسيبويه إذا قد جعل عمل الفعل
بنصب الاسم بعد حذف الجار اتساعاً ، عملاً في اللفظ لا في المعنى ، من حيث كان على
تقدير وجود الجار ، والمعنى على هذا ، كما يقول ابن يعيش •

أما الأستاذ جواد فقد جعل (تمدية) الفعل بعد حذف الجار اتساعاً في مثل قولك
(سفيه نفسه) تعدية باللفظ أيضاً ، فهذا كلامه : (وقولهم سفيه نفسه وغبن رأيه
ورشد أمره ••• إنما هي تمدية تمدياً لفظياً) • وإذا كان سيبويه قد رأى أن عمل الفعل فيما
أورده عمل في اللفظ لا في المعنى ، أفلا يوحى كلامه هذا بأن ادنى شيء يسمى به ما نصب
بعد حذف الجار (المفعول في اللفظ) و(المفعول اللفظي) ، أو ليس هذا ما فهمه
الدكتور جواد ؟

وقد يسأل سائل لماذا ذكر سيبويه أن الفعل ، فيما نحن بسبيله ، قد عمل في اللفظ
ولم يقل أن الفعل قد تعدى إلى اللفظ كما فعل جواد ؟

أقول في الجواب عن ذلك أن الأفعال التي مثل بها سيبويه لازمة حيناً متعدية حيناً آخر ،
فاذا قيل (تعدى) أوجب في الأصل أن يكون الفعل متعدياً ، وإذا قال (عمل) فإنه قد شمل
بقوله اللازم والمتعدي على السواء • وهكذا فإن الفعل فيما حكاه سيبويه هاهنا ، لا يمتنع
أن يتجاوز فاعله إلى غيره من حيث أوصل ليعتدى ، وإنما يمكن أن يعمل ، وقد عمل في
اللفظ بعد حذف الجار ، وقد كان يعمل في المعنى ، لو لم يحذف • فالمنصوب بعد حذف
الجار ليس مفعولاً به البتة • أما الأستاذ جواد فقد جاء به (سفيه) على أنه فعل لا يعتدى ،
فكيف يتأتى أن يكون له في الأصل مفعول به مضمياً كان أو حقيقياً ، وإنما يمتنع أن يقال
أنه يعمل في اللفظ دون المعنى • فإذا قلت (سفيه نفسه) فقد عمل في اللفظ ، وإذا قلت
(سفيه في نفسه) على الأصل ، فقد عمل في المعنى •

ولكن هل في أمثلة سيبويه ما يصح أن يكون مفعولاً به في اللفظ ؟

أقول قد أورد سيبويه قوله تعالى (واسأل القرية التي كنا فيها والعبر التي
أقبلنا فيها يوسف / ٨٢) وقال : (إنما يريد أهل القرية ، فاختصروا عمل الفعل في القرية ، كما كان

عاملاً في الأهل لو كان هاهنا) ، ف (أسأل) قد عمل في (القرية) وتعدى إليها ، ولكن في اللفظ ، لأن المسؤول هو أهل للقرية لا القرية . ولو قيل (وأسأل أهل القرية) لكان عمل الفعل في (أهل) وتعدى إليها ، على المعنى والأصل ، ف (القرية) إذا مفعول به للفعل المتعدي ، باللفظ . و (أهل) لو قيلت لكانت مفعولاً به على المعنى والأصل . وما مثل به سيبويه لاستعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى قسوة ساعدة (كما غسل الطريق التعلب) وشرة النحاة على أن نصب (أطريق) وهو من الظروف المختصة بما كان اتساعاً ، على نزح الخافض . أما سيبويه فقد رأى أن (غسل) قد عمل في النصب ، في المعنى ، منصوبه وهو الطريق منصوب في النصب في المعنى أيضاً ، لأنه على نية الجرح ، ولو قيل (غسل في الطريق السبب) لكان عمل الفعل في المعنى .

الرضي وسمي بين المفعول به ، راضي بالمفعول به :

قد ميز الرضي ، في شرح التافية بين ما ينصب بفعل مباشر المفعول فيقع حدثه عليه ، كما فعل جواد ، وبين ما ينصب بفعل لا مباشر المفعول لتصوره عن تجاوز فاعله إلى غيره ، وإنما يعمل فيه نصباً بعد حذف الجار ، على الاتساع ، فسمى الأول مفعولاً به وجعل حده أن يوصف باسم مفعول يصاح من فعله ، غير مقيد بجار كما مر ، وسمى الآخر منصباً بالمفعول به ، كما قلت (جستردن) مفعول مجيء إليه ، فهو ملحق بالمفعول به .

ومن أمثلة الرضي (بغيت ريدا شرا) ، ف (ريدا) ليس مفعولاً به ، لقوت في الأصل (بغيت لريدا شرا) ، فريدا مبني ، فهو ملحق بالمفعول به . أما السر فمفعول به بوجه فعل الفاعل عليه ، لأن السر مفعول به في (بغيت) .

وقد ساق الرضي قول العباس (قلت ريدا شعاعاً) كما أورده الدكتور جواد . فزيد محيل له فهو ملحق بالمفعول به عند الرضي ، ومفعول به لفظي عند جواد ، لأن الأصل (قلت زيدا شعاعاً) . أما المفعول به فهو الصمغ بوجه فعل الفاعل عليه عند الرضي لأنه هو المحيل دون زيد . وقد أسماه جواد المفعول به الحقيقي ، وأتى فيه بما يشبه حرم الرضي . وقد تجنب الرضي نفسه ، كما رأينا ، أن يسمى (منصوباً) لم يتعد إلى الفعل لتصوره عن تجاوز فاعله (مفعولاً به) خلافاً لجواد ، فقال : أنه ملحق بالمفعول به .

كيف ماز النحاة النصب بأسقاط الجار من النصب بفعل متعد :

ماز النحاة ما نصب بفعل لازم بحذف الجار فقالوا أنه منصوب (بنزع الخافض) أو إسقاطه ، كما مر . وجعل جماعة ما كان من الأفعال على هذا النحو قسماً على حدة . فهناك فعل متعد بنفسه وهو ما أسماه بالمتعدي ، وفعل متعد بالجر ، وهو ما دعوه باللازم أو القاصر ، فإذا حذف الجار من هذا ، على الاتساع ، جاء المجرور منصوباً فأشبهه المنصوب بفعل متعد ، وليس هو كذلك ، وهو ما نحن بسبيله . قال ابن يمين في شرح المفصل حول قول القائل (أمرتك الخير) بنصب الخير ، وهو من الأفعال التي تنصب بحذف

الجار وأصله (أمرتك بالخير) قال : (لأن الفعل لا يتعدى إلا يعرف الجار ، فإذا ظهر حرف الجر كان الأصل ، وإذا لم يذكر كان على تقدير وجوده واللفظ به ، لأن المعنى عليه ، واللفظ معوج إليه) .

وقال ابن الأنباري في كتابه (أسرار العربية/ ١٨٠) : (وذهب الأكثر أن - دخلت - فعل لازم . وقد كان الأصل فيه أن يستعمل مع حرف الجر ، إلا أنه حذف حرف الجر اتساعاً على ما بينا ، وهذا هو الصحيح) . ونحن إذا أردنا إيضاح قولهم (منصوب على نزع الخافض) أو (منصوب على الحذف والإيصال) قلنا إن الاسم الذي ينصب بإسقاط الجار ليس مفعولاً به ، إذ امتنع أن يقع عليه فعل الفاعل ، على حد ابن الحاجب ، أو يوصف باسم مفعول تام صيغ من فعله ، على حد الرضي . فالأصل فيه هو الجر ، وإذا طرأ عليه ، بالاتساع ، ما أبطل من جره نصباً باللفظ فقد ظل على معنى الجر ، كما أوضح ابن يمين . ولذا قال سيبويه إن الفعل ما هنا قد عمل في اللفظ لا في المعنى ، فهو منصوب لفظاً ، مجرور معنى .

معارضة ما تقدم من كلام النحاة بما جاء به الدكتور جواد في المسألة :

أقول إذا عارضنا ما بسطناه من أقوال النحاة في التمييز بين المنصوب بباشرة الفعل إياه ووقوع حدثه عليه ، والمنصوب بحذف الجار ، بما تقدم من كلام جواد ، تبين لنا مبلغ ما أخطأ به صاحبنا بل ما أسرف به على نفسه ، حين أثار على هؤلاء ما محصوره واستجنوا غوامضه ، وما تفصوه واستغروا دافعه في هذا الباب . والأهمل يصح أن يسترسل فيقول في غير تحفظ أو احتياط : إن ذلك مما لم يعرفه علماء النحو لأنهم لم يفكروا فيه ، وإنما كان وكدهم أن يمينوا المنصوب ويميزوه من غيره ، لأن المهم عندهم الأهراب (٠٠) ؟

أفليس في قوله هذا انتهاك وإجحاف ، بل غش وتفريط ؟

(سَفِهَ نَفْسَهُ)

ودعوى جواد باغفال النحاة الكشف عن حقيقته

جاء في التنزيل العزيز (٠٠) إلا سَفِهَ نَفْسَهُ - البقرة/ ١٣٠) فخرجه كثرة النحاة على أن (سَفِهَ) فعل لازم ، و (نَفْسَهُ) منصوب لفظاً ، على معنى الجر . فأخذ هذا الدكتور جواد وقال : (نَفْسَهُ) : مفعول به لفظي لا حقيقي .

وقد طال كلام الأئمة على (سَفِهَ نَفْسَهُ) لا ليبينوا أن (نَفْسَهُ) في الآية قد جاء على النصب ، كما ذهب إليه جواد ، فهذا واضح لكل ذي عينين ، ولكن ليذكروا علة هذا النصب والمعنى الذي استوجبه واقتضاه . وقد ساقوا في هذا وجوهاً كثيرة : منها أنه منصوب على حذف الجار ، كما أسلفنا ، أو منصوب لأنه مفعول به حقاً فسَفِهَ فعل متعد كجهل ، ومعنى الآية (الا من جهل نفسه) ومنها أنه منصوب على التفسير أي التمييز ، وأنكره البصريون



لاشتراطهم التنكير فيه ، أو أنه على تضمين (سَفَه) اللازم معنى فعل متعد . وقد جاء كل هذا في التهذيب للأزمري . وأضاف أبو حيان في سفره الضخم البحر المحيط فقال (أو أنه شبيه بالمفعول به) . قال صاحب المصباح : (وسفه يسفه بالضم ، فان ضمن معنى التمدي كسر ، وقيل سَفَه زيد" رآيه بالنصب ، والأصل سَفَه رأي زيد ، لكن لما أسند الفعل الى الشخص نُصب ما كان فاعلا ، ومثله ضقت به ذرعا ورشدت أمرك ، والأصل ضاق به ذرعه ورشد أمره . ونصبه قيل على التمييز ولا معرفة في معنى النكرة ، وقيل على التشبيه بالمفعول ، وقيل على نزح الخافض ، والأصل رشدت في أمرك لأن التمييز عند البصريين لا يكون الا نكرة محضة) .

فما الذي يعنيه كل هذا ويُعرب عنه ؟ اليس يسفر عن أن النحاة قد توفروا على بحث هذه الأفعال ، وعكفوا على تدبرها والتلطف في الكشف عن تصرفها ، وأن أراءهم قد اختلفت اختلاف ماتصوروه من تشعب معانيها ، وانه عناهم من أمرها فوق ما عني الأستاذ جواد ، ولو أنهم لم يقتصروا اهتمامهم على تحول المعنى ، وانما هادروه الى ما اتخذوه من اساليب الصناعة في تمثيل الخبر من وجوه اعرابها وصور تخريجها ؟

ويقول الأستاذ جواد (وقولهم سَفِه نفسه وغبن رايه ورشد امره ، انما هي متعدية تمدياً لفظياً ، وذلك بدلالة جوارقولك : سمعت نفسه وغبن رايه ورشد امره ، برفع هذه الاسماء على المعاليه ، فمن المحال ان يكون المفعول به الحقيقي فاعلاً ومفعولاً في جملة واحدة) .

اقول ليس الاشكال في الامر ان تقول على اللزوم : (سَفِهت نفسه) أو (سَفِه في نفسه) ، ثم تقول على التمدي : (سَفِه نفسه) ، ويستقيم الوجهان ، ان يصح ان يكون الفعل لارما في لغة ، ومتعدياً في لغة اخرى ، وليس هما في جملة واحدة ، بل كل في جملة على حدة .

وليس الاشكال في الامر ان تعدل بـ (سَفِهت نفسه) الى (سَفِه نفسه) باللفظ والمعنى جميعاً ، لان عدولك هذا قد ان بـ (نفسه) الى ان يكون مفعولاً به على وجه ، او تمييزاً على وجه اخر . قال الجوهرى في الصحاح (وقولهم سَفِه نفسه وغبن رايه) . . . كان الاصل سَفِهت نفس زيد . . . فلما حوّل الفعل الى الرجل انتصب ما بعده بوقوع الفعل عليه ، لانه صار في معنى سَفِه نفسه بالتشديد ، هذا قول البصريين والحداسي . . . وفان المراد ، لما حوّل الفعل من النفس الى صاحبها خرج ما بعده مفسراً ليدل على أن السَفِه فيه ، وكان حكمه ان يكون سَفِه زيد نفساً ، لان المفسر لا يكون الا نكرة ، ولكنه ترك على اضافته ونصب كنصب النكرة تشبيهاً بها . . .)

اقول بل الاشكال في الامر ان تعدل بـ (سَفِهت نفسه) أو (سَفِه في نفسه) الى (سَفِه نفسه) باللفظ دون المعنى ، وهو ما نحن بسبيل بحثه وتحريره ، فـ (نفسه) هاهنا اما مفعول باللفظ ، أي منصوب على اسقاط الخافض ، أو ملحق بالمفعول به ، او شبيه به ، وليس مفعولاً به على كل حال .

وفيما تقدم من قول الجوهري (لأنه صار في معنى سفته نفسه بالتشديد ، هذا قول البصريين) نظر ، ذلك أن معنى (سفته نفسه) عند البصريين : (سفته نفسه) بالتشديد أو (سفته في نفسه) بالتخفيف ، على ما جاء في شرح الكافية للرضي .

(أبس فلانا جبّة)

وقول جواد فيه

اختتم الدكتور جواد كلامه على المفعول به الحقيقي واللفظي بمثال آخر . على أنه لم يأت هنا بمفعول مُدِل به عن الجبر إلى النصب ، وهو على معنى الجبر ، كما فعل أول مرة ، وإنما أتى بمفعول عَمِل فيه الفعل نصباً لأنه لم يجر على معناه فلم يقع حدثه عليه ، فاسماه (المفعول اللفظي) أيضاً . وقد أشار إلى أنه إذا تعدد المفعول به للفعل الواحد ، فالمفعول به الحقيقي واحد . قال الأستاذ : (لأن فلسفة التمدي لا تجيز وجود مفعولين مختلفين لفعل واحد ، والمفعول الثاني والمفعول الثالث ، هما من المفاعيل اللفظية ، لا الحقيقية ، كما ذكرنا) .

وعاد ، كما هو شأنه ، يؤكد أن ذلك لم يخطر على بال أو يسبح في فكر ، إذ أردف : (وهو بحث ثم يطرقة علماء النحو من قبل) . وفي الجواب عن هذا أقول أن النحاة لم يذكرُوا الذي ذكره الأستاذ بالفاظه ، لكنهم عنوه وقصدوه صراحة ، فيما أثر عنهم وخطف في مطولاتهم .

قال الأستاذ جواد (نحو: أبس فلانا جبّة ، واستدفع الله السوء ، فالمفعول به الحقيقي فيهما هو المفعول به الأول ، أن كان ترتيبهما أصلياً . ففلان ولفظ الجلالة مفعولان حقيقيان لوقوع الالباس ، لا اللبس ، على فلان ، ولوقوع الاستدفاع لا الدفع ، على لفظ الجلالة . ألا ترى أنك تقول : لبس فلان جبّة ، ودفع الله السوء ، فهما فاعلان في الأصل ، ولهما مفعولان حقيقيان . فلما دخل على أفعالهما ما ينسخ عنهما الفاعلية ، بقيت لهما المفعولية ، فهي حقيقية لهما لفظية لغيرهما) .

ولنأخذ المثال الأول : (البس فلانا جبّة) ففلان هو المفعول به الحقيقي ، وجبة هو اللفظي ، على حد تعبير الأستاذ . وقد أورد الأمام الرضي نظيراً لهذا المثال فقال (كسوت زيدا جبّة) (وجعل زيدا) المفعول به الظاهر لفعل (كسا) ، لأن زيدا هو (المكسوّ) فهو الذي وقع عليه فعل الفاعل . أما (جبّة) فليس مفعولاً له في المعنى ، إذ ليس هو (المكسوّ) ، وإنما هو (المكتسى) ، و (جبّة) على هذا مفعول فعل هو مطاوع لـ (كسا) ، وهو (اكتسى) . وإذا كان (جبّة) ليس مفعولاً لـ (كسا) في المعنى ، لأن فعل الفاعل لم يقع عليه ، فماذا يكون إذاً بالإضافة إليه ؟ لم يبق إلا أن تقول أنه مفعول (كسا) في اللفظ دون المعنى ، لأن المعنى على (اكتسى) ، وهو الفعل المقدّر .

ذلك أن الرضي قد جعل ضابط (المفعول به) ، في الأصل ، أن يوصف باسم المفعول المصوغ من فعله دون قيد ، لهذا اعتد المفعول في قولك (قربت زيدا وجئت زيدا وبعت زيدا

.. وأمثالها) ملحقاً بالمفعول به ، لانه على حذف الجار في الأصل . فإذا أردت وصف (زيد) فيها قلت (مقروبه منه ومجيء اليه ومبيح منه) لا (مقروب ومجيء ومبيح) . فإذا عرفت هذا فانظر الى ما قاله الرضي : (باب كسوت واعطيت تمتد الى مفعولين حقيقة ، لكن أولهما مفعول هذا الفعل الظاهر ، اذ زيدا في قولك : كسوت زيدا جبة ، واعطيت زيدا جبة ، مكسو ومعطى . وثانيهما مفعول مطاوع هذا الفعل ، اذ الجبة مكتساة ومعطوة أي مأخوذة ..) . فما الذي يعنيه هذا ؟ ألا يعني أن فعل الفاعل قد وقع على المفعول الأول وهو (زيد) ، وأن الثاني قد وقع عليه حدث الفعل المطاوع في المعنى . وقد اتخذ الرضي ضابطه في تمييز المفعول به فقال : (اذا زيدا في قولك كسوت زيدا جبة واعطيت زيدا جبة ، مكسو ومعطى) أي المفعول به ل (كسا واعطى) لوقوع فعل الكسوة والا عطاء عليه ، دون الاكتساء والعطاء . وليس هذا ما أراده الأستاذ جواد حين قال (لوقوع الالباس لا اللبس على فلان)؟ أما (جبة) وهو المفعول الثاني فقد وقع عليه حدث الفعل المطاوع في المعنى دون الفعل الأصلي . قال الرضي : (اذا الجبة مكتساة ومعطوة أي مأخوذة) فهو اذا في معناه مفعول به (لاكتسى وعطا) دون (كسا واعطى) لوقوع فعل الاكتساء والعطاء عليه ، دون فعل (الكسوة والعطاء) . واذا كان المفعول الثاني وهو (جبة) مفعولا به في المعنى للفعل المطاوع فهو ، اذا مفعول في اللفظ للفعل الظاهر لأنه هو الذي عمل فيه ، لفظا لا معنى . أفرايت أن النحاة قد بحثوا ما بحثه جواد ولو لم يوردوا الفاظه ويتخذوا مصطلحاته .

هل ورد اصطلاح (المفعول به لفظا) صراحة عند النحاة

وما الذي عتوه بهذه التسمية

أقول قد ورد عنهم ذلك ، لكنهم عتوا به شيئا آخر . انهم أرادوا بهذه التسمية مفعولا به قد ثبتت له المفعولية بمعنى بوقوع الفعل عليه ، ولفظا بنصبه ، خلافا لما ذهب اليه جواد . لقد جاء في كتاب (شرح البناء) لمحمد الكفوي ، في الكلام على أفعال لشاركة أن قولك (ضارب زيد عمرا) دل (صريحا) على صدور الضرب من زيد على وجه (الفالبية) ووقوعه على عمرو ، كما دل (ضمنيا) على صدوره من عمرو على وجه (المقلوبية) ووقوعه على زيد . فيكون كل واحد منهما فاعلا ومفعولا ، لكن (الفالب) يكون فاعلا (لفظا) ، والمفعول به مفعولا به (لفظا) ، وبالعكس معنى لا لفظا (ص/ ١٦) .

وهذا يعني أن جماعة من النحاة ذهبوا في (ضارب زيد عمرا) الى اعتداد (زيد) فاعلا لفظا (أي لفظا ومعنى) ، واعتداد (عمرو) مفعولا به (لفظا) ، أي (لفظا ومعنى) وجعل (زيد) مفعولا به معنى أو ضمنا ، و (عمرو) فاعلا معنى أو ضمنا .

والذي أصارهم الى هذه التسمية أنهم لا يمتدنون الفاعل فاعلا ما لم يكن فاعلا بمعناه ، والمفعول به مفعولا به ما لم يكن مفعولا به بمعناه أيضا . فاذا قالوا هو فاعل لفظا فقد قصدوا أنه فاعل معنى ولفظا ، أو قالوا هو مفعول به لفظا عتوا أنه مفعول به

معنى ولفظاً . أما إذا كان الاسم فاعلاً معنى أو ضمناً ولم يرفع ، أو مفعولاً به معنى أو ضمناً ولم ينصب ، فقد وصفوه بالفاعل معنى أو ضمناً ، والمفعول به معنى أو ضمناً ، ويبدو الاصطلاح ماعكساً لما عول عليه جواد .

اجحاف جواد بحق ابن جنى

بقي أن نشير إلى أن الأستاذ جواداً لم يجحف بحق النحاة عامة وحسب ، بل ندد بابن جنى خاصة وتنقصه بكلام لم يرزق حفظه من التثبت فلم يخل من استطرالة واجترار . ونحن لا نقول أن اتباع الأئمة في مثل هذا الباب أسوأ وأسلم ، لأنهم (أهل هذا الشأن وأرباب هذه الصناعة) ، ولكننا نرى أن حسن الظن بهؤلاء وبأمثال ابن جنى من أصحاب التحقيق ، قبل التصدي لتخطئتهم اليق وأجدي ، وأن تبين كلامهم واستشفاف مراميهم ومفازيه ، قبل التسوية عليهم أجدي وأجنى وأعدل . فقد رأيت فيما فصلناه أن النحاة قد أتوا ، فيما عرض له الأستاذ جواد ، بما أتى به وسبقوه إليه بالنص واللفظ بمضاً ، وبالمعنى والقصد ، دون الاصطلاح ، بمضاً آخر .

قال الأستاذ جواد في كلامه على ابن جنى : (قال ابن جنى : ألا تراك إذا قلت ضَرْبَ سميدٍ جمفراً ، فإن ضرب لم تعمل في الحقيقة شيئاً ، وهل نحصّل من قولك ضَرْبٌ إلا على اللفظ بالضاد والراء والباء ، على صورة فَعَل ، فهذا هو الصوت . والصوت مما لا يجوز أن يكون منسوباً إليه الفعل) وعلّق جواد على كلام ابن جنى هذا بقوله : (وكان ابن جنى واسع الخيال يتلمب بالكلام تلعباً ، فنقول له : إذا كان الفعل ضرب مكتوباً أو ملفوظاً ، وقد نصب جمفراً ، فهل هو صوت ؟ فلولا وجود ضَرْب لم تنصب جمفراً ، فضرب إذن هو سبب نصبه . أما أن سميداً هو الذي ضرب جمفراً فلا ينكره أحد ، ولكن بيان ذلك احتاج إلى ذكر العمل الذي هو ترجمان الحركات . فنسب الضرب إلى ضرب ، ونسب ضَرْب إلى فاعل فَعَله ، فالفاعل وجد بوجود الفعل ، ووجد الفعل بوجود الفاعل . وإنما كانت نسبة الضرب إلى الفعل لأنه نتيجة له ومن جنسه ، ولأنه قد يستغنى عن الفاعل فيقال : ضَرْب جمفر ، ولا يستغنى عن الفعل البتة) .

تفسير ابن جنى للعامل اللفظي والمعنوي :

أقول قد عقد ابن جنى في كتابه الخصائص (١١٤/١) باباً على ما أسماه (مقاييس المربية) وذكر أنها ضربان لفظي ومعنوي . وقد قصد بهذا ما قاله النحاة في بحث العامل من أنه عامل لفظي وعامل معنوي . فالعامل ، كما في الأمهات ، ما أوجب إعراب الكلمة أي جعل آخرها على وجه مخصوص ، وما يتقوم به المعنى الذي يستوجب هذا الإعراب . فإذا كان العامل يتمثل بـ (اللفظ) كالفعل قولك (قام زيد) فقد أسمى لفظياً ، وإذا كان لا يتمثل باللفظ كمعنى الابتداء في قولك (زيد كريم) أو وقوع فعل المضارع موقع الاسم في قولك (مررت بامرأة تبكي) أي باكية ، فقد أسمى معنوياً . وأكثر البصريين على أن

العامل المعنوي لا يكون في غير هذين الموضعين . وقد أضاف الكوفيون ما أسماه بـ (الخلاف) فاعتدوا عامل النصب في الظرف إذا كان خبراً ، وفي الفعل المضارع بمد فاء السببية أو واو المية ، عاملاً معنوياً أيضاً .

يمرض ابن جني لتسمية العامل ويوضح ما عناه النحاة بقولهم (لفظي) فيقول : ليس العامل اللفظي ما عمل بلفظه ، فـ (ضرب) في قولك (ضرب سعيد جعفرأ) عامل لفظي ، لكنه لا يعمل بلفظه ، وإنما يعمل بمعناه ، واللفظ مصاحب لهذا المعنى . فـ (ضرب) الحاصلة بلفظك (الضاد والراء والباء) على صورة (فعل) لم تعمل في الحقيقة شيئاً لأنك إذا قصدت بها اللفظ كانت الصوت ، ولا شأن للصوت في العمل . ويتحصل من هذا أن (ضرب) التي تعمل إنما تعمل ، في واقع الأمر ، بمعناها لا بلفظها ، ولو أسييت عاملاً لفظياً ، لأن مراد النحاة من قولهم (العامل اللفظي) العامل الذي يصحبه اللفظ ، و (العامل المعنوي) العامل الذي لا يصحبه اللفظ ، وكلام ابن جني هذا واضح ، ظاهر الاستقامة .

وقد أبرز النحاة هذا القصد حين قالوا (العامل) لفظياً كان أو معنوياً ، ما به يتقوم ، أي يحصل المعنى المقتضي للاعراب ، ففي (جاءني زيد) جاء عامل ، إذ به حصل معنى الفاعلية في زيد . وفي (رأيت زيدا) رأيت عامل ، إذ به حصل معنى الفاعلية في زيد . وفي (مررت بزيد) الباء : عامل إذ به حصل معنى الإضافة في زيد ، كما جاء في شرح الكافية للجاسي . وهكذا أسمى العامل في الجمل الثلاث لفظياً لأنه تمثل بالفاظ (جاء ورأى والباء) . لكن هذا العامل لم يعمل بلفظه وإنما عمل بمعناه ، أي بما أحدثه من أثر معناه في الممول حتى أصبح هذا فاعلاً أو مفعولاً به أو غير ذلك .

نظرية العامل في النحو :

ولسنا هنا بسبيل نقد (نظرية العامل) . فقد جاء في العدد الثالث من مجلة اللسان العربي للعام (١٩٦٥) للميلاد (ص/١٤٣) : (ابن جني هو أول من أنكر العامل في كتابه الخصائص حيث قال : وأما في الحقيقة ومحصل الحديث فالحركات من الرفع والنصب والجزم ، إنما هي للمتكلم نفسه ، لا لشيء غيره . ثم قال : إن ضرب انتهت بمجرد النطق بها ، فلا يمكن أن تكون عاملاً في زيد أو عمرو وذهب ابن مضاء قاضي قضاء قرطبة في عهد الموحدين على هذا النحو في كتابه الرد على النحاة) . وهو وجيه ، وإنما نحن بصدد بيان ما عناه النحاة بقولهم لفظي ومعنوي ، وما أراد ابن جني في الكشف عما قصدوا إليه ، أو يجب أن يقصدوا إليه ، في هذه التسمية . فالاعراب أثر يجلبه العامل ، وهو لفظي ومعنوي ، فاللفظي الذي يتمثل باللفظ مذكوراً أو مقدراً ، والمعنوي الذي لا يمثله اللفظ .

ونذكر هذا ما قام بين ابن أبي عبد الله الجرمي وأبي زياد الفراء حين سأل هذا عن (زيد منطلق) لِمَ رُفِعَ زيد؟ فقال الجرمي: رُفِعَ بالابتداء، وقال الفراء: فاعظه، قال: هو معنى لا يظهر، قال فمثله، قال: لا يمثل. قال الفراء: ما رأيت كاليوم عاملاً لا يظهر ولا يمثل. وأصحاب الفراء يرفعون المبتدأ بالخبر خلافاً للبصريين الذين يرفعونه بمعنى الابتداء، أي بمامل معنوي لا يظهر ولا يمثل.

قال ابن جني: (وانما قال النحويون: عامل لفظي وعامل معنوي ليُروك أن بعض العمل يأتي مسبباً عن لفظ يصحبه، كمررت بزيد، وليت عمراً قائم، وبمضه يأتي عارياً من مصاحبة لفظ يتملق به كرفع المبتدأ بالابتداء، ورفع الفعل بوقوعه موقع الاسم)، وأكد ذلك بقوله (اعلم أن القياس اللفظي اذا تأملت، لم تجده عارياً من اشتغال المعنى عليه). ونظير ذلك كلام الشيخ أمين السفرجلاني في القطف الدانية، اذ قال (العامل اللفظي ما يكون للسان فيه حفظ. والعامل المعنوي ما لا يكون للسان فيه حفظ). والكلام في كل ذلك واضح مبين. فإين هذان رد الأستاذ جواد وقوله: (فالعامل وجد بوجود الفعل، ووجد بوجود الفاعل، وانما كانت نسبة الضرب الى الفعل لأنه نتيجة له، ومن جنسه). بل أين هذا الذي بسطه ابن جني وأوضحناه من قول الأستاذ: (وكان ابن جني واسع الغيال يتلمب بالكلام تلمباً)؟



مركز تحقيق وتطوير علوم العربية

★ ★ ★

ابن خلدون سائراً

محمد خير شيخ موسى

يرتبط الحديث عن ولي الدين أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي (تونس ٧٣٢ - القاهرة ٨٠٨ هـ) بمقدمته الشهيرة لكتاب العبر المعروف بتاريخ ابن خلدون ، والتي أرسى فيها قواعد علم الاجتماع والعمران ، وأصول علم التاريخ ، وعوامل نشأة الدول ، وأسباب زوالها ، وأحوال الاجتماع البشري ومظاهره العضارية والاقتصادية والثقافية ، وغير ذلك مما تناول في هذا المشروع المعرفي الطامح الى وضع نظرية عامة في المعرفة .

وينبغي أن نشير - في بداية هذا الحديث - الى أن الاحساس بقيمة هذه المقدمة لم يكن وليد عصرنا ، إذ أبدى القدماء اعجابهم الشديد بها ، وأدراكهم العميق لأهميتها وتقديرهم الفائق لمؤلفها ، فقال المقرئ : « ألم يعمل أحد مثالها ، وأنه لم يزل أن ينال مجتهد منالها ، إذ هي زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والأخبار ، وتنبئ عن حال الوجود ، وتنبئ عن أصل كل موجود » (١) ، وذكر ابن عمار أنها : « حوت جميع العلوم ، وجلت عن مجتهدا السنة الفصحاء فلا تروم ولا تحوم » (٢) ، وروى المقرئ والتبكتي وغيرهما أن ابن الأزرق الأندلسي (- ٨٩٦ هـ القدس) « لخص مقدمة ابن خلدون وزاد عليها » (٣) في كتابه « بدائع السلك في طبائع الملك » ، كما تدل على ذلك صورة الكتاب الذي وصل اليها .

وقد لاقت هذه المقدمة اهتماماً واسعاً من الماصرين ، فكان لها النصيب الأوفر من دراساتهم وأبحاثهم ، وكان للفريسيين والمستشرقين منهم بخاصة السهم الأوفى في ذلك ، فقاموا بترجمتها الى لغاتهم الحية وطبعوها منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وقدموا دراسات قيمة وعميقة حولها قد يصعب حصرها ، ويطول تعدادها (٤) .

وليس لنا أن نفضل عما رافق هذا الاهتمام الواسع من ظروف تاريخية وسياسية ، لا مجال للحديث عنها ، ونكتفي بالإشارة إلى بعض الدوافع الكامنة وراءه كما وردت على لسان إيف لاکوست في كتابه عن ابن خلدون الذي عرض فيه آراء عدد من الذين وجدوا في بعض أقوال ابن خلدون مجالا طيبا للطعن على العرب ففسال في معرض رده عليهم : « ولكن ليس ابن خلدون الذي مجّدوا عظمته كي يعطوا ثقلا أكبر للنظريات المعادية للعرب التي يزعمون نسبتها إليه ، مغربي لا ريب فيه » . « يقول غوتيه : كلا !! لأن الروح الشرقي هو عكس روحنا تماما محروم من الإدراك النقدي العقلاني ، ان ابن خلدون يريد أن يفهم ، وذلك ما هو مغربي تماما بالنسبة لمسلم ، ان لديه مفهوما غربيا للتاريخ » (٥) .

ومن هنا فقد تركّز اهتمامهم على بعض الجوانب التي تخدم أهدافهم التي بدا لهم فيها ابن خلدون الحضرمي متجهما على العرب ، أو منتقضا منهم ، ومن ذلك هذا النص المترجم إلى لغاتهم على هذه الصورة : « كل بلد احتله العرب ما عثم أن دمر ، الخراب أثناء حكمهم عم كل شيء ، فاليكم البلدان التي احتلها العرب منذ أقدم العصور ، لقد زالت حضارتها ، كما زال سكانها ، الأرض ذاتها تبدلت طبيعتها ... العرب عاجزون عن انشاء دولة أو امبراطورية » (٦) .

ومع ما بين هذا النص المترجم ، والأصل العربي من تبين ، الا أنه كفيلا بالكشف عن حقيقة هذا الاهتمام الشديد بالمقدمة ومؤلفها العربي صليبية ، وان كان يقصد بالعرب : البدو من أهل الوبر كما تدل على ذلك المواضع الكثيرة التي ورد فيها ذكرهم في المقدمة وغيرها من كتب ابن خلدون وأشعاره ، ومن ذلك قوله : « العرب أبعد نجمة واشد بداءة لأنهم مختصون بالقيام على الإبل » وقوله « الخاصية التي يتميز بها العربي من الهجين والحضري » وقوله : « أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد » ، وقال عن هؤلاء العرب البداءة : « ان العرب اذا تغلبوا على أوطان اسرع اليها الخراب ... فغاية الأحوال عندهم الرحلة والتقلب ، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ، ومناف له » (٧) .

وقد كان لهؤلاء العرب في أقطار المغرب بخاصة تاريخ حافل بالعروب مع سكان الممالك والأمصار ، فقاموا بتخريبها والاستيلاء على مقاليد الأمور فيها مرات متوالية ، وكانوا الشغل الشاغل لكل من حكم المغرب من الملوك ، وقد أتى ابن خلدون وغيره على تفصيل القول في ذلك ، في مقدمته وتاريخه وتعميره وأشعاره ، ومن ذلك قوله في إحدى قصائده في مديح السلطان المغربي : « ثم رجعت إلى وصف العرب وأحيائهم » (٨) :

عجب الأنام لشانهم ، بادون قد قذفت بحيمهم المطي الدائل

كانوا يروعون الملوك بما بدوا وغدت ترفئه بالنعيم وتغفل

ولم تكن هذه الدلالة وليدة عصر ابن خلدون اذ طالما ترددت على السنة القدماء وفي كتبهم ، ومن ذلك ما رواه القائل في أماليه على لسان بعض الرواة وقد سمع

بعض نساء العرب توصي ابنها : « فقلت بالله يا أعرابية إلا زدته في الوصية فقالت : أو قد أعجبك كلام العرب يا عراقي » (٩) ، وقال البكري في تفسير قول أحد الأعراب : « أنا العربي المحض » « يريد أنه أعرابي بدوي من أهل الوبر لا من أهل المدر ولا من أهل الأمصار » (١٠) ، وما تزال هذه الكلمة مستعملة للدلالة على هذا المعنى نفسه في سائر الأقطار العربية ، وفي أقطار المغرب بخاصة ، وعسى أن يتم الكشف عن حقيقة هذه الدلالة بعد انجاز المشروع الضخم الذي يقوم به الأستاذ آلان جونس وسوزان كوكي من أكسفورد قصد تحليل معجم المقدمة بالمقل الالكتروني ، ودراسة مفرداتها ومصطلحاتها (١١) .

وقد استمرت هذه المفاهيم توجه البحث في مقدمة ابن خلدون إلى أيامنا هذه إذ وجدنا آثارها في ندوة ابن خلدون بالرباط ١٩٧٩ ، والتي قدم فيها الأستاذ جاك لانفاد بحثاً حول « فلسفة اللغة عند ابن خلدون » انتهى فيه إلى القول « بأن أساس تفكير ابن خلدون في اللغة هو التضاد بين الحضارة والبداءة » . إن الإنسان العربي ضائع ومشئت حقاً ، إذا أراد حسن الكلام وفصاحته وجب عليه أن يرجع إلى القفر أو البادية ، وإن أراد أن يتقدم إلى المدينة حيث فساد اللغة . . . يظهر لنا من ذلك مبدأ تفسيري وهو أن اللغة العربية لغة شفاهية » (١٢) .

ومهما يكن من أمر هذا الاهتمام الواسع والمستمر بابن خلدون ومقدمته ، وما يمكن أن يكون وراءه من دوافع وأسباب ، فقد حجب عنا ابن خلدون فلم نعد نرى منه سوى مقدمته ، مع أنها آخر ما ظهر لنا من تأليفه وكتبه وأشار به ، إذ شرع في تأليفها أثناء اعتقاله في قلعة ابن سلامة طوال أربع سنوات ، وانتهى من وضع مسودتها سنة ٧٧٩ هـ وقال في ذلك : « أتممت هذا الجزء الأول [المقدمة] بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهديب في مدة خمسة أشهر . . . وكنت طوال هذه المدة عاكفاً على تأليف هذا الكتاب [العبر] » (١٣) ثم أكمل منه نسخة رفعها إلى سلطان تونس مشفوعة بقصيدة من شعره سنة ٧٨٤ هـ ، وهي السنة التي غادر فيها بلاد المغرب إلى غير ما رجعة متوجهاً إلى مصر ، وكان إذ ذاك قد جاوز الخمسين من عمره ، وكانت شهرته قد طبقت آفاق المغرب والأندلس ، ووصلت أصدائها القوية إلى المشرق ، وهي قائمة أساساً على شاعريته الفذة ، وحسن أدبه وترسله ، وجودة تأليفه وكتبه .

وكان قد ألف أول كتبه سنة (٧٥٢ هـ) ولما يكمل العشرين من عمره ، إذ عمد إلى تلخيص المحصل لفخر الدين الرازي وسمّاه « لباب المحصل » ، ووضع في التصوف كتاب « شفاء السائل » ، وقام بتلخيص كتب ابن رشد ، ووضع كتاباً في الحساب ، وتقييداً في المنطق ، وشرح أرجوزة صديقه لسان الدين ابن الخطيب في أصول الفقه ، « وشرح القصيدة المسماة بالبردة [للبيصيري] شرحاً دل فيه على انفساح ذرعه ، وتفنن ادراكه ، وغزارة حفظه » (١٤) « كما يقول ابن الخطيب صاحبه ، ثم قام بتأليف العبر ومقدمته وذيله : التمرير بابن خلدون ، وهو من الكتب التي تدخل في باب السيرة والترجمة الذاتية بحسب مفاهيمنا المعاصرة ، كما ذكرت له رسالة في « وصف بلاد المغرب » (١٥) « كتبها لتيمورلنك أثناء لقائه به في دمشق بعد ذلك بزمان طويل » .

على أن شهرته الحقيقية في عصره إنما تقوم على شعره وأدبه كما تؤكد ذلك سيرته وأخباره وتراجمه قبل أن يؤلف العبر بزمان غير قصير ، فقال صديقه الوزير ابن الخطيب في الإحاطة « هذا الرجل الفاضل حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الغصل ، رفيع القدر ، مفضرة من مفاخر التخوم المغربية ٠٠٠ وأما نشره وسلطانياته [رسائله] مرسلها ومسجعها ، فخلج بلاهة ، ورياض فنون ، ومعادن ابداع ٠٠٠ وأما نظمه فقد نهض لهذا العهد قدماً في ميدان الشعر ، وأغري نقده باعتبار أساليبه ، فانشال عليه جوده ، وهان عليه سعبه ، فأثنى منه بكل غريبة (١٦) » وقدم لنا مختارات مطولة من شعره ، وأشار في آخر ترجمته الى زمن كتابتها في حدود سنة ٧٦٥ هـ ولم يكن ابن خلدون قد تجاوز الثلاثين إلا بسنوات قليلة .

وفي هذه الفترة ترجم له معاصره اسماعيل بن الأحمر في نشر الجمان فقال : « وهو من لا ينكر حاله في ارتياض العلوم الشريفة ٠٠٠ لما احتوت عليه ترجمة ذكره ، وخبيثة فكره من أساليب النظام [النظم] الرائقة العلاء ، ومجاري أقوال النشر البارة الانشاء (١٧) » وروى لنا ١٠٧ أبيات من قصيدته في استعطاف السلطان أبي عنان المريني ، وهي أول ما نعرف له من الشعر .

ووصف ابن عمار تلميذه نظمه ونشره بالسحر فقال : « وله من المؤلفات غير الانشاءات النثرية والشعرية التي هما كالسحر : التاريخ العظيم » (١٨) .

٠٠٠ وقال الشيخ ابراهيم الباعوني الدمشقي : « وكان ابن خلدون هذا من عجائب الزمان وله من النظم والنثر ما يزري بمقود الجمان (١٩) » ، وقد أشار الى ذلك كل من ترجم له أو ذكره من معاصريه أو من أتى بعدهم من المؤلفين ، كما أشار ابن خلدون الى اشتغاله بالشعر والكتابة والأدب إذ كان سلّمه الى الشهرة وارتقاء المناصب شأنه في ذلك شأن لسان الدين ابن الخطيب أديب المدوة الأندلسية وشاعرها كما كان ابن خلدون أديب المدوة المغربية وكاتب سلاطينها وشاعرهم منذ مطلع حياته الى حين انهماكه في إنجاز مشروعه التاريخي الكبير ومقدمته ، فنراه بعد ذلك يهمل الشعر ويقول بعد عودته الى تونس حاملاً معه العبر التي قدمه الى سلطانها مشفوعاً بقصيدة من شعره صدرها بقوله : « وكان مما يفرون به عليّ قمودي عن امتداحه ، فاني كنت قد أهملت الشعر جملة وتفرغت للملم فكانوا يقولون له : انه إنما ترك ذلك استهانة بسلطانك لكثرة امتداحه الملوك قبلك ٠٠٠ فلما رفعت له الكتاب أنشدته هذه القصيدة امتدحه واعتذر عن انتحال الشعر » (٢٠) وفيها يقول :

مولاي غاضت فكرتي وتبلدت	مني الطباع فكل شيء مشكل
وأجده ليلي في امترأ قريعتي	وتعود غوراً بينما تسترسل
فأبيت يعتلج الكلام بغاطري	والنظم يشرد والقوافي تجفل
من بعد حول انتقيه ولم يكن	في الشعر حولي يصاب ويهمل

فأصونه عن أهله متواريا أن لا يضمهم وشعري محفل
وبنات فكري إن أتتك كليلة مرهء تخطر في القصور وتغلغل
فلها الفغار إذا منعت قبولها وأنا على ذاك البليغ المقول

وكان قد خاطبه بقصيدة أخرى أشار فيها إلى ذلك وفيها يقول (٢١) :

واليكها مني على خجل بها عذراء قد حليت بكل نفيس
عذرا فقد طمس الشباب ونوره وأضاء صبح الشيب بعد طموس
أنحى الزمان علي في الأدب الذي دارسته بمجاميع ودروس
فسطا على وفري وروع مأمني واجتث من دوح الشباب غروسي

فكان ذلك آخر ما نعرف له من الشعر في المغرب ، ولم نسمع له بعد ذلك إلا بقصيدة
يتيمة قالها في مصر بعد استقراره فيها .

وعلى ذلك فإن بإمكاننا التفريق بين مرحلتين في حياته : تمثل الأولى ابن خلدون
الشاعر الأديب وتبدأ من مطلع حياته إلى حدود تأليف المقدمة والعبر وتستمر قرابة
نصف قرن من الزمان ، وابن خلدون العالم المؤرخ الفقيه المحدث بعد ذلك .

□ ابن خلدون الشاعر :

وقد بدأ ابن خلدون المرحلة الأولى من حياته كاتباً وأديباً شاعراً على سنة أهل عصره
من الكتاب والشعراء الطامحين إلى الرئاسة والمعالي ، وجرياً على عادة أهل بيته الذين
كانوا من النابغين في الأدب والشعر والسياسة ، فكان أبوه أديباً ناقداً « مقدماً في صناعة
العربية ، وله بصر بالشعر وفنونه (٢٢) » كما كان أخوه يعقوب من شعراء عصره ، روى له
المقري وغيره أشعاراً كثيرة (٢٣) .

وفي هذه المدرسة نشأ ابن خلدون ، فأخذ يحفظ وافر من الثقافة الأدبية وتلقى
أصولها على أيدي كبار الشيوخ من الأدباء والشعراء والنقاد وعلى رأسهم والده الذي
بدأ به قائماً بشيوخه فقال : « تعلمت صناعة العربية على والدي ، وعلى استاذي تونس ،
ومنهم الحصري : وكان أماً في النحو . . . والقصار وكان ممتعاً في صناعة النحو وله
شرح على قصيدة البردة المشهورة . . . ومنهم إمام العربية بتونس محمد بن بحر . . . وكان
بحراً زاهراً في علوم اللسان ، وأشار علي بحفظ الشعر ، فحفظت كتاب الأشعار الستة
والعماسة للأعظم وشعر حبيب وطائفة من شعر المتنبي ومن أشعار كتاب الأغاني . . . وابن
رضوان وكان من المفاخر في براعة خطه وكثرة علمه . . . وأحمد بن شبيب وكان له شعر
سابق به الفحول . . . وإمامة في نقد الشعر . . . الشريف السبتي إمام اللسان حوكماً ونقداً

في نظمته ونشره ٥٠٠٠ وابن الحاج شيخ المحدثين والفقهاء والأدباء والصوفية والخطباء بالأندلس «(٢٤)» وغيرهم كثير ممن شيوخه الذين كان لهم أكبر الأثر في توجيهه وتفتيح شاعريته .

وقد ظهر نبوغه في الكتابة والشعر مبكراً ، فاستعمله القائم بالأمر في تونس في كتابة العلامة سنة ٧٥١ هـ ، ولما يبلغ العشرين من عمره ، ثم سعى للقاء السلطان أبي عنان المريني سلطان المغرب فعينه عضواً في مجلسه العلمي بفاس ، وولاه الكتابة والتوقيع ، إلى أن تكدر جواره عنده فقبض عليه وحبسه ، وظل في محبسه إلى أن توفي السلطان سنة ٧٥٩ هـ ، وكان قبيل ذلك قد بعث إليه من سجنه بقصيدة يستعمله فيها ، فكان لها منه موقع ، ووعد بالافراج عنه ، فحال موته دون ذلك ، وأفرج عنه القائم بالأمر بعده الوزير ابن عمر وأعادته إلى ما كان عليه ، وفي هذه القصيدة يقول :

على أي حال لليبالي أعاتب وأي صروف للزمان أغالب
كفى حزناً أني على القرب نازح وأنني على دعوى شهودي غائب
وأنني على حكم العواطف نازل تسألني طورا وطورا تغالب

وهي أول ما نعرف له من الشعر ، دون أن يعني ذلك أنها أول قصيدة قالها في حياته ، فهي قصيدة طويلة بديعة ومؤثرة ، تشي بطول باع صاحبها في ميدان الشعر ، بما اشتملت عليه من جودة المعاني ، وقوة التعبير ، وبراعة التصوير ، وطول النفس الشعري ، ذكر ابن خلدون أنها في نحو مائتي بيت دون أن يروي منها سوى خمسة أبيات (٢٥) ، واحتفظ ابن الأحمر بمائة وسبعة أبيات منها (٢٦) ، رجح ابن تاوويت أنها عدة أبياتها كاملة (٢٧) ، وتابعه في ذلك الدكتور رضوان الداية (٢٨) .

وحين استولى أبو سالم المريني على مقاليد الأمور في المغرب سنة ٧٦٠ هـ قرّب إليه ابن خلدون ، واستعمله في كتابة سرّه والانشاء لمخاطباته ، فأخذ نفسه بالشعر ، فأنشأ عليه منه بحور (٢٩) كما يقول ، وكانت أكثر أشعاره في مديحه ، وما زاد في تشجيعه على ذلك وفادة لسان الدين ابن الخطيب مع سلطانه المخلوع إلى المغرب ، ومديحه سلطانه ، بفر من قصائده ، مما حفز ابن خلدون إلى مجاراته في ذلك ، ومن شعره إبان هذه المرحلة قوله في مطلع قصيدة يهنئ فيها أبا سالم بحلول المولد النبوي سنة ٧٦٢ هـ :

أسرفن في هجري وفي تعذيبي وأطلن موقف عبرتي ونعيمي
وأبين يوم البين موقف ساعة لسوداع مشغوف الضؤاد كتيب
لله عهد الظاعنين وغادروا قلبي رهين صباية ووجيب

وهي قصيدة طويلة ذكر ابن خلدون في تعريفه سبعة وأربعين بيتاً منها ، وزاد عليه ابن الخطيب ستة أبيات أخرى ، ونقلها عنه المقرئ ، ووردت بعض أبياتها متفرقة في ثنايا بعض المصادر المختلفة ، فكان مجموع ما وصل إلينا منها ثلاثة وخمسين بيتاً (٣٠) .

ومما وصل إلينا من شعره في هذه الفترة قصيدة خاطب بها أبا سالم « عند وصول
مدية ملك السودان إليه ، وفيها العيسوان الغريب المعروف بالزرافة » فاجتمعت الشعراء
لوصفه فقال ابن خلدون :

قدحت يد الاشواق في زندي وهفت بقلبي زفسرة انوجد
وبسنت سلواني على ثقة بالقرب فاستبدلت بالبعد
لا عهد عند الصبر اطلبه ان الفرام أضاع من عهدي

وقد روى منها في التعريف سبعة وثلاثين بيتا ، ولم يزد عليها أحد غيره شيئا ، وقال
بعد أن رواها : « وأتشدته في سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيرا لم يحصرني الآن شيء
منه » (٣١) ، مما يدل على كثرة شعره في هذه المرحلة على قصرها ، إذ سرعان ما قتل أبوه
سالم ولما يمرض له على العرش سوى سنتين وأربعة أشهر ، وتولى بعده أخوه تاشفين ،
واستبد بالحكم الوزير عمر بن عبدالله ، فافترأ ابن خلدون على ما كان عليه ، ثم أقصاه من
مناصبه بعد أن علم دخيلة نفسه ومطامعه ، بعث إليه بقصيدة يؤكد فيها إخلاصه
ويمتدحه ، ويقول فيها (٣٢) :

يا سيّد الفضلاء دعوة مشفق نادى لشكوى البث خير سميع
ما لي وللأقصاء بعد تعلته بالقرب كنت لها أجل شفيح
وأرى الليالي رنقت لي صافيا منها فاصبح في الأجاج شروعي

وقد ضرب ابن خلدون صفحا عن ذكرها ، بينما روى ابن الخطيب ثلاثين بيتا منها ،
ونقلها عنه صاحب النفح ، ويبدو أنها أطول من ذلك ، وأن مطلعها لم يصل إلينا كما تدل
على ذلك ديباجتها وأبياتها .

على أن ابن عمر لم يلق له ، فطلب الاذن بمغادرة فاس الى تونس ، فمنعه من
ذلك ، فاستجار بالوزير مسمود بن ماسي ، وأنشده :

أجرني وليس الدهر لي بمسالم اذا لم يكن لي في ذراك مقييل
فوالله ما رمت الترحل عن قلبي ولا سخطة للعيش فهو جزيل
ولكن ناي بالشعب عني حبايب دعاهن خطب للفراق طويل

وقد روى لنا من هذه القصيدة ثلاثين بيتا ، ولم يزد عليها أحد شيئا ، يبدو أنها
عدة أبياتها كاملة ، وقال بعد روايتها : « فأعانني الوزير مسمود عليه حتى أذن لي
في الانطلاق الى الأندلس » (٣٣) .

وقد قصد ابن خلدون الأندلس سنة ٧٦٤ هـ ، واختار غرناطة لما كان بينه وبين
سلطانها ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب من علائق الصحبة والمودة ، وسوابق المعاونة حين

كانا لاجئين في فاس ، فأحسننا وفادته واستقباله ، وقال في ذلك : « وقد امتز
السلطان لقدمي ، وهياً لي المنزل من قصره ، وأركب خاصته للقائي تحفياً وبراً
ومجازاة بالحسنى ٠٠٠ ثم نظمني في عليّة أهل مجلسه ، واختصني بالنجى في خلوته ٠٠٠
وسفرت عنه سنة ٧٦٥ هـ الى الطاغية ملك قشتالة » (٣٤) .

وبعد خمسة أيام من حلوله بفرنطة ، صادف حلول ليلة المولد النبوي ، « وكان
يحتفل في الصنيع فيها وأنشاد الشعراء ، اقتداء بملوك المغرب ، فأنشدته ليلئذ (٣٥) :

حيّ المعاهد كانت قبل تعيني بواكب الدمع يرويها ويظمني
ان الالى نزحت داري ودارهم تعمّلوا القلب في آثارهم دوني
وقفت أنشد صبرا ضاع بعدهم فيهم وأسأل رسماً لا ينجيني

وهي من أجود قصائده وأشعاره ، روى منها ابن خلدون واحداً وثلاثين بيتاً ، وزاد
عليها ابن الخطيب ثلاثة أبيات ، وهي على ما يبدو أطول من ذلك .

وقد استقر به المقام في ظل صاحب غرناطة ووزيره ، ولم يكن له من شغل سوى
نظم الشعر في مديحه في المناسبات المختلفة ومن ذلك قوله في مطلع إحدى قصائده (٣٦) :

صحا الشوق لولا عبرة ونحيب وذكرى تجدد الوجد حين تثوب
وقلب أبى الا الوفاء بمهده وان نزحت دار وشطّ حبيب
فلا تمذلاني في البكاء فانها حشاشة نفسي في الدموع تثوب

وقد اقتصر منها على ذكر ثلاثة عشر بيتاً فحسب ، ولم يذكر ابن الخطيب أو
المقري شيئاً منها في جملة ما ذكروا له من الشعر .

وأنشده في المولد النبوي سنة ٧٦٥ هـ قصيدة أخرى طويلة روى لنا منها سبعة عشر
بيتاً ومنها قوله في مطلعها (٣٧) :

أبى الطيف أن يعتاد الا توهتما فمن لي بأن القى الخيال المستلما
أجدّ لي العهد القديم كأنه أشار بتذكّار العهد فافهما
عجبت لمرتاع الجوانح خافق بكيت له خلف الدجى فتبسما

ولم يطل به المقام في الأندلس ، إذ سرعان ما أخذ الوشاة يوغرون صدر صديقه
الوزير لسان الدين عليه حتى تنكر له ، فعزم على الرحيل وقال في ذلك : « ثم لم يلبث
الأعداء وأهل السمايات أن خيّلوا للوزير ابن الخطيب ٠٠٠ وحركوا له جواد الغيرة
فتنكّر ٠٠٠ وجاءتني كتب السلطان أبي عبدالله صاحب بجاية بأنه استولى عليها
واستدعاني اليه ، فاستأذنت السلطان ابن الأحمر في الارتحال اليه ، وعصيت عليه شأن
ابن الخطيب ابقاء لمودته » (٣٨) .

ونزل بجاية سنة ٧٦٥ هـ « فاحتفل السلطان لقدمي ، وأركب أهل دولته للقائي ،
وتهافت أهل البلد علي ، وكان يوما مشهودا » (٣٩) ثم ولاء الحجابة على الاستبداد ،
إلى أن قتل السلطان سنة ٧٦٧ هـ ، واستولى ابن عمه أبو العباس على بجاية ، فسلم له
ابن خلدون ، فأكرمه وأقره على ما كان عليه ، ثم ارتاب منه وتكر له ، فغمر ناجيا بنفسه
إلى بسكرة ، دون أن نسمع له بشيء من الشعر إبان هذه المرحلة على طولها ، ويبدو
أن شعره فيها قد ضاع أو لم يصل إلينا بعد .

على أننا نراه بعد ذلك وقد نزل تلمسان ، واتصل بصاحبها أبي حمو موسى بن
يوسف مادحا ، ولم يصل إلينا من شعره فيه سوى قصيدة يهنئه فيها بالعيد سنة ٧٧١ هـ ،
ذكر ابن خلدون أنها طويلة ، لم يبق في حفظه منها سوى خمسة أبيات رواها في التعريف ،
ولم نجد أحدا يذكرها فيما وقفنا عليه من مصادر ، وفيها يقول (٤٠) :

هذي الديار فعيهن صباحا وقف المطايا بينهن طاحا
لا تسال الأطلال إن لم تروها عبرات عينك واكفا ممثا
فلقد اخذن على عيونك موثقا أن لا يترين مع البعاد شعا

ثم تقلبت به الأيام بعد ذلك قبل أن يعود إلى فاس سنة ٧٧٤ هـ ويقيم فيها « أثر
المحل ، نابه المرتبة ، عريض الجاه » (٤١) متفرغا للعلم والتدريس دون أن نسمع له
بشيء من الشعر إبان هذه الفترة .

إلا أنه سرعان ما يعود إلى غرناطة سنة ٧٧٦ هـ ، فيلقاه سلطانها بالبر والكرامة ،
ولكن حكام فاس يوغرون صدره عليه ، لما كان من سميح في خلاص صديقه لسان الدين
ابن الخطيب من الحبس أو القتل ، دون أن يفلح في ذلك ، فغادر الأندلس أواخر هذه
السنة نفسها ، دون أن نسمع له بشيء من الشعر فيها .

وحل ابن خلدون بقلمه ابن سلامة في الجزائر ، واعتكف فيها أربع سنوات كاملة ،
انكب أثناءها على تأليف المبر ، وأكمل مقدمته سنة ٧٧٩ هـ ، وكتب سلطان تونس
يستأذنه بالعودة إليها ، فقصدها سنة ٧٨٠ هـ ، ولقي السلطان في ظواهرها ، فرحب به ورده
إلى تونس ، فبلغه بعد وصوله إليها أنه قد أصيب بمرض أعقبه شفاء ، فبعث إليه
بقصيدة يقول فيها (٤٢) :

ضحكت وجوه الدهر بعد عبوس وتجللتنا رحمة من بوس
يا ابن الغلائف والذين بنورهم نهجت سبيل العق بعد دروس
لبغاك حرز للأنام وعصمة وحياة أرواح لنا ونفوس

وقد استقر به المقام في تونس ، ولقي من سلطانها التكريم والترحيب واستدعاء
لمجالسته ، فأوثر ذلك صدر حساده ، فسموا للايقاع بينهما ، فأعرض السلطان عنهم ،
وكلفه بالاكباب على تأليف كتابه ، فأكمل منه نسخة رفعها إلى خزانته مشفوعة بقصيدة

روى لنا منها واحداً وماته بيت ، وقال في تصديرها : « وكان مما يغرونه به علي
فمودي عن امتداحه ، فاني كنت قد املت الشعر وانتحاله جملة ، وتفرغت للملم ،
فدانوا يقولون له : انما ترك ذلك استهانة بسططائك لكثرة امتداحه الملوك قبلك ، فلما
رفعت له التحناب اشدته هذه القصيدة امتدحه ، واعتذر عن انتحال الشعر » (١١)
وفيها يقول :

هل غير بابك للغريب مؤمل او عن جنابك للأمانى معدل
لله منك مؤيد عزماته تمضي كما يمضي القضاء المرسل
أبقاك ربك للعباد تربهم فأنه يخلقهم ورعيك يكفل
واليك من سر الزمان وأهله عبراً يدين بفضلها من يعدل
أهديت منه الى علاك جواهرأ مكنونة وكواكب لا تافل

فكانت هذه القصيدة آخر ما يعرف له من الشعر في أقطار المغرب والأندلس ، فقد
كثرت السعائيات من حوله ، فقد العزم على الرحيل الى مصر متذرعاً بالحج ، وركب
البحر ميمماً وجهه شطر الاسكندرية وقال في ذلك : « وخرجت الى المرسى والناس متسايلون
على أثري من أعيان الدولة والبلد وطلبة العلم فودعتهم وركبت البحر في منتصف سنة
٧٨٤ هـ » (١٢) .

وقد اختار الإقامة في مصر بقية عمره ، واستقر بالقاهرة ، وأكرم السلطان الظاهر
برفوق وفادته ، وأبرء لقاؤه ، ونصبه لتدريس الفقه والحديث ، ثم ولاء قضاء المالكية ،
وبعث في طلب أهله من تونس ، ففرقت بهم السفينة بعد وصولها الى ميناء الاسكندرية ،
فمظم مصابه ، واشتد جزعه ، وقام أثناء هذه الفترة بإداء فريضة الحج وزيارة بيت
المقدس ، وبلاد الشام ، وأقام في دمشق مدة من الزمن ، وكان له فيها مع تيمورلنك لقاء
مشهور ، عاد بعده الى القاهرة ، وتقلب في عدة مناصب الى أن توفي وهو على قضاء
المالكية سنة ٨٠٨ هـ .

ويبدو أنه قد ترك الشعر إبان هذه المرحلة الطويلة التي قضاها في مصر ، وتفرغ
فيها للملم والقضاء والتدريس ، فلم نسمع له الا قصيدة يتيمة خاطب بها الأمير الجوباني
ليطالع بها الملك الظاهر بعد نقمته عليه لمجاراته الناصري في الفتنة الكبرى سنة
٧٩١ هـ ، فلاقت منه الرضى والقبول ، وفيها يقول (١٣) :

سيلي والظنون فيك جميلة وأياديك بالأمانى كفيلة
انه أمرى الى الذي جعل الله أمور الدنيا له مكفولة
وأعينوا على الزمان غريباً يشتكي جذب عيشه ومعوله

وهي قصيدة طويلة روى لنا ابن خلدون منها سبعة وستين بيتاً ، فكانت آخر
ما يعرف له من الشعر في حدود ما بين أيدينا من المصادر المختلفة .

□ مجموع شعره :

ومن خلال هذه الجولة مع ابن خلدون الشاعر ، وجدنا أنه بدأ بقرض الشعر منذ مطلع حياته ، ومع بداية اتصاله بملوك المغرب واستمر في قوله وإنشاده طوال حياته ، فكانت أولى قصائده التي وصلت إلينا تعود إلى سنة ٧٥٩ هـ وأخرها إلى سنة ٧٩١ هـ .

وبإمكاننا تقسيم مراحل حياته مع الشعر إلى ثلاث مراحل : المغربية والأندلسية والمصرية . وتبدأ الأولى منها بقصيدته التي بحث بها إلى أبي عنان المريني من سجنه مستمطفاً ، وتبلغ ذروتها في عهد أبي سالم ، إذ كان كاتبه وشاعره ، وقد أشار إلى كثرة شعره في هذه الفترة على قصرها فقال : « ثم أخذت نفسي بالشعر فأنشأت عليّ منه بحور » (١٦) دون أن يصل إلينا من هذه البحور سوى قصيدتين قال بعد أن روى أبياتاً منهما : « وأنشدته في سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيراً » (١٧) ، وقد أغفل ذكر هذه القصائد الكثيرة ، كما أغفل ذكر قصيدته في الوزير عمر بن عبدالله التي احتفظ لنا ابن الخطيب بأبيات منها ، بينما روى لنا ابن خلدون أبياتاً من قصيدته في الوزير ابن ماساي ، وآخر من قصيدتيه في سلطان تونس ، وكان ذلك آخر ما يعرف له من الشعر في المغرب .

أما أندلسياته فلم يصل إلينا منها سوى ثلاث قصائد في ابن الأحمر أثناء إقامته في رحابه أول مرة ما بين ٧٦٤-٧٦٥ هـ ، ولم نسمع له بشيء من الشعر بعد عودته إليها ، وإقامته القصيرة فيها سنة ٧٧٦ هـ .

كما لم نسمع له في مصر بعد نزوحه إليها سنة ٧٨٤ وحتى وفاته فيها سنة ٨٠٨ هـ إلا بقصيدة واحدة ، على الرغم من طول هذه المرحلة التي استمرت زهاء ربع قرن من الزمان .

ومن المؤكد أن شعره في المغرب والأندلس كثير جداً ، كما أشار إلى ذلك ابن خلدون نفسه مرات عديدة ، ولم يصل إلينا منه إلا القليل ، وقد ضاع معظمه ، إذ لم يمتد ابن خلدون أو غيره بحفظه وتدوينه وكانت لذلك أسباب عديدة : منها انشغاله بالسياسة في صدر حياته ، وبالمعلم والتأليف ثم القضاء والتدريس بعد ذلك ، مما صرفه عن الشعر وانتعاله أو العناية به ، وقد صرح بذلك في قوله : « وقد أهملت الشعر وانتعاله جملة ، وتفرغت للمعلم » (١٨) .

كما أن لاضطراب الأوضاع السياسية في المغرب والأندلس ، وتقلب أيامها ودولها ، وكثرة الصراعات والحروب بين ملوكها وحكامها أثراً كبيراً في إغفال أشعاره ، وجلها من أشعار المديح والمناسبات ، مما حدا بابن خلدون وغيره إلى عدم حفظها وتدوينها إشاراً للسلامة .

ومهما يكن من أمر ، فإن مجموع ما وصل إلينا من شعره - في حدود ما أمكن لنا

الوقوف عليه - لا يزيد على واحد وعشرين وخمسمائة بيت موزعة في ثمانية الكتب والمصادر المختلفة ، لعل أهمها « التعريف » لابن خلدون نفسه ، و « الاحاطة » لابن الخطيب صاحبه ، و « نثر الجمان » لابن الأحمر معاصره ، ثم « نفع الطيب » للمقري ، و « الضوء اللامع » للسخاوي ، و « نيل الابتهاج » للتنبكتي ، و « الاستقصا » للسلاوي ، وبعض مؤلفات ابن حجر والمقريزي والعيني وغيرها من كتب الأخبار والتراجم .

□ أغراض شعره وخصائصه :

يدخل معظم ما وصل إلينا من شعر ابن خلدون في باب أشعار المديح والمناسبات ، لارتباطه بالملوك والأمراء ، فكان شعره صدى لملاقاته المختلفة معهم ، وسجلاً حافلاً لمراحل حياته بينهم ، فهو يدور حول المديح والاستعطاف والاعتذار والتعاني وما يجري مجراها من الشعر .

وكانت بعض هذه المناسبات في المولد النبوي ، مما جعل المدائح النبوية غرضاً آخر من أغراض شعره ، وإن شابه المديح في كثير من الأحيان . وقد حرص ابن خلدون على رواية معظم مدائحه النبوية ، وهي من أجود أشعاره ، وأصدقها عاطفة ، وأقواها تمبيراً عن دخيلة نفسه ، وعمق الأثر الديني في ذاته .

وكان الاتجاه نحو هذا الغرض الشعري قد طغى على الشعر العربي طغياناً مبيناً في عصره ، منذ أن شرع باب القول فيه البوصيري (- ٦٩٦ هـ) في برده ، ونهج سبيله فيها وعارضها عدد كبير من الشعراء يربو على المائتين ، وشرحها عدد آخر ، منهم ابن خلدون نفسه ، ثم تطور هذا الغرض إلى البديعيات ، وكان صفى الدين الحلبي (- ٧٥٠ هـ) من أوائل رواده في « الكافية البديعية » التي عارض فيها البردة وضمّنها مائة وواحداً وخمسين نوعاً من البديع ، وسلك سبيله فيها عدد كبير من الشعراء .

وقد بدا أثر هذه المدائح والبديعيات في مدائح ابن خلدون النبوية دون أن يفرقها في لجة البديع ، فخلصت بذلك من تلك القيود التي تكبلها ، ولملأ أول ما نلاحظه في هذه القصائد استهلالها بالفضل الصوفي الذي يعبر عن محبة الرسول (ﷺ) كقوله في مطلع أحداها (٤٩) :

أسرفن في هجري وفي تعذيبي وأطلسن موقف عبرتي ونعيمي

وأبين يوم البين وقفة ساعة لسوداع مشغوف الفؤاد كتيب

يا ناقما بالعتب غلة شوقهم رحماك في عذلي وفي تانيبي

ثم ينتقل من ذلك إلى الوقوف على الأطلال ، والتشوق إلى ديار الأحبة في العجاز ، ويبدى قدرة فائقة في إحكام صلة هذا الجزء بسابقه وحسن التخلص والخروج من غرض لآخر فيقول :

ما هاجني طرب ولا اعتاد الجوى لولا تذكّر منزل وحيب

أهفو إلى الأطلال كانت مطلعاً للبدر منهم أو كناس ريب

ويركب الطريق الى تلك الديار مرتحلاً ، ويصف الأظمان والرحلة والراحلة فيقول :

يا سائق الأظمان تعتسف الفلا وتواصل الإسـاد بالتأويـب
هـلاء عطفـت صدورهن الى التي فيها لبانة أمين وقلوب

ليصل من ذلك الى الحضرة النبوية فيمتدحها ويتشفع بها ويقول :

يا سيد الرسل الكرام ضراصة تقضي مني نفسي وتذهب حوايـي
هب لي شفاعتك التي أرجو بها صفحاً جميلاً عن قبيح ذنوبي

ويختتمها بالاعتذار من تقصيره في مدح نبينه فيقول :

قصرت في مدحي فان يك طيباً فبها لذكرك من أريج الطيب
ماذا عسى ييني المطيل وقد حوى في مدحك القرآن كل مطيب

ويمضي على هذا النمط الجميل في مدح الرسول الكريم ، دون أن يخص ملكه ومدوحه الا بأبيات قليلة ، فتستحيل القصيدة الى المديح النبوي الخالص ، وتدخل في هذا الباب من أغراض شعره ، شأنها في ذلك شأن قصائده الأخرى التي أنشدها في الموالد النبوية ، وتمتد من أجود أبواب شعره وأغراضه .

ومن الملاحظ أن جودة الشعر لديه مرتبطة الى حد بعيد بمدى صلته بذاته ، وتميمه عن خلجاته وأشواقه ، فاذا ما تحول به الى المديح نقصت عناصر جودته ، وخفت حدة انفعالاته ، وشحت موارد جماله ، ولذا فقد وجدناه يطيل مطالع قصائده ويبدع فيها لصلتها القوية بذاته ، بينما تضعف الروح الجمالية فيها حين يتحول بها الى الغرض المرسوم لها وهو المديح ، ومن ذلك قوله في أواخر قصيدته السابقة يمدح أبا سالم ، وقد تخلص الى ذلك تخلصاً عجيباً إذ راح يتمنى الرحيل الى الديار المقدسة فيقول :

يا هل تبلغني الليالي زورة تدني اليّ الفوز بالمرغوب
في فتية هجروا المنى وتعودوا إنضاء كل نجيبة ونجيب
ورثوا اعتساف البيد عن آبائهم إرث الخلافة في بني يعقوب
تغشى بوادرهم ويرجى حلمهم والعز شيمة مرتجى ومهيب
يا ابن الألى شادوا الخلافة بالتقى واستاثروك بتاجها المصوب
لا زلت مسروراً بأشرف دولة يبدو الهدى من ألقها المرقوب

وذلك ديدن أشعاره التي خاطب بها الملوك والأمراء والوزراء مادحاً أو مستعطفاً ، إذ نراه يستعملها بالتعبير عن نوازعه الذاتية وأشواقه ، ويطيل في ذلك ، ويبلغ الغاية من روعة التعبير وجمال التصوير ، ورقة المواطف والشعور ، ومن ذلك قصيدته التي يمث بها من السجن الى أبي عنان مستعطفاً ، وهي أول ما نعرف له من الشعر ، ويقول في مطلعها (٥٠) :

على أي حال لليالي أعاتب وأي صروف للزمان أهالب

وقد وصف فيها حاله سجيناً ، وشوقه حزيناً ، وذكرياته غريباً ، وأبدع في وصف
مشهد وداعه لأهله وأحبته قبل رحيله فقال :

ولم انس لا انسى الوداع وقد جرت	دموع وزممت للفراق ركائب
عشية بانوا والقلوب جوامد	وكان عقيق في النواظر ذائب
وقفنا ولا نجوى سوى بين احين	وشت بالهوى منها دموع سواكب
مضوا يزمعون السير إلا تلفتاً	كما التفتت بين الأراك الربائب
واتبعتهم طرقي وقلبي وما دروا	بأنى على آثار هذين ذاهب

بيد أن حرارة هذه القصيدة تغف كثيراً حين ينتقل الى مديح أبي عنان مديحاً
تقليدياً يعتمد فيه على المهالغات والمعاني المألوفة ، مما أفقد القصيدة شيئاً من قوتها
فيقول :

إمام هدى ضاعت شمس اهتدائه	فبانت لنا من بينهن المذاهب
وأشرقت الدنيا بنور جبينه	فما الشمس إلا إن بدا منه حاجب

الا أنه سرعان ما يعيد الى القصيدة رونقها وصفاءها حين يعتمد بها عن غيره ،
ويرتد بها الى ذاته ، فيصف غربته ورحلته وراحلته ويقول :

أبعد انتزاحي عن بلائي تحثني	الى بابك الأعلى مطي شوارب
تجاذب عطفها المراح فتثني	كما التفتت في الروض حسناء كاعب
رقمت بها في صفحة البيد أسطراً	كما زان رقماً في الصحيفة كاتب
وجبت بها غور الفلاة ونجدها	وليس سوى من ذنبها ما اصاحب
الى أن حططت الرحل في ساحة العلا	لدى بابك الأعلى كما حطّ آيب
فكيف أولتي شطر غيوك وجهة	أؤمل منه نجعة أو أراقب

وللرحلة والراحلة ، والربيع والأطلال ، ومفاني الأحبة والديار في شعر ابن خلدون
أناشيد مؤثرة ، تعبر عن طبيعة حياته التي قضى معظمها ما بين الحل والترحال ، وتشف
عن دخيلة نفسه الصافية ، وعواطفه الفياضة ، كقوله (٥١) :

أمثل' الربيع من شوق فالشمس	وكيف والفكر يدنيه ويقصيني
وينهب الوجد منسي كل لؤلؤة	ما زال قلبي عليها غير مأمون
سقت جفوني مفاني الربيع بعدهم	فالدمع وقف على أطلاله العون
أحبابنا هل لعهد الوصل مدكر	فيكم وهل نسمة منكم تحيني
أعندكم أنني ما مرّ ذكركم	الا انثيت كان الراح تثيني
وأنني ظاعناً لم ألق بعدكم	دهراً أشاكي ولا خصماً يشاكيني

ومن هنا فقد كان قالب القصيدة التقليدي المعروف في معظم الشعر الجاهلي والاسلامي ،
بمنهج أغراضه الذي رسم حدوده ابن قتيبة منذ زمان طويل من أنسب القوالب الشعرية

التي يمكن أن تستوعب مشاعر ابن خلدون الشاعر الذي ارتبط شعره بالمدائح والمناسبات الرسمية ، فوجد في هذا المنهج مجالا رحيبا للتعبير عن ذاته وعواطفه وأشواقه .

وقد يطول بنا الحديث عن هذا الشعر ويتشعب ، وليست الغاية منه دراسة شعره وتحليله ، وإنما التعريف به شاعرا حجبته عنا مقدمته فلم نعد نرى منه سواها .

بيد أنها - وإن كانت من أعظم آثاره - فإن فيها جوانب كثيرة لم توف بعد حقها من البحث العمق والدقيق ، إذ طالما وجدنا الدراسات التي تتناولها تكاد تقتصر على الجوانب التاريخية أو الاجتماعية دون غيرها من الجوانب الأخرى التي يحيط بها هذا المشروع المعرفي العظيم ، الذي ينطلق من إشكالية تاريخية خاصة ومحددة ، ليتحرك بعد ذلك داخل منظومة فكرية عامة وشاملة ، ويمالج من خلال الموضوع الخاص والمباشر ، موضوعات أوسع وأعم ، تبدو وكأنها استطرادات وتداعيات ، وهي في الحقيقة جزء لا يتجزأ من هذا المشروع المعرفي الكبير (٥٢) .

كما أن في آثاره الكثيرة الأخرى وخطبه ورسائله ومحاضراته ومذكراته وسيرته الذاتية وأشعاره ما يستحق الدرس وتقليب النظر ، وبذلك نرى ابن خلدون على حقيقته: شاعرا وأديبا ناقدا (٥٣) ، ثم عالما ومفكرا فمؤرخا بعد ذلك .

□ العواشي :

- ١ - الضوء اللامع : ١٤٧/٤ والإعلان بالتبويخ ١٥١ .
- ٢ - ن . م . ١٤٩/٤ .
- ٣ - أزهار الرياض ٧١/١ .
- ٤ - راجع مؤلفات ابن خلدون ٢١٥ وما بعدها .
- ٥ - العلامة ابن خلدون : ص ٩٩ .
- ٦ - ن . م . ص ٨١ .
- ٧ - المقدمة ١١٢ و ٥٥٨ و ٥٨٢ و ٤٥٠ وانظر دراسات عن مقدمة ابن خلدون ١٥٠ وما بعدها .
- ٨ - التعريف ٢٣٧ .
- ٩ - الأمالي ٧٩/٢ .
- ١٠ - التلبيه ١٢٤ .
- ١١ - أعمال ندوة ابن خلدون ٤٢ .
- ١٢ - ن . م . ٤٤ - ٤٥ .
- ١٣ - المقدمة : ٦ .
- ١٤ - الإحاطة ٥٠٧/٣ .
- ١٥ - التعريف ٣٩٩ .
- ١٦ - الإحاطة ٥٠٧/٣ - ٥٠٨ .
- ١٧ - نشر الجمان ٢٩٨ .
- ١٨ - الضوء اللامع ١٤٩/٤ .
- ١٩ - نفح الطيب ١٩٢/٦ .
- ٢٠ - التعريف ٢٤٠ .
- ٢١ - ن . م ٢٤٤ .
- ٢٢ - التعريف ص ١٥ .
- ٢٣ - أزهار الرياض ٢٣٨/١ - ٢٤٧ .
- ٢٤ - التعريف ١٧ وما بعدها .
- ٢٥ - التعريف ٩٧ .
- ٢٦ - نشر الجمان ٢٩٩ - ٣١٠ .
- ٢٧ - التعريف ٩٧ .
- ٢٨ - نشر الجمان ٢٩٧ .
- ٢٩ - التعريف ٧٠ .



- ٣٠ - التعريف ٧٠-٧٤ والاحاطة ٥٠٨/٣ - ٥١٠ ونفح الطيب
٦ - ١٨١ - ١٨٤ والضوء اللامع ١٤٨/٤ .
- ٣١ - التعريف ٧٦ وانظر الاحاطة ٥١١/٣ - ٥١٢ ونفح الطيب
١٨٦ - ١٨٤ والاستقصا ٣٥/٤ - ٣٦ .
- ٣٢ - الاحاطة ٥١٣-٥١٤ ونفح الطيب ١٨٦-١٨٧ .
- ٣٣ - التعريف ٧٩ وانظر القصيدة في نفح الطيب ١٨٧-١٨٨ .
- ٣٤ - ن م ٨٤ .
- ٣٥ - ن م ٨٥ - ٨٨ والاحاطة ٥١٤/٣ - ٥١٦ ونفح الطيب
١٨٩/٦ - ١٩١ وجذوة الاقتباس ٣٦٤ .
- ٣٦ - ن م ٨٨ - ٨٩ .
- ٣٧ - ن م ٨٩ - ٩٠ .
- ٣٨ - ن م ٩١ .
- ٣٩ - ن م ٩٧ .
- ٤٠ - ن م ١٣٣ .
- ٤١ - ن م ٢١٨ .
- ٤٢ - ن م ٢٤١ - ٢٤٤ .
- ٤٣ - ن م ٢٣٣ - ٢٤١ ونفح الطيب ١٨٨/٦ - ١٨٩ .
- ٤٤ - ن م ٢٤٦ .
- ٤٥ - ن م ٣٣١ - ٣٣٥ .
- ٤٦ - ن م ٧٠ .
- ٤٧ - ن م ٧٦ .
- ٤٨ - ن م ٢٣٣ .
- ٤٩ - التعريف ٧٠ - ٧٤ .
- ٥٠ - ن م ٦٧ وانظر نثر الجمان ٢٩٩ وما بعدها .
- ٥١ - التعريف ٨٥ .
- ٥٢ - نحن والثرث ٣٠٥ .
- ٥٣ - ولد غنينا بجمع شعره ورسائله وخطبه وآرائه النقدية
ولمنا بدراساتها في كتاب عنوانه : « ابن خلدون نالدا
واديبا - نامل ان يرى النور قريبا » .



- الاحاطة في اخبار غرناطة : لسان الدين ابن الخطيب - ٧٧٦ هـ - تحقيق محمد عبدالله عنان - ط ٢ القاهرة ١٩٧٣ .
- ازهار الرياض في اخبار عياض : للمصري شهاب الدين احمد بن محمد - ١٠٤١ هـ تحقيق اسفا والايباري وشليبي - القاهرة ١٩٣٩ .
- الاستقصا في اخبار المغرب الاقصى : للناصري احمد بن خالد تحقيق جعفر ومحمد الناصري - ط ١ الدار البيضاء ١٩٥٥ .
- الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : للسقاوي شمس الدين بن عبد الرحمن - ٩٠٢ هـ ط ١ نشر القدسي - دمشق ١٣٤٩ هـ .
- اعمال ندوة ابن خلدون : ط ١ الدار البيضاء ١٩٧٩ .
- الامالي : للقالي ابي علي اسماعيل بن القاسم - مصورة عن دار الكتب .
- التعريف بابن خلدون : لعبد الرحمن بن خلدون - ٨٠٨ هـ - تحقيق محمد بن تاويت ط ١ القاهرة ١٩٥١ .
- التشبيه على اوهام ابي هلي في اماليه : للبكري عبد الله بن عبد العزيز - مصورة عن طبعة دار الكتب .
- جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس : لابن القاضي احمد بن محمد طبع حجر - فاس .
- دراسات عن مقدمة ابن خلدون : ساطع الحصري - بغداد ١٩٦١ .
- الضوء اللامع في اعيان القرن التاسع - : للسقاوي ، معمد بن عبد الرحمن - ٩٠٢ هـ - القاهرة ١٩٣٥ .
- العلامة ابن خلدون : ايف لاكوست - ترجمة ميشيل سليمان - ط ٢ بيروت ١٩٧٨ .
- نحن والثرث : محمد عابد الجابري - بيروت ١٩٨٠ .
- نثر الجمان : لاسماعيل بن الاحمر - تحقيق د. محمد رضوان الداية - ط ١ بيروت ١٩٧٦ .
- نفح الطيب : للمصري احمد بن محمد - ١٠٤١ هـ تحقيق احسان عباس - بيروت ١٩٦٨ .
- مؤلفات ابن خلدون : عبد الرحمن بنوي ط ٢ ليبيا ١٩٧٩ .
- المقدمة والعبر : مصورة - دار الكتاب - بيروت .

وحدة القصيدة في نقد القرطاجني

خليل الموسى

حازم القرطاجني (٦٠٨ - ٦٨٤ هـ)

أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم القرطاجني (٦٠٨-٦٨٤ هـ)، أديب ناقد وله شعر، من أهل قرطاجنة (بشرقي الأندلس)، تعلم هناك وأخذ عن علماء غرناطة وإشبيلية، ثم انتقل إلى مراكش ومنها إلى تونس فاشتهر بها وعمر وتوفي هناك. من أهم كتبه «سراج البلغاء» طبع باسم «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، قام بتحقيقه والتقديم له محمد العجيب ابن الغوجة، طبع أول مرة في المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية سنة ١٩٦٦ ثم طبع طبعة ثانية في دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة ١٩٨١، ويعد هذا الكتاب من الكتب البلاغية النقدية الهامة في تراثنا، وفيه مسائل تقدم بها على معاصريه، وبخاصة «وحدة القصيدة»، وله ديوان شعر طبع مرتين، كانت الطبعة الأولى في بيروت بمطبعة عيتاني الجديدة سنة ١٩٦٤ وتحقيق عثمان الكماك، ثم طبع في تونس سنة ١٩٧٢ بتحقيق د. محمد العجيب ابن الغوجة تحت عنوان «قصائد ومقطعات». وهو متأثر بالمتنبي ولكن شعره أقرب إلى شعر العلماء.

ينظر في ترجمته :

- المقرئ - نفح الطيب - تحقيق د. احسان عباس - بلا مكان - ١٩٦٨ م - ٥٨٩/٢
- السيوطي - بنية الوعاة - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - مصر - البابي الحلبي - ط ١ - ١٩٦٤ م - ٤٩١/١ - ٤٩٢
- العنبري - شذرات الذهب - بيروت - المكتب التجاري - د ت - ٣٨٨-٣٨٧/٥
- الزركلي - الاعلام - بيروت - دار العلم للملايين - ط ٦ - ١٩٨٤ م - ١٥٩/٢
- ابن الغوجة، محمد العجيب - مدخل (منهاج البلغاء وسراج الادباء)

يتألف مصطلح « الوحدة العضوية » « Unité organique » من جزأين : « الوحدة » « Unité » ، وهي ميزة ما هو واحد مهما تكن مفهومات هذه الكلمة (١) ، و « العضوية » « Organique » ، وهي نعت ترميضي وصفي يطلق على ما هو مركب من أجزاء تتكامل بوظائفها المختلفة الجلية والمرتبة . و « كل عضوي » كلمة ، في هذا المعنى ، مرادفة للمنظم (٢) ، والوحدة العضوية ذرة تضاد العناصر المختلفة وتضامنها (٣) .

وأهم شروط العمل الفني أن يتوافر فيه الشكل العضوي ، وهذا ما اشترطه معظم النقاد ، ومنهم أرسطو الذي عدّ وحدة العمل الفني شرطاً من شروط جودته (٤) ، وربط كولريدج « Coleridge » (١٧٧٢-١٨٣٤) العقل البشري الذي يشبه الكائن العضوي (٥) بطبيعة الأدب الذي تجتمع العناصر فيه لتكون وحدة أكبر من مجموع الأجزاء المتفرقة (٦) ، وذهب في تعريف القصيدة إلى أنه « لا بد أن تكون بحيث تتساند أجزاؤها فيما بينها ، ويفسر بعضها بعضاً ، وتتساند جميعها وتنسجم كل على قدره مع الغرض والتأثيرات المعروفة للنظام المروسي » (٧) .

والوحدة العضوية ذات كيان حي نام ، ونموها تدريجي عفوي يشبه نمو الأجسام الحية ، وهو ناشئ عن قوة مركزية داخلية تصدر من باطن الكائن الحي وتتحرك في اتجاه الأطراف والأعضاء من خلال دقات تلون النواحي والأجزاء بلون واحد ، وهي وحدة وظيفية ، فلكل عنصر وظيفة غير منفصلة عن وظائف العناصر الأخرى ، وينجم عنها تكامل العمل ونموه وتوضيحه ، وهي وحدة تقوم على صهر عناصرها التي تنحل بعضها في بعض ، أو كما يقول « كروتشه » (٨) : « أن الفكرة تنحل بكاملها في التصور ، كانهلال قطعة السكر التي تذوب في قدح الماء ، فتبقى فيه ، وتظل تفعل في كل ذرة من ذراته ، ولكن لا يمكن أن يمتز عليها في صورة قطعة من السكر » .

أما وحدة الموضوع فمفادها أن تتناول القصيدة موضوعاً واحداً لا تتجاوزه إلى غيره ، كان تكون في الفزل أو الرثاء أو في قصة شعرية كاملة ، على خلاف بعض شعرنا الذي يستوحى نموذج الهيكل القديم ، وقد يكون للفناء دور في قصر القصيدة واقتصادها على موضوع واحد .

ويبدو للباحث مما سبق أن وحدة الموضوع غير الوحدة العضوية ، فهما مفهومان مختلفان اختلافاً بينياً ، فالوحدة العضوية مفهوم درامي يصلح للقصيدة ذات الحدث والحكاية والتي تقوم على الشخصيات وفي حدثها تصاعد ونمو ، ولذلك اختلط هذا المفهوم على نقاد الشعر الفنائي ، وازداد اختلاطه حين كانوا يظنون أن الشعر الرومانسي الأوروبي الفنائي شبيه بشعرنا ، والحقيقة أن الشعر الرومانسي أعلى من الفنائية ولكنه لم يغل من العناصر الدرامية ، فكان شعرهم الفنائي مقترباً بالنزعة الدرامية ، ولذلك كان من الخطأ أن نطبق هذا المفهوم على نقدنا القديم لولا أن حازماً كان معجباً بأرسطو وقد تفرق إلى هذا الموضوع في كتابه « منهاج الأدباء وسراج البلغاء » .

وعلى الرغم من سوء ترجمة « فن الشعر » فقد ظل لـ « أرسطو » تأثير كبير في نقدنا القديم ، فقد نقاد العرب وفلاسفتهم أرسطو معلماً لهم ، وأغرموا به « وقبلوا تفكيره » .

وانتفعوا به عندما انكبوا على تدوين علومهم» (١٠) ، وخصوه بأسماء تدل على مكانته عندهم مثل «المسلم الأول» و«الحكيم» (١١) ، وربما كان القرطاجني أكثر النقاد القدامى تأثراً بأرسطو ، فقد ألم بفلسفات سقراط وأفلاطون وأرسطو من خلال الترجمات العربية وبخاصة ترجمة ابن سينا (١١) ، وأطلاع حازم على كتاب «فن الشعر» واضح في «المنهاج» ، يقول محمد العبيد ابن الخوجه (١٢) : «ومن ينظر في تعريف حازم للشعر ويبحثه في مقوماته الأصلية يلمس كبير تأثره بأراء أرسطو ، فحازم من غير شك قد استفاد كثيراً من مطالعته لكتاب «فن الشعر» للمعلم الأول ٠٠٠ وهو يأخذ من أوصاف المعلم الأول لشعر المأساة والمهابة ما يتفق معها عند العرب في شعر المديح والمهجم» ، ويذهب عبدالرحمن بدوي (١٣) إلى أننا نستطيع أن نقول : أن القرطاجني «هو أول من أدخل نظريات أرسطو وتعرض لتطبيقها في كتب البلاغة العربية الخاصة» .

ويبدو أن تأثير أرسطو في البلاغة العربية كان أوفر خطأ منه في الشعر ، وأن تأثيره في «وحدة القصيدة» كان أقل وهذا يعود لأسباب منها سوء الترجمة ، واختلاف طبيعة الشعر الفنائي والشعر الدرامي ، واختلاف مفهوم «وحدة القصيدة» عند القرطاجني بمفهوم «هيكل القصيدة» الجاهلية ، وبعد ، ما أهم سمات وحدة القصيدة في «المنهاج» ٠٩

سمات وحدة القصيدة عند حازم القرطاجني (١٤) في «منهاج البلاغة وسراج الأدباء» (١٥) : لوحدة القصيدة في «المنهاج» سمات ، أهمها التناسبية والمنطقية والتأثيرية والمتابعة في وحدة البيت .

وظلت وحدة القصيدة ، عنده ، تناسبية متعددة الأغراض ، وظل نقده تقليدياً متأثراً بهيكل القصيدة ، فالقصائد ، عنده ، من حيث أغراضها ، نوعان ، بسيطة ومركبة «البسيطة مثل القصائد التي تكون مدحاً صرفاً أو رثاء صرفاً» والمركبة هي التي يشتمل الكلام فيها على غرضين مثل أن تكون مشتملة على نسيب ومديح . وهذا أشد موافقة للنفوس الصحيحة الأدواق لما ذكرناه من ولع النفوس بالافتتان في أنحاء الكلام وأنواع القصائد» (١٦) .

ويبدو للباحث أن حازماً يقف إلى جانب هيكل القصيدة ، ويشترط في القصيدة الجيدة تعدد موضوعاتها ، فتتكون من عناصر مستقلة في ذاتها ، ثابتة في تعددها ، لا يتفاعل بعضها مع بعض ، ويشترط في الشعراء المقتدرين قوة النفاذ من غرض إلى غرض ، فيقول : «وهؤلاء هم المقصدون من الشعراء المقتدرون على تعليق بعض المسماني ببعض واجتلابها من كل مجتلب» (١٧) ، وهو يذهب إلى أبعد من ذلك فيرى أنه لما وجد الحذاق من الشعراء النفوس «تسام التماذي على حال واحدة وتؤثر الانتقال من حال إلى حال ، ووجدوا تستريح إلى استئناف الأمر بعد الأمر واستجداد الشيء بعد الشيء ٠٠٠ اعتمدوا في القصائد أن يقسموا الكلام فيها إلى فصول ينحى بكل فصل منها منحى من المقاصد ٠٠٠ فالراحة حاصلة بها لافتتان الكلام في شتى مذاهبه المعنوية وضروب مبانيه النظمية» (١٨) .

وتظل القصيدة مجموعة أغراض لكل منها كيان ضمن كيان القصيدة الطويلة ، وكل ما في الأمر أن الشاعر المقتدر يحسن ربط هذه الأغراض ، ويجبرها على التآلف بغيط خارجي .

ويرد أحد دارسيه تفكك مفهوم الوحدة، عنده، الى اهتمامه بهيكل القصيدة ، فيقول : « أما وحدة الموضوع فلم يكن حازم فيما يفهم من اقواله ، يعنيها أبداً • وهذا يقوي زعمنا السابق من أنه كان في مذهبه يسائر القصيدة القديمة ويتمشى معها » (١٨) •

والغريب أن الأمر الذي يسلم حازم من الوقوع فيه لا يسلم منه ناقد معاصر ، فعلى الرغم من أن حازماً نظر الى الوحدة من خلال دراساته للشعر القديم ، على أنها وحدة عناصر مستقلة يجمعها خيط شكلي يسميه حيناً بحسن الاطراد ، كما يسميه ، حيناً آخر ، بالترتيب والتفصيل ، ولكنه حسن اطراد العناصر المستقلة ، وترتيب حبات العقد فان الدكتور جابر أحمد عصفور يذهب الى أبعد من ذلك فيرى أن للقصيدة المتعددة الأغراض وحدة داخلية وأن حازماً لم يلتفت الى الصلة بين المقدمة والمديح في دراسته لاحدى قصائد المتنبي ، بل افترض أن القسمين يتصلان بحسن التخلّص الذي أشار اليه ، ويزيد جابر عصفور (٢٠) على ذلك حين يقول : « ان الاحباط في الحب - داخل القصيدة يتجاوب مع الاحباط في علاقة المتنبي بسيف الدولة ، وان كليهما يتجاوب مع الليل والظلام والأعداء والرقبة ، وان هذا التجاوب يشكل مهاداً يقودنا - عبر الفرس - الى عالم جديد ، هو عالم كافور ، الذي قد يمنح الأمل في ولاية أو ضيعة ••• قد نقول ذلك كله وأكثر منه لنشير الى العلاقات الداخلية التي تصنع وحدة القصيدة وتكامل موقفها ، الذي يتجاوز التقسيم الشكلي الى غزل ومديح » •

والغريب في الأمر أن حازماً لم يجرؤ على القول بالوحدة الداخلية في قصيدة المتنبي علماً بأنه كان من المعجبين بشاعريته، وكان يسميه « الشاعر العظيم » في حين يقول جابر عصفور بالوحدة الداخلية بين غرضي القصيدة : النسيب والمديح •

ويبدو للباحث أن القصيدة تفقد ، حين تفقد وحدتها ، التناسب بين هذه الموضوعات واجزائها : لأن التناسب غير الوحدة ، فهو حالة من التناغم بين العناصر ، تضم المؤتلف والمتباين ، وتوقع التشابه بين ما يبدو مختلفاً لأول وهلة • وهذا هو السبب في إلحاح حازم على التناسب في تصويره للوزن والايقاع • والتناسب ، من حيث الجوهر ، مبدأ رئيس في كل أنواع الفن وأشكاله • ولكن له في كل أنواع الفن مظهراً متميزاً ينجم عن طبيعة الأدوات والعناصر التي يتشكل منها : فتناسب اللوحة يظهر في تناغم الألوان المتباينة وينطوي تناسب اللحن على تناسم بين أصوات ، أما في الشعر فتتناسب بين كلمات ، وكلمات الشعر ليست مجرد أصوات ، بل هي مجموعة من الدلالات • ومن الصعب الفصل بين الكلمة وسياقها كما يصعب أيضاً فصل سياقها عن معنى من المعاني تتألف دلالتيه أو لا تتألف مع غيره من المعاني » (٢١) •

والفرق بين الوحدة والتناسب في الجوهر ، ولكنه فرق لا يلغي أهمية التناسب الذي يجمع عناصر متغايرة ، يتجاوب كل عنصر مع غيره على الرغم من أن لكل منها استقلاله ، ويبدأ حازم بتناسب القصيدة منذ الحرف : فإذا حسنت الحروف حسنت الفصول ، وكذلك يحسن نظم القصيدة من الفصول الحسان ، كما يحسن اتئلاف الكلام من الألفاظ الحسان ، ويعني

ذلك أنه إذا كان كل فصل متناسبا في ذاته فينبغي أن يكون متناسبا مع غيره ، ويشرح حازم التناسب في القانون الأول الذي يتضمن استجادة مواد الفصول وانتقاء جواهرها ، وأن تكون « متناسبة المسوعات والمفهومات حسنة الاطراد غير متخاذلة النسيج غير متميز بعضها من بعض التميز الذي يجعل كل بيت كأنه منحاز بنفسه لا يشمل غيره من الأبيات بنية لفظية أو معنوية يتنزل بها منه منزلة الصدر من العجز أو العجز من الصدر » (٢٢) ثم يقول : « وينبغي أن يكون نمط نظم الفصل متناسبا للفرض . فتعتمد فيه الجزالة في الفخر مثلا والمعدوبة في النسيب ، وأن تكون الفصول ممتدلة المقادير بين الطول والقصر » (٢٣) ، وتناسب الفصول يعني ترتيبها ، ويدل حسن ترتيبها على مقدرة الشاعر : « فإذا كان مقتدرا على النفوذ من معاني جهة إلى معاني جهة أو جهات بعيدة منها ٠٠٠ بصيرا بأنحاء التدرج من بعض الأغراض والمعاني إلى بعض ٠٠٠ قيل فيه أنه بعيد المراسي » (٢٤) .

ويؤكد هذا الفهم الوحدة ، ولكن من زاوية التسلسل أو التناسب : فالفصول تتدرج ويمتدب ثانيها أولها كما لو كنا نصعد درجاسمها يفضي بنا كل درج إلى ما يليه ، ولذلك يرى حازم أن الشعراء المحدثين « أحسن مأخذا في التخلص والاستطراد من القدماء ، لأن المتقدمين إنما كانت قصارهم في الخروج إلى المديح أن يقول : دع ذا ، وعدّ عن القول في هذا » (٢٥) ، ويتحدث في القانون الرابع عن تأليف فصول القصيدة : فهي على أربعة أضرب : ضرب متصل العبارة والفرض ، وهو الذي « يكون فيه لآخر الفصل بأول الفصل الذي يتلوه علقه من جهة الفرض وارتباط من جهة العبارة » (٢٦) ، وهذا ما يسميه القدماء « التضمين » (٢٧) ، وضرب متصل الفرض دون العبارة ، وهو الذي « يكون أول الفصل فيه رأس كلام ، ويكون لذلك الكلام علقه بما قبله من جهة المعنى » (٢٧) ، ويتصل المعنى في الأبيات ، ويكون كل بيت منفصلا ، نوعيا ، عما قبله وعما بعده ، فينفلق المعنى الجزئي مع نهاية القافية ، ويفضل حازم هذا الضرب ، لأنه يحافظ على استقلال البيت ، وضرب منفصل الفرض متصل العبارة ، وهو « منحط عن الضربين اللذين قبله » (٢٨) ، وضرب منفصل الفرض والعبارة ، ولا تتصل قصائدهما الضرب عباراتها ولا أغراضها ، بل يهجم الشاعر « على الفصل هجوما من غير اشعار به مما قبله ولا مناسبة بين أحدهما والآخر : فان النظم الذي بهذه الصفة تششت من كل وجه » (٢٩) ، وأردأ القصائد - في رأي حازم - ما افتقدت أجزاءه الاتصال ، ولكن علينا أن نلاحظ أن التششت ، هنا ، هو تششت الحبات إذا انقطع الخيط الذي يربطها ، لا تششت العناصر الحية (٣٠) .

وتناسب حازم تدرجي ترتيبي : فهو يرتب فصول القصيدة بحسب العناية والأهمية والطول والقصر ، ويرى أنه يجب « أن يقدم من الفصول ما يكون للنفس به عناية بحسب الفرض المقصود بالكلام ويكون مع ذلك متأثيا فيه حسن العبارة اللائقة بالمبدأ . ويتلوه الأهم فالأهم إلى أن تتصور التفاتة ونسبة بين فصلين تدعو إلى تقديم غير الأهم على الأهم . فهناك يترك القانون الأصلي في الترتيب . وتقديم الفصول القصصار على الطوال أحسن من أن يكون الأمر بالعكس » (٣١) ، ولا يكتفي حازم بترتيب الفصول : بل يذهب إلى ترتيب بيوت الفصل الواحد ، فيرى أنه يجب « أن يبدأ منها بالمعنى المناسب لما قبله ،

وان تأتى مع هذا أن يكون ذلك المعنى هو عمدة معاني الفصل والذي له نصاب الشرف كان أبهى للورود الفصل على النفس ، على أن كثيراً من الشعراء يؤخرون المعنى الأشرف ليكون خاتمة الفصل . فأما من يردف الأقوال الشعرية بالخطابية فإن الأحسن له أن يفتتح الفصل بأشرف معاني المحاكاة ويختمه بأشرف معاني الانقناع » (٣٢) .

وتناسبه وصلي فهو يتناول التخلّص من غرض الى غرض ، وهو ، عنده ، نوعان ، قديم عرفه الشعراء ، ويكون بالفاظ تفصل بين غرضين من أغراض القصيدة ، ومحدث « يجمع بين طرفي القول حتى يلتقي طرفا المدح والنسيب أو غيرهما من الأغراض المتباينة التقاء محكما ، فلا يختل نسق الكلام ولا يظهر التباين في أجزاء النظام » (٣٣) .

وليس التناسب ، عنده ، بمبدأ عن مفهوم العقيد - الوحدة عند ابن طباطبا (٣٤) : فوحدة القصيدة « كأنها عقد مفصل » (٣٥) ، وهو يصف مقصوده بأنها « من تناسب الفاظها ، وتناسق أغراضها ، قلادة ذات اتساق » (٣٦) ، و « قد تحلت بمقود ... وتجلت في سموط ... فانظم عقدها من اللؤلؤ المكنون » (٣٧) ، وتشبيه القصيدة بالمقد يشي بالعلاقة بين الفصول والابيات والعناصر والمعاني ، وهو تشبيه يتناقض كل التناقض مع مبدأ التناسي والتصاعد الداخلي في الشكل المضوي ، فحبات المقد مستقل بعضها عن بعض مبنى ومعنى ، أو هي متشابهة تشابهاً نسخياً وان ربطت بخيط ربطاً صناعياً ، وصناعة الحبات آلية تصنع كل حبة وحدها ، وهي حبات تصنع من مواد جامدة لا أثر فيها للنمو أو التفاعل ، وجمع الحبات في عقد التي يشبه جمع أجزاء آلية ما ، ويمكن فصل أي حبة عن المقد دون أن يسيء ذلك إلى جمالها أو شكلها ، ومفهوم حبات المقد هو مفهوم وحدة البيت داخل وحدة القصيدة ، فالقصيدة التقليدية مجموعة أبيات والمقد مجموعة حبات ، ويؤكد هذا التشبيه ثبات العناصر داخل الشكل الذي يقوم على الترابط الآلي والتسلسل الخارجي المصنوع ، وهكذا يتضح للباحث ، بعد القراءة المتأنية ، أن مستويات الوحدة التي يقول بها حازم متوازية ذات بعد واحد ، وأن قوله بتركيب القصيدة ما هو الا عودة بالنقد الى بنائية القصيدة الجاهلية .

وحدته منطقية ، فالقصيدة تتألف ، عنده ، من أغراض ، وتتألف الأغراض من فصول ، وتتألف الفصول من أبيات . وهو يدعو الى أمرين ، أحدهما ارتباط أبيات كل فصل ارتباطاً منطقياً ، والآخر ارتباط فصول القصيدة ارتباطاً تأثيرياً . وهو يفتتح الكلام على الشعر ببدهيات غريبة عنه ، ويتشدد في معاني الفصل الواحد حتى لينسى القارئ أن الكتاب في نقد الشعر ، فهو يتحدث ، مثلاً ، عن الوجه التي يقع بها التدافع بين المعاني ، فيقول : « كل قول قصد به محاكاة شيء ونحى بذلك منحى من الأغراض فانه يجب ألا يتعرض فيه الى ما هو أليق بمضاد الشيء المحاكى به وأخص به أو أخص بمناسب مضاده ، وألا يتعرض في تخييل حال الشيء المحاكى به الى ما هو أخص بحال مضاد ذلك الشيء أو مناسب مضاده ، وألا يتعرض في القول وما دل عليه الى ما هو أخص بمضاد

الغرض الذي نحى به منحاه أو الى ما هو اخص بمناسب مضاد ذلك الغرض ، وألا يتمرض فيه الى لفظ له عرف فيما يضاد المعنى الذي دل عليه أو الغرض الذي نحى به منحاه أو الشيء الذي قصدت به محاكاته ولا الى ما يناسب مضادات جميع ذلك ، فان التعرض في القول لما يضاد معناه ومدلوله وغرضه ، أو الى ما يناسب تلك المضادات ، أو الى ما له عرف في شيء من ذلك ، ضروب من التدافع « (٣٨) » .

وبعد هذا يدرك الباحث أن ما ذهب اليه حازم ، فعلا ، هو البناء المنطقي في بنية القصيدة على الرغم من أنه كان يستهدف البناء الشعري ، ويحتمل أن هذا الفهم لطبيعة المعنى الشعري يمهّد لمفهوم الوحدة في القصيدة ، وهو يلح على اقتران المعاني اقترانا منطقيا ، يخضع لحركة المنطق أكثر مما يخضع لحركة الشعر ، وهو يفترض أن الشاعر يفكر في معانيه بطريقة منطقية مع أنه يسلم بتمييز الشعر من المنطق كما يسلم بوجود دوافع ذاتية للابداع ، وهنا تكمن خطورة ما ذهب اليه ، فهو ، وإن حاول أحيانا أن يخفف نظريته المنطقية ، يؤكد ذهنية الشعراء ، وتسيطر عليه أقيسة لا نجد لها الا في كتب المنطق الأرسطي .

ويدرك حازم بطبيعته المنطقي أن ثمة فجوات بين أغراض القصيدة ، فعاول أن يجد رابطا يربطها ، ورأى أن يكون الانتقال من بعض الأغراض الى بعض على النحو الذي يوجد التابع فيه مؤكدا لمعنى المتبوع ومنسباً اليه من جهة ما يجتمعان في غرض ، ومحركا للنفس الى النحو الذي حركها الأول ، أو الى ما يناسب ذلك ، وبذلك يكون أشد تأثيرا في النفوس « (٣٩) » .

ويحذر حازم ، من وجهة نظر منطقية ، أن يجمع الشاعر بين غرضين متضادين ، كالحمد والذم أو الابكاء والاطراب ، وكان المعنيان متساويين في التناقض ظاهرا وباطنا مثل أن يحمّد الانسان شيئا ويذمه من جهة واحدة ، ويكون ظاهر الكلام يفيد الحمد والذم معاً ، وكذلك باطنه « (٤٠) » ، ويبدو أن مثل هذا التناقض يسيء الى القصيدة من نواح عدة ، أهمها اعتماد الشاعر عن التجربة ابتعادا كبيرا .

وتقسم القصيدة ، عنده ، الى أغراض ، يتناول الشاعر في كل منها معنى مألوفاً ، وترتبط هذه الأغراض ارتباطاً تأثيرياً ، ويبدو أن تعدد الأغراض يسيء الى وحدة كل عنصر على حدة وإن انتقال الشاعر من غرض الى غرض يوهي الرابط المنطقي ، وهذا ما حدا بحازم الى أن يقول بالتأثيرية في الانتقال بين أغراض القصيدة .

ولما أدرك حازم الفجوات المنطقية بين أغراض القصيدة وجد التأثيرية رابطا يسد هذه الفجوات ، ودهواه في ذلك أن « النفوس تحب الافتتان في مذاهب الكلام ، وترتاح للنقلة من بعض ذلك الى بعض ، ليتجدد نشاطها بتجدد الكلام عليها » « (٤١) » .

وتقوم هذه التأثيرية على أساس نفسي ، فتصل بين طرفي موضوعين كالمدح والنسيب ، فلا يظهر التباين بين أجزائها ، ويرى احسان عباس « (٤٢) » أن قضية الوحدة لم تتجسد في

ذهن حازم من غير الطرق الشكلية والحيل الشعرية ، لانه كان مشغول الذهن بالتأثير في نفس السامع حين تحدث عن التنويع في انتقال الشاعر في أثناء قصيدته من فصل الى فصل ، ويرى أن حازماً لا يهمل مستمع الشعر ، بل تكتمل وحدة القصيدة في المستمع ومدى تأثره ونشاطه ، وليس من الضروري أن تكون « الفصول » التي يتحدث عنها هي الموضوعات المتعددة ، وان كان لا ينكر تعدد تلك الموضوعات ، وربما كانت هذه الفصول « دورات » من النقلات النفسية في موضوع واحد ، وعندئذ لا يعني الحديث عن « الفصول » أنها متجزئة ، ولكنه يعني تماسك الدورات فيها (٤٣) .

وتقتضي الوحدة التأثيرية ، عنده ، الايجاز في الفصول خوفاً من سأم المستمع ، فينبغي ألا يتوسع الشاعر في الفصل الواحد ، ولو كانت المعاني سارة « ولكن يؤتى من ذلك بالمعنى والمعنيين ونحو ذلك في الفصل ويلمع كذلك في الموضوع بعد الموضوع » (٤٤) .

ويهتم حازم بمطلع القصيدة ويرى أن المطالع الناجحة تفضي الى نجاح القصائد لأنها « رائد ما بعدها الى القلب » فإذا هبَّتْها النفس تحركت لقبول ما بعدها ، وان لم تقبلها كانت خليقة أن تنقبض عما بعدها (٤٥) . وللقصيدة عدة مطالع ، فلكل فصل مطلع يسيطر على المستمع الى أن يسلمه الى الفصل الذي يليه ويربط ما بينهما ويزيد القصيدة حسناً وبهاء .

ولم يتخلص حازم من سيطرة البيت المفرد على بعض آرائه النقدية ، فهو يهتم ، مثلاً ، بمطالع القصائد (٤٦) ، ويشترط فيها أن تكون « سالمة من الخرم ، غير مفتقرة الى ما قبلها افتقاراً يجعلها غير مستقلة بانفسها أو في قوة المستقلة » (٤٧) ، وقد مر معنا ان حازماً يميل الى تفضيل القصائد المتصلة الغرض المنفصلة العبارة ، لأنها تحافظ على استقلال البيت ، وقد أدى اهتمام حازم بالبيت المفرد الى اهتمامه بالقافية ، « فاما ما يجب فيها من جهة كونها مستقلة منفصلة عما بعدها أو متصلة به فلا يخلو الأمر في هذا من أن تكون الكلمة الواقعة في القافية غير مفتقرة الى ما بعدها ولا مفتقر ما بعدها اليها وهو المستحسن على الإطلاق » (٤٨) ، وهو يفضل ، في مكان آخر من كتابه ، بناء الشعر على البيت المفرد ، ويفضل بناء البيت على القافية ، وله ماخذ على غير ذلك (٤٩) .

وهكذا يتضح أن حازماً الناقد لم يتخلص تماماً من سيطرة البيت المفرد على نقده على الرغم من أنه قال بوحدة القصيدة واهتم بالقياس المنطقي ، فطلت القصيدة في نقده متعددة الأغراض ، كما طلّت عناصر ثابتة مستقلة غير متفاعلة ، ويعود هذا الى أنه سار في نقده على نهج القصيدة الجاهلية وقال بوحدها معاً .

□ العواشي :

- ٢٠- مفهوم الشعر - ص ٤٦٥ .
- ٢١- المرجع السابق - ص ٤٢٥ .
- ٢٢- منهاج البلغاء - ص ٢٨٨ .
- ٢٣- المصدر السابق - ص ٢٨٨ .
- ٢٤- المصدر السابق - ص ٣٢٣ .
- ٢٥- المصدر السابق - ص ٣١٧ .
- ٢٦- المصدر السابق - ص ٢٩٠ .
- ٢٧- ينظر التضمن في : العدة - ١٧١/١ - ١٧٢ .
- ٢٨- منهاج البلغاء - ص ٢٩١ .
- ٢٩- المصدر السابق - ص ٢٩١ .
- ٣٠- ينظر : مفهوم الشعر - ص ٤٦٠ .
- ٣١- منهاج البلغاء - ص ٢٨٩ .
- ٣٢- المصدر السابق - ص ٢٨٩ .
- ٣٣- المصدر السابق - ص ٣١٨ - ٣١٩ .
- ٣٤- ينظر في ذلك مقالنا وحدة القصيدة في « عيار الشعر » .
- ٣٥- التراث العربي س ٥ ع ١٨ .
- ٣٦- منهاج البلغاء - ص ٢٩٧ .
- ٣٧- قصائد ومقطعات - تقديم وتحقيق د. محمد العبيد
- ٣٨- ابن الطوجة - ص ١١ .
- ٣٧- المصدر السابق - ص ١٠ .
- ٣٨- منهاج البلغاء - ص ١٤٧ .
- ٣٩- المصدر السابق - ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .
- ٤٠- المصدر السابق - ص ٣٥٠ .
- ٤١- المصدر السابق - ص ٣٦١ .
- ٤٢- تاريخ النقد الأدبي عند العرب - ص ٣٣ .
- ٤٣- المصدر السابق - ص ٣٤ .
- ٤٤- منهاج البلغاء - ص ٣٦٠ .
- ٤٥- المصدر السابق - ص ٢٨٦ .
- ٤٦- ينظر : المصدر السابق - ص ٣٠٩ .
- ٤٧- المصدر السابق - ص ٢٨٦ .
- ٤٨- المصدر السابق - ص ٢٧٦ .
- ٤٩- ينظر : المصدر السابق - ص ٢٨١ - ٢٨٢ .
- ١- Lalande, André - Vocabulaire technique et Critique de la philosophie, P. 1164.
- 2- Ibid, P. 723.
- 3- Ibid, P. 1163.
- ٤- فن الشعر - ص ٢٤ - ٢٦ .
- ٥- بريت ، د. ل. - موسوعة المصطلح النقدي- ٢/٣٦٢ .
- ٦- المصدر السابق - ٢ / ٢٥٦ .
- ٧- النظرية الرومانتيكية في الشعر - ص ٢٤٩ .
- ٨- المجلد في فلسفة الفن - ص ٥١ .
- ٩- سلامة ، د. إبراهيم - بلاغة أرسطو بين العرب واليونان - ص ٤ .
- ١٠- الحيوان - ٧٥/١ ، وابن سينا « فن الشعر من كتاب الشفاء » مسن كتاب « فسن الشعر » - ص ١٩٨ .
- ١١- والمتناهي - ص ٦٨ و ٨٩ و ١١٨ . الخ .
- ١٢- المدخل من كتاب « المتناهي » ص ١١٧ - ١١٨ .
- ١٣- المصدر السابق - ص ٩٨ - ٩٩ .
- ١٤- « حازم القرطاجني ونظريات أرسطو في البلاغة والشعر » - كتاب « طه حسين » - ص ٨٧ .
- ١٥- هو أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم القرطاجني المتوفي سنة ٦٨٤ هـ ناقد وشاعر من أهل قرطاجنة (شرقي الأندلس) ، انتقل إلى إفريقية ، فاشتهر بها وعمر وتوفي بتونس . من كتبه « سراج البلغاء » في البلاغة وكتاب في القوافي ، وله ديوان شعر مطبوع مرتين . ينظر في ترجمته : المقري - تلح الطيب - ٥٨٩/٢ ، والسيوطي - بلية الوعاة - ٤٩١/١ - ٤٩٢ ، والعنبري - شذرات الذهب - ٣٨٧/٥ - ٣٨٨ .
- ١٦- تقديم وتحقيق محمد العبيد ابن العروسة - الطبعة الرسمية للجمهورية التونسية - ١٩٦٦ .
- ١٧- منهاج البلغاء - ص ٣٠٣ .
- ١٨- المصدر السابق - ص ٣٢٤ .
- ١٩- المصدر السابق - ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .
- ٢٠- بكار ، د. يوسف حسين - بناء القصيدة العربية - ص ١١٢ .

شعر أبي الطَّمَحان القيني بين جمعين

ياسين محمد الفاخوري

جُمع شعر أبي الطَّمَحان مرتين .
جمعه الاستاذ عبدالمعين الملوحي ، ونشره في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (المجلد ٥٦ لعام ١٩٨١) في سلسلة مقالاته : أشعار اللصوص وأخبارهم ، ثم أعاد نشره ثانية في كتابه : أشعار اللصوص وأخبارهم ، مصورا عن مجلة المجمع في دار أسامة بدمشق .
وجمعه الدكتور يحيى الجبوري ونشره في كتاب : قصائد جاهلية نادرة (مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٢) وكان جمعه لشعر أبي الطَّمَحان تيمنا لنشره قصيدته النادرة التي مطلعها :

لمنّ طلل عافٍ بذات السلاسل كرجع الوشوم في ظهور الأنامل
وهي قصيدة تقع في ثلاثة وأربعين بيتاً .

عرف المعققان الفاضلان بأبي الطَّمَحان القيني حنظلة بن الشرقي ، فهو شاعر فارس لصّ حارب صملوك فاسد ، مخضرم . كان ترباً للزبير بن عبدالمطلب ونديماً له ، يُغَيِّر ويُنْفِر عليه ويؤسر ثم يُطْلَق ، لجأ إلى بني فزارة وأقام فيهم في أخريات حياته حتى هلك ، وذكر أنه من الممّثرين . وأشار إلى قصة الدير المشهورة التي اعتبرها أدنى ذنوبه .

امتاز جمع الأستاذ الملوحي بنقله اختلاف القدماء في اسم أبي الطَّمَحان فهو ربيعة بن عوف بن غنم بن كنانة بن القين بن جسر كما وجد على ديوانه المفرد الذي اطلع عليه الأمدي ، أو هو حنظلة بن الشرقي وقيل : ربيعة بن غنم بن كنانة بن جسر كما في الحماسة ، طبع أوروبا ، ص ٥٥٨ وأشار الأستاذ الملوحي إلى ديوانه المخطوط فقال : ولعله ضاع فيما ضاع من تراثنا العربي أو لعل الأيام تكشف عنه ذات يوم .

هذا ما لم يذكره الدكتور الجبوري الذي يمتاز جمعه بإيراده قصيدته النادرة التي لم يورد منها الأستاذ الملوحي سوى بيت واحد .

كما يمتاز جمع الدكتور الجبوري بتخريجه أبيات أبي الطمّحان ، هذا التخريج الذي لم يتم به الأستاذ الملوحي الذي اكتفى بذكر مصادره في بداية بحثه وإن لم ينس ذكر عدد من مصادره في دراسته التي قام بها وهو يروي أخبار الشاعر .

إن الجمعين متقاربان فمقدمة الدكتور الجبوري لكتابه مؤرخة بعام ١٩٨١ ومجلة المجمع التي نشرت جمع الأستاذ الملوحي صدرت في عام ١٩٨١ ، مما يدلنا على أن كلا من الأستاذين الكريمين لم ير ما جمعه الثاني قبل أن يرسل جمعه للنشر .

وقد بلغ الشعر الذي جمعه الأستاذ الملوحي أربعين بيتاً ، أضاف إليها ثمانية أبيات مما ينسب للشاعر وغيره ، في حين بلغ ما جمعه الدكتور الجبوري سبعة وسبعين بيتاً . وقد تجمعت لديّ عدة ملاحظات على الجمعين أوردتها هنا :

● المقطوعة: إذا قيل أيّ الناس خير قبيلة .

أوردتها الأستاذ الملوحي (مجلة المجمع ٥٦/٢٨٩) في سبعة أبيات ، ذكر منها الدكتور الجبوري (قصائد جاهلية نادرة ٢١٨) ثلاثة أبيات ، وذكر الدكتور الجبوري أن الأبيات تُروى للقيط بن زُرارة في مصادر عددها .

وقد وجدت الأبيات عدا الرابع في حاشية البغدادي على شرح بانت سداد ٣٤٠/١ ، والأبيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٧ ، في المعني بهامش الخزاعة ٥٦٧/١ ، والأبيات ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، في المتع للنهشلي ٧٧ ، والعماسة البصرية ١٦١/١ والمستطرف ١٣٠/١ ، والأبيات ٣ ، ٥ ، ٦ ، في أخبار أبي تمام للصولي ١٣٥ وشرح المقامات للشريشي ٧٨/١ ، والأبيات ٣ ، ٦ ، ٧ ، في نهاية الأرب ١٨٣/٣ ، والبيتين ٣ ، ٥ ، في خزانة الأدب ٤٢٦/٣ والأصابة ٣٨١/١ ، والبيت الثالث في المصون ٢١ وعباس الشعر ٤٦ والعمدة ١٣٥/٢ ، والصحاح واللسان (خضض) ، وهذه المصادر كلها نسبت الشعر لأبي الطمّحان ، وأضاف في العمدة قوله : وقد تنازع في هذا البيت (أي الثالث) قوم ، كما أورد أسامة بن منقذ البيت الثالث بلا عزو في بديعه ١٠٥ .

● البيتان : ألا علّاني - رواهما المعققان (الملوحي ٥٦/٢٩١ ، والجبوري ٢١٩) وقال الأستاذ الملوحي في الهامش : أحفظ بيتين لعلهما تنتم للبيتين المذكورين ولم أستطع العثور عليهما وهما : وذكر البيتين :

إذا راح أصحابي يؤمنون أمهم وغودرت في قبر علي صفائعي

يقولون : هل أصلحتهم لأخيك وما القبر في الأرض الفضاء بصالح

وهذان البيتان تنتم للأولين حقاً ، والأربعة في العماسة البصرية ١/٢٨١ ، وخاص الخاص ٩٩ ، وشرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ٢/٢٣١ في الانشاد ١٣١ لأبي

الطَّمْحَانِ القَيْنِي ، والأبيات أيضاً نسبت لهذبنة المذري في العقد الفريد ١٧٩/٣
ووجدتها في شعر هدية بن الخشرم ، الذي جمعه وحققه الدكتور يحيى الجبوري ص ٨٣ ،
وأضاف للأبيات بيتاً خامساً .

● المقطوعة : وبالحيرة البيضاء شيخ "سلطان" .

لم يوردها الأستاذ الملوحي وأوردها الدكتور الجبوري (ص ٢١٨) عن شرح الحماسة
للمرزوقي ١٨٦٣/٤ لأبي الطَّمْحَانِ الأسدي وذكر قول التبريزي أن القائل هو طخيم أبو
الطَّمْحَانِ الأسدي ، وأقول : أن الأبيات في المؤلف والمختلف للأدي ٢٢٢ لأبي الطَّمْحَانِ
الأسدي ، ولفرق بينه وبين القَيْنِي ، وذكر شاعرين آخرين كل منهما أبو الطَّمْحَانِ ،
أحدهما نهشلي والثاني لم ينسبه ، وقال عن الآخر : لا أعرف صحته ولا صحة أبي الطَّمْحَانِ
الأسدي ، كما نقل عن المبرد قوله : ولا أعرف أبا الطَّمْحَانِ إلا القَيْنِي .

وأضيف فأقول : أن أبا الطَّمْحَانِ من بني القَيْنِ بن جسر بن شيع الله بن أسد بن
وبرة بن تغلب ، ولم يذكر المحققان (أسداً) في نسبه .

● المقطوعة : حنّتي حانيات الدّهر .

ذكر الدكتور الجبوري (ص ٢١٩) بيتين ذكرهما الأستاذ الملوحي (٢٩١/٥٦)
وأضاف إليهما ثالثاً ، ونسبه أن أبا حاتم (السجستاني) يظن أن يونس بن حبيب أضافه
إلى بيتي أبي الطَّمْحَانِ وأنه ليس له . وأضيف إلى ما ذكره الدكتور الجبوري من
مصادره : كتاب الممترين ٧٢ ، وأمالى المرتضى ٢٥٧/١ ، وشرح أبيات مغني اللبيب
للبيدادي ٢٣٣/٢ ، وحاشية البغدادي على شرح بانت سعاد ٣١٣/١ ، وكنایات الجرجاني
١٠٦ ، والأصابة ٣٨١/١ ، وشرح نهج البلاغة ١٩٠/٢٠ - كما ورد البيتان ١ ، ٢ ،
بلا عزو في شرح القصائد السبع ١٥٩ ، والتمثيل والمعاصرة ٣٩١ ، وأوردهما
الأسبهاني في الأغاني ٣٤٧/١٢ (طبعة دار الكتب) لأبي الطَّمْحَانِ ثم نقل عن ابن حبيب
أنهما للمسبح بن سباع الضبي .

● البيتان : يا ربّ مظلمة يوماً .

لم يروهما الدكتور الجبوري ورواهما الأستاذ الملوحي (٢٩٢/٥٦) عن أمالي المرتضى
٢٦٠/١ .

● الأبيات الخمسة : ألا حنّت المرقال .

رواهما الدكتور الجبوري (ص ٢٢٠) والأستاذ الملوحي (٢٩٢/٥٦) .

والبيتان : أجده بني الشرقي .

رواهما الدكتور الجبوري (ص ٢١٩) ولم يروهما الأستاذ الملوحي .
وهاتان المقطعتان بأبياتهما السبعة من قصيدة واحدة رواها محمد بن حبيب في المنقب

٢٧٦-٢٧٧ في تسعة أبيات مطلعها (ألا حنّت المرقال) ثم بيت زائد ، فالثاني والثالث ، ولم يروى الرابع ، ثم روى الخامس ، وأورد بعده بيتين زائدين ، واختتمها بالبيتين (أجد بني الشرقي) .

ونسب ابن حبيب الأبيات لحنظلة بن الشرقي وهو اسم أبي الطمّحان القيني .
وسأورد الأبيات كاملة برواية ابن حبيب مضيفاً إليها البيت الذي لم يروه مع ما وجدته من شعر أبي الطمّحان ولم يروه المحققان الفاضلان .

● الأبيات : لو كنت في ريمان .

رواها الدكتور الجبوري (ص ٢٢٠) والاستاذ الملوحي (٢٩٤/٥٦) لأبي الطمّحان، ومصدرها عند الدكتور الجبوري كتاب الأغاني، ووجدتها في الفضليات ٢٨٣ من المفضلية ٧٤ المنسوبة لثعلبة بن عمرو العبدي ، ابن أم حزنة . والرواية : ولو كنت في همدان . كما وجدت البيتين (١ و ٢) لأوس بن حجر في ديوانه ، ص ٧٤ .

● البيتان : بني إذا ما سأمك الذلّ قاهر .

لم يروهما الدكتور الجبوري، ورواهما الأستاذ الملوحي (٢٩٣/٥٦) نقلاً من أمالي المرتضى ٢٦٠/١ الذي قدم لهما بقوله : وأنشد أبو محمّد السعدي لأبي الطمّحان ، ثم عقب عليهما بقوله : وهذان البيتان يرويان لمبداءه بن معاوية الجمفري . وقد وجدت في شعر عبدالله بن معاوية ص ٤٩ وذكر محققه أنهما في مجموعة المماني نسبة لمبداءه بن معاوية بعد نسبتها لأبي الطمّحان، كما في أمالي المرتضى ، وأنهما في التذكرة السعدية ٣٣٦ لأبي الطمّحان .

● الأبيات : أرتقت وأبنتني الهوم الطوّارق .

رواها المحققان ، الملوحي (٢٩٤/٥٦) والجبوري (ص ٢٢١) وأضيف أن البيت الرابع في الأساس واللسان (سرق) .

● البيت :

يكاد الغمام الفرّ يرعد أن رأى وجوه بني لأم وينهل بارقه .
رواه المحققان ، الملوحي (٢٩٥/٥٦) والجبوري (ص ٢٢٢) مفرداً ، والبيت في الحيوان ٩٣/٣ والبيان والتبيين ٣٣٧/٣ والمتع للنهشلي ٧٧ ثاني بيتين أولهما :

فكم فيهم من سيّد وابن سيّد وفي بمقدّر الجار حين يفارقه .
أما المقدّ الفرید ٣٤/٧ فقد روى البيت وأورد معه ثانياً ، والرواية فيه :

يكاد الغمام الفرّ يرعد أن رأى محيّا ابن مروان وينهل بارقه .
يظلّ فتيت المسك في رونق الضحى تسيل به اصداغه ومفارقه .

• وبهذه الرواية يلتئم معنى البيتين عند ابن عبد ربه ، وهذان البيتان ذكر ابن عبد ربه أن أبا الطمحان أعطاهما أحد المغنين ليفني بهما أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك ، ولكن ... هل أدرك أبو الطمحان الذي ذكر أنه أحد المعمّرين ، عهد أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك الذي تولى الخلافة سنة ١٠٥ هـ ؟ لا اعتقد ذلك .

● الأبيات : سأمح مالكا في كل ركبي .

رواها المحققان ، الملوحي (٢٩٥/٥٦) والجبوري (ص ٢٢٢) وأضيف أنها في الحيوان ٣٨٠/١-٣٨١ والبيان والتبيين ٢٣٥/٣ .

● الأبيات : إذا كان في صدر ابن عمك إحنة .

أوردها الأستاذ الملوحي (٢٩٦/٥٦) ثلاثة أبيات، اقتصر الدكتور الجبوري (ص ٢٢٢) على الأولين منها . وأقول : البيت الأول في أمالي المرتضى ٢٥٩/١ والجمهرة ٤٢/٢ لأبي الطمحان، والأبيات الثلاثة رويت للأقيل القيني في اللسان (أحن) والأول والثالث في المؤتلف والمختلف ٢٥ للأقيل أيضاً . وورد البيت الأول بلا عزو في الحماسة البصرية ٦٤/١ وأضاف إليه ثانياً . أما البحري في حماسته ص ٢٠ فقد روى البيت الأول ونسبه لمعروف بن عمرو الطائفي .

★ ★ ★

هذه جملة ملاحظات على جميع لشعر شاعر واحد قام بهما محققان فاضلان ، ولعل في هذا ما يوضح أن الانسان لا يمكن أن يصل الى درجة الكمال اذ لا بد من نقص يمتوره هنا أو هناك ، وقد وجدت أبياتا أضيفها لما أورده المحققان وأنا على ثقة أننا سنجد في مستقبل الأيام من يضيف ، فالكتب كثيرة وجلها ما لم يطبع بعد ، ومن يدري فلعل ديوان أبي الطمحان المفقود يظهر في مكان ما .

● قال أبو الطمحان القيني يصف الكلاب والاروية :

فعاسفتها حتى اذا ابتل روقها وقنن عليه انفسا ولعابا
- الأساس (قيا) .

● وقال يذكر النساء :

فأصبغن قد أهين عني كما ابت حياض الإمدان القلباء القوامج
وأصبغن لا يستقيني من مودة بسلاما ولو سالت لهن الأباطج

- البيتان في الأساس (قهر) والأول في اللسان والتاج (قها) لأبي الطمحان ، والأول في التاج (أمد) لزيد الخيل ولي اللسان والتاج (مدد) لزيد الخيل وقيل هو لأبي الطمحان .

● وقال :

ترضى حصى معزام جوش واكمت
- الصاحح واللسان والتاج (جوش) ومعجم البلدان (جوش) *

● وقال يمدح :

إذا لبسوا عماثهم ثنوها على كرم وإن سَفَرُوا أناروا
يبيع ويشترى لهم سواهم ولكن بالرماح هم تيجار
إذا ما كنت جار بني لؤي فانت لأكرم الثقلين جار

- الحماسة البصرية ١٣٢/١ ، والأبيات لشاعر من بني تميم في المستطرف ٢٣٢/١
وروي : بني تميم بدلا من : بني لؤي *

وهي أيضا في الحماسة البصرية ١٧١/١ لأبي يعقوب اسحاق بن حسان الغريمي ،
وقد رويت في ديوانه ص ٦٩ في قسم (شعر منسوب إلى الغريمي وغيره وهو أولى به) ،
ووردت الأبيات في البرصان للجاحظ ص ٣٤٧ بلا عزو والرواية في هذه المراجع :
بني خريم *

وقال :

الا حنت المير قال واشتاق ربها تذكر أرماما واذكر معشري
وباتت وبات لهم تحت جرائنها ضمورا بان الوحش لو لم تلجزم
ولو علمت صرف البيوع لسترها بمكة أن تبتاع حمضا بأخير
لسترك لو كننا بجني منيزة وحمض وضمرا الجناح وصعتر
(إذا شاء راعيها استقتى من وقعة كعين الفراب صفوها لم يتكدر)
واني لأرجو ملحتها في بطونكم وما بسطت من جلد اشعث اغبر
فاما اجتوت أرضا فاني اجتويتها وإن على التب لو لم اغبر
جزاء سينمار جزوها وربها وباللات والعزى جزاء المكفر
اجتد بني الشرقي أدبر أتهم متى يعلقوا جارا من الناس يتقدر
إذا قلت أوفى أدركته دروكنه فها مؤذي الجيران بالبني القصر

- الأبيات (١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦) رواها الدكتور الجبوري ص ٢٢٠ ، والأستاذ الملوحي
(٢٩٢/٥٦) ، والبيتان (٩ ، ١٠) رواها الدكتور الجبوري ص ٢١٩ ، ولم يروها
الأستاذ الملوحي *



والبيتان (١ ، ٦) في اللسان (ملح) ، والبيت الخامس في أمالي المرتضى ٢٥٩/١ ،
والجمهرة ١٤٣/٣ ، وثمار القلوب ٤٦١ ، والمستقصى ٢٢/١ في شرح المثل : أبصر من
غراب ، والحيوان ٤٢١/٣ والفصول والغايات ٤٠٥ ، والبيت السادس في الجمهرة ١٩١/٢ ،
والاساس والتاج (ملح) والحيوان ٤٧٣/٤ ، والبيت الثامن في خزنة الأدب ١٤٢/١ .

والبيتان (٦ ، ٨) في تمثال الامثال ٤١٢ في شرح المثل : جزاء ستمار وعجز العاشر
ايضاً في تمثال الامثال ٢٤٠ .

● وقال :

مهلاً تمير فانكم امسيتم منّا بنفـر ثنيته لم تستر
سودا كاتكم ذناب خطيطة مطير البلاد وحر مهـا لم يـمطر
يتحبون بين اجا وبرقة عالج حبو الضباب الى اصول السـغير
وتركتكم قصب الشريف طواميا تهوي ثنيته كعين الاصـور

- الحيوان ١١٣/٦ .

● وقال :

لما انفك حتى لم يدع بين هامة وبين سلامي فيرسين مخنة تنقي
بضرب يزيل الهام عن سكياته وطمع كتشهاق العفا هم بالتهق
- تهذيب اصلاح المنطق ٢٢٩-٢٣٠ ، والبيت الثاني في الصحاح واللسان (شوق ،
سكن ، عفا) ، كما ورد صدر البيت الثاني مع اعجاز مختلفة في اللسان (سكن) معزواً
لكل من زامل بن مصاد العيني وطفيل والنايف .

● وقال أبو الطمّحان أو أخوه :

وكانت قريش لا تغون حريمها من الغوف حتى ناهضت بهشام

- شرح نهج البلاغة ٢٨٨/١٨ .

● وقال :

لما تعمّلت العمول حسبتهـا دوماً بايلة ناعما مكموما

وهذا مما أخذ عليه لأن الدوم : شجر المثل وهو لا يكتم ، وانما يكتم النخل .
- المعقد الفريد ١٨٢/٦ .

● وقال يذكر لقمان :

إن الزمانَ ولا تفتني عجائبه
أست بنو القين أفرافاً موزعة
فيه تقطع الألفِ والقران
كانهم من بقايا حي لقمان

- البيان والتبيين ١/ ١٨٧ .

● وقال يذكر سد مأرب :

الم تروا مأرباً ما كان حصته
ظل العبادي يسقي فوق قلته
وما حواليه من سور وبنيان
ولم يهب ريب دهر جد حوان
حق تناوته من بعد ما هجموا
يرقى اليه على أسباب كشان

- الحيوان ٦/ ١٥٤ والبيت الاول في نهاية الأرب ١٥/ ٣٣٣ ، والروض المطار (سبأ) ص ٣٠٢ ، كما وردت الأبيات الثلاثة في معجم البلدان (مأرب) ٥/ ٣٨ بلا عزو .

□ المراجع :

- ★ اخبار أبي تمام للصولي - نج محمد عبده عزام و خليل محمود عساكر ونظير الاسلام الهندي - دار الافاق الجديدة بيروت ١٩٨٠ ط ٣ .
- ★ اساس البلاغة للزمخشري - نج عبدالرحيم محمود - دار المعرفة بيروت ١٩٧٩ .
- ★ الاصابة لابن حجر - دار احياء التراث العربي بيروت (طبعة مصورة) .
- ★ الاغانى لأبي الفرج الاصبهاني - القاهرة (مصورة عن طبعة دار الكتب) .
- ★ امالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) - نج محمد ابو الفضل ابراهيم - دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧ .
- ★ البديع في نقد الشعر لاسامة بن منقذ - نج د. احمد بدوي و د. حامد عبد المجيد - القاهرة ١٩٦٠ .
- ★ البرصان والعرجان والعميان والحوالان للجاحظ - نج د. محمد مرسى الخواي دار الاعتصام ، القاهرة - بيروت ١٩٧٢ .
- ★ البيان والتبيين للجاحظ - نج عبدالسلام محمد هارون - دار الفكر بيروت (طبعة مصورة) .
- ★ تاج العروس للزبيدي .
- ★ تمثال الامثال للعبدي الشيبني - نج د. اسعد ذبيان - دار المسيرة بيروت ١٩٨٢ .
- ★ التمثيل والمعاصرة للشماخي - نج عبدالفتاح محمد الحلوم - القاهرة ١٩٦١ .
- ★ تهذيب اصلاح الماطق للطبيب التبريزي - نج د. فخر الدين قباوة - دار الافاق الجديدة بيروت ١٩٨٣ .
- ★ ثمار القلوب للشماخي - نج محمد ابو الفضل ابراهيم - القاهرة ١٩٦٥ .
- ★ جمهرة اللغة لابن دريد - دار صادر بيروت .
- ★ حاشية البهاددي على شرح بانت سعاد - نج نظيف محرم خواجه - دار صادر بيروت ١٩٨٠ (سلسلة النشريات الاسلامية) .
- ★ حماسة البهري - دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧ ط ٢ .



- ★ الحماسة البصرية - نج مفتار الدين أحمد - عالم الكتب بيروت (طبعة مصورة)
- ★ الحيوان للجاحظ نج محمد عبدالسلام هارون القاهرة ١٩٦٥ - ١٩٦٩ م ط ٢
- ★ خاصي الخاص للنعالي - دار مكتبة الحياة بيروت
- ★ خزنة الأدب للبغدادي - دار صادر بيروت (مصورة عن طبعة بولاق)
- ★ ديوان أوس بن حجر نج د. محمد يوسف نجم دار صادر - بيروت ١٩٧٩ م ط ٣
- ★ ديوان الفريسي أبي يعقوب اسحاق بن حسان - جمعه وحققه علي جواد الطاهر ومحمد جبار المعيد - دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧١
- ★ الروض المطار في خبر الاقطار للحميري - نج د. احسان عباس - مؤسسة ناصر للثقافة بيروت ١٩٨٠ ط ٢
- ★ شرح ابيات فني الطبيب للبغدادي - نج عبدالعزيز رباح واحمد يوسف الدقاق - دمشق ١٩٧٣ - ١٩٨١
- ★ شرح الفوائد السبع الطوال الجاهليات لابن الانباري - نج عبدالسلام محمد هارون - القاهرة ١٩٦٣ (ذخائر العرب)
- ★ شرح مقامات الحريري للشريشي - دار الكتب العلمية بيروت (طبعة مصورة)
- ★ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد - نج محمد أبو الفضل ابراهيم - دار احياء التراث العربي بيروت ط ٢
- ★ شعر عبدالله بن معاوية - جمع وتحقيق عبدالحميد الراعي - مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٦
- ★ شعر هدية بن الخشرم - جمعه وحققه د. يحيى الجبوري - دمشق وزارة الثقافة ١٩٧٦
- ★ الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) للجوهري - نج احمد عبدالغفور عطيار دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٤ ط ٣
- ★ العقد الفريد لابن عبد ربه - نج محمد سميد العربيان - دار الفكر بيروت
- ★ العمدة لابن رشيق - نج محمد محيي الدين عبدالحميد - دار الجيل بيروت ١٩٧٢ ط ٤
- ★ عيار الشعر لابن طباطبا - نج د. طه الحاجري و د. محمد زغلول سلام القاهرة ١٩٥٦
- ★ الفصول والفايات لأبي العلاء المعري دار الأفاق الجديدة (طبعة مصورة)
- ★ اسان العرب لابن منظور
- ★ المستطرف للاشبهى - دار احياء التراث العربي بيروت (طبعة مصورة)
- ★ المستقصى في أمثال العرب للزطعشري - دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٧ ط ٣
- ★ المصون لأبي احمد السكري - نج عبدالسلام محمد هارون - القاهرة والرياض ١٩٨٢ ط ٢
- ★ معجم البلدان لياقوت الحموي - دار صادر بيروت ١٩٧٧
- ★ المعرون لأبي حاتم السجستاني - نج عبدالمنعم عامر - القاهرة ١٩٦١
- ★ المفصليات للمفضل الضبي - نج احمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون - القاهرة ١٩٥٢ ط ٢
- ★ المقاصد النحوية الميمني - (بهامش خزنة الأدب)
- ★ المتع في صنعة الشعر لعبدالكريم النهشلي - نج عباس عبدالسار - دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٣
- ★ المنتخب من كتابات الأدباء واشادات البلغاء للجرجاني - دار صوب بيروت (طبعة مصورة)
- ★ المنطق في اخبار فريش لمحمد بن حبيب - صححه وعلق عليه خورشيد احمد فاروق - عالم الكتب بيروت ١٩٨٥
- ★ المؤتلف والمختلف للأمدى - نج عبدالستار احمد فراج - القاهرة ١٩٦١
- ★ نهاية الأرب للزبيدي - القاهرة (مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية)

رحلة مع يعقوب بن كلس

د. عارف تامر

بعض الشخصيات الكبرى التي لعبت دورا بارزا على مسرح الأحداث في مواطنها ... لم تنل ما تستحقه من تكريم واطراء واشادة بعد موتها ، ولا أحد يدري لماذا طمست آثارها ، وطويت أخبارها ، ووقف التاريخ منها موقف اللامبالاة ، بالرغم من نجاحها في أعمالها ، وحب الناس لها ، واخلاصها لوطنها .

ويمقوب بن كلس ... هذه الشخصية التي نتحدث عنها ، والتي تميزت بسبقها وتفوقها ، لم يولها التاريخ العربي ما تستحقه من اهتمام ، واقتصرت المصادر على كلمات هابرة خالية من كل تعريف وتقديم ، ودون أية إشارة الى الدور الذي لعبته على مسرح الأحداث في المشرق العربي ، وإلى ما سجلته من الصور الجميلة في أذهان الذين عرفوها وعاصروها ، أو إلى تأثيرها في الحياة الفكرية والحضارية لأرض الكنانة .

هو : أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس ... ولد في بغداد سنة ٣١١ هـ . من أبوين ينتميان إلى أسرة يهودية قديمة وميسورة ، فادخل المدارس ، وكانت تبدو عليه علامات الذكاء والنجابة منذ الصغر ، وبعد أن شب وترعرع ونال قسطا وافرا من الثقافة ، اتخذ التجارة مهنة له ومتكسبا ... فبدأ بمعاونة والده الذي كان له أهمية كبرى في عالم التجارة ، ولم يلبث أن رحل معه إلى الشام في بعض المسائل التجارية ، ومن دمشق قصد بلد « الرملة » حيث اتخذها مقرا لتسهيل أعمال بعض التجار الذين أوكلوا إليه مهمة تسهيل أعمالهم التجارية ، ولكنه بعد فترة قصيرة انتقل إلى مصر للاحتكاك ببعض المشاريع التجارية ، وكانت آنشد - تحت حكم « كافور الإخشيدي » سنة ٣٣٤ هـ ، وهناك تمكن بحسن سياسته ودهائه ومرونته ولأسباب مجهولة من الاتصال بكافور ، فأعجب به منذ المرة الأولى ، وأحله من نفسه ، ومنحه العطف والرعاية ، لما أنسه فيه من علو النفس والجد والهمة والأمانة ، وهذا ما جعله يلجأ عليه بالبقاء في مصر

والاضطلاع بمهمة مستشاره الخاص ، فأجابه الى طلبه ، وفي تلك الفترة اعتنق الاسلام على أيدي بعض العلماء الذين اختارهم كافور لتدريسه أصول الاسلام ، وهذا ما أثار غضب وحسد وخوف الوزير الأول « جعفر بن الفرات » فأضمر له الشر ، ونصب له العيائل وتشاء الظروف أن يموت صديقه كافور ، وأن يتميز مركز الوزير ابن الفرات ، فقبض على ابن كلثوم وحبسه ، ولكنه لم يلبث أن فرّ من سجنه ، وتوجه الى المغرب ، حيث اتصل بالخليفة الفاطمي الإمام المعز لدين الله ، فعطف عليه ، وقربه ، وأفرد له مكاناً بين مستشاريه ، وهكذا ظلّ موضع رعايته حتى تمّ له فتح مصر ، وعندما انتقل الى القاهرة كان يعقوب معه ، وتفسّر بعض المصادر أنه منذ أن كان في خدمة كافور الاخشيدي بمصر كان على اتصال بالفاطميين في المغرب ، يرودهم بكل شاردة وواردة عن أحوال مصر الداخلية والخارجية ، وهناك من يقول ويذهب الى أبعد من ذلك بأنه تجنّد لخدمة الفاطميين منذ أن كان في بغداد .

هذا ومن الجدير بالذكر أن الإمام المعز لدين الله بعد أن استقر في مصر عين ابن كلثوم وزيراً على الخراج والحسبة وشؤون الأموال ، فأظهر نشاطاً وخبرة لفتت الأنظار بسرعة ، واكتسب ثقة الناس والخليفة معاً ، مما جعله يوليه أخيراً أمر النظر في كل شؤون الدولة . فأصبح الوزير الأول .

وبعد وفاة الخليفة المعز لدين الله تسلم العزيز بالله شؤون الخلافة ، فقرب يعقوب وضاعف ثقته به ، وكان قد وصل الى درجة عالية في دراساته الاسلامية وخاصة الفقه الجعفري الفاطمي الذي أولاه اهتماماً وكرس له جهوده حتى أصبح فيه من الأعلام المرموقين .

وفي سنة ٣٧٣ هـ . سجنه الخليفة العزيز بالله في قصره ، وحظّر على كل الناس الاتصال به ولكن هذا الغضب لم يدم طويلاً ، فمعا عنه ، وأمر أن يحمل من قصره الى مقره الوزاري في احتفال مهيب تكريماً له ، وبعد أن ثبتت براءته من تهمة قتل القائد التركي « أفتكين (١) » بالسّم .

ومهما يكن من أمر فإن عودة يعقوب الى منصبه الأول اعتبرت نجاحاً باهراً ونقطة انطلاق منها نحو المكانة والنفوذ والسلطان ، مما لفت الأنظار ، وجعل بعض المؤرخين يتبارون بمدحه كقولهم :

انه كان محباً للعلم وللعلماء ، وعطوفاً على الأدباء والشعراء ، ومشجعاً يندق عليهم المنح والمطايا دون عد أو حساب ثم يضيفون على قولهم :

بأنه كان يجمع في قصره العلماء والفقهاء ، ويمين فرق الكتاب لنسخ القرآن الكريم وبعضهم لنسخ كتب الفقه والقانون والحديث والأدب والفلسفة والطب ، وقد عين على مقربة منهم فرقة خاصة مهمتها التصحيح والمقابلة والضبط والتصويب لكل ما يكتبه الكتاب .

وكان في كل يوم ينصب خواناً لخاصته من أهل العلم والشعراء وخواص الأديباء ، كما رتب مجلساً آخر للفقهاء والمتعلمين ، وأهل الجدل وهذا بالإضافة إلى يوم مخصص في الأسبوع للقضاة ولأصحاب الحديث والنحاة حيث يقرأ عليهم مصنعاته ويناقشهم في مضمونها ، وهذه المجالس أشبه ما تكون بالمحاضرات التي تبرز في ختامها السؤالات والمناقشات . أما مجلس المناظرات بين المتعلمين وأهل الجدل ، فقد كان يعقد مرة في الشهر تحت إشرافه ، لأن جميع الطبقات ارتضوه حكماً فاصلاً بينهم .

ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن كلثوم بلغ في الفقه الجعفري الفاطمي درجة عالية أهله لان يؤلف الكتب والمراجع ، وقد ذكر أن عددها بلغ المائة ، ولكن هذا العدد الكبير من المؤلفات فقد ولم يبق منه إلا « الرسالة الوزيرية » في مختصر الفقه ، وبالنظر لأهمية هذه الرسالة فإن الخليفة الفاطمي « الظاهر لأعزاز دين الله » طلب إلى الدعاة والمستجيبين بأن يعمموا ويحفظوها عن ظهر قلب ، وإلى القضاة بأن يصدروا فتاويهم في الفقه والقانون بموجبها .

ويجب أن لا يغرب عن بالنا . . . بأن ابن كلثوم هو صاحب فكرة تحويل الجامع الأزهر إلى جامعة علمية ، وعندما حقق هذا المشروع رتب للعلماء وللمدرسين الرواتب والأرزاق ، حتى أن الطلاب الذين كانوا يأتون للدراسة نالهم الكثير من منعه وعطاياها ، وكل هذا يؤكد رعايته للعلم وتشجيعه العلماء لدرجة أن سوق الأدب والثقافة راج في عهده وازدهر ، وأصبح حديث الناس خارج البلاد المصرية .

توفي يعقوب بن كلثوم في القاهرة سنة ٣٩٤ هـ (٢) ، ودفن في دار العلم ، وذكر أن الخليفة الفاطمي العزيز بالله عادة في مرضه ، وله قول مأثور عند تلقيه خبر موته : « وددت لو أنه يباع فابتاعه بسالي ، أو ينفدى فافتديه بولدي » .

وذكرت المصادر التاريخية :

أن الناس عند وفاة يعقوب بن كلثوم تجمعوا من كل حذب وصوب لتوديعه الوداع الأخير ، وعند التشييع خرج الخليفة العزيز بالله من قصره بغير موكب ولا مظلة ، ومشى في جعازته كأي فرد ، والناس من حوله ، وكان الحزن يبدو عليه ، والدموع تتساقط من عينيه ، وقد اعتكف في قصره لا يستقبل أحداً مدة ثلاثة أيام ، كما أنه لم يأكل على مائدته ، أو يحضرها من اعتاد حضورها . . . ومن الجدير بالذكر أن الناس أقاموا عند قبره مخيمات عديدة لمدة شهر كامل ، وكان يتقدم الشعراء إلى قبره في كل يوم لرثائه وتمنيد مأثره ، وقيل أن عددهم تجاوز مائة شاعر ، وكل هذا يدل على مكانته في نفس الخليفة ، وفي نفس الشعب الذي أحبه وقدره .

ومهما يكن من أمر . . . فإن خدمات ابن كلثوم للدولة الفاطمية ، لا يمكن أن يحصيها قلم ، ويكفي أن يكون صاحب الرأي الأول بإعادة القائد جوهر الصقلي إلى القيادة العامة للجيش الفاطمي ، بعد أن كان قد أقصي عن القيادة العامة بمهد الإمام المعز لدين الله ، وبعد أن شعر بتضايف خطر قائد القرامطة « الحسن الأعصم » الذي

تحالف مع القائد التركي « أفتكين » ، وانتزعا العديد من ممتلكات الفاطميين في بلاد الشام ، وكان ذلك بدافع من العباسيين والحمدانيين .

ويجب أن لا يسهى عن البال بأن ابن كلثوم هو صاحب الرأي بادخال عناصر شرقية في الجيش الفاطمي لايجاد نوع من التوازن بالنسبة للجند المغاربة ، ومن جهة أخرى فإنه أدخل العديد من الأتراك بواسطة صهره « رشيق المزيري » التي تولى إحدى القيادات في الجيش الفاطمي ، ولعب دورا فعلا في حروب بلاد الشام .

ومن مبادئه الدالة على أخلاقه وإنسانيته تقريب الوزير « جعفر بن الفرات » ومساعدته على إعادة اعتباره لدى الفاطميين بعد أن كان يعتبر من أعدائهم ، وهذا الوزير كان قد سجن ابن كلثوم بعهده كافور الأحمدي كما ذكرنا ... وأخيرا زوّج ابنته إلى ابنه « الفضل بن الفرات » .

اشتهر ابن كلثوم بميله إلى الترف والاناقة ، وارتداء الملابس الثمينة الفاخرة وكان في قصره خزائن خاصة لكسوته وتضم أفخر الثياب وخاصة ما كان منها مخصصا للحفلات وللاستقبال وللأعياد ، وكان لها ناظر يشرف عليها .

واشتهر أيضا إلى جانب ذلك بعبه للعمران ، وشق الشوارع ، وإقامة الملاعب ، والساحات والحدائق العامة ، والمساكن العائدة للدولة وخاصة المساجد . أما قصره فقد جعله ينافس قصر الخليفة بما فيه من الرياش الفاخرة ، وخزائن الكسوة والأموال والكتب ، وكان مقسما إلى عدد من الأقسام وكل قسم عليه ناظر يشرف عليه ، فهناك المكتبة والكسوة ومكان الطعام والمناخ ، وغير ذلك ، كما أنه أقام حرسا خاصا به بلغ أربعة آلاف ، وأكثرهم من العبيد والمماليك وكانوا يطلقون عليهم اسم « الوزيرية » ، وبالإضافة إلى ذلك كان يوجد في قصره العديد من العبيد والمماليك والحجاب والجواري والأطباء والمرضى الذين أنيط بهم مهمة الكشف عن الأمراض ، ومداواة من يمرض من هذا الحشد الهائل من الناس . ويضاف إلى كل هؤلاء الكتاب والشعراء والمتكلمين وأصحاب المهن والصنائع الذين كان لكل منهم مكان منفرد خاص به ، كما أقيم في قصره عدد من المطابخ لطهي طعام العمال والحراس ، وهذا علاوة على المطابخ الخاصة لخدمته ، وخدمة جلسائه وضيوفه وخواصه . وفي شهر رمضان كان يقيم مأدب الإفطار للفقهاء وللشيوخ وللوجوه وأهل الستر والتعفف وجماعات الفقراء والموزين .

ومهما يكن من أمر ... فإن يعقوب بن كلثوم ترك ثروة طائلة بمده ، ضياعا وعيضا وأواني من الذهب والجوهر والفضة والثياب والخيول والابل والفضال وخزائن التحف ، وقد قدرت بأربعة ملايين دينار ، ولكن لا بد من التساؤل لمن ترك ابن كلثوم هذه الثروة ؟ فالتاريخ يذكر أنه لم ينجب من الأولاد سوى ابنتين ، زوّج أحدهما إلى « فضل بن الفرات » ، والثانية إلى « رشيق المزيري » وذكر أن قصره تحول إلى ما يشبه المتحف بعد وفاته ، كما أن مكتبته نقلت إلى مكان آخر ... وكان قصره يقع في حارة « الوزيرية » إلى الجنوب الغربي من القصر الصغير على مقربة من باب الفرج على

الخليج ، وكان أشبه ما يكون بمدينة قائمة بذاتها ، ففيها كل ما يتطلبه الانسان ، ومن الجدير بالذكر ٠٠٠ أنه كان يقيم في هذا القصر بجناح خاص أعدده لنفسه ، وفي هذا الجناح كان يجتمع مع كل من له حاجة ، أو يريد عرض مطالبه ، أو الاستماع الى الدروس .

أجل ٠٠٠ كان ابن كلثوم يمتلك طاقة كبرى من الذكاء والمبقرية والخبرة العالمية في الشؤون المالية والاقتصادية والادارية ، ومتضلعا بمعرفة أحوال الريف والزراعة والري وأنواع الفلال والبذار الصالحة ، وقد ذكر أنه أفاد مصر الزراعية كثيرا ، ولم يسأل عن قضية الا وأجاب عنها بمعرفة ويقين وعلم ودراية ، وفي المجال الاقتصادي فإن الديار المصرية بمهده نمت بالهدوم والازدهار الاقتصادي والمالي ، فامتلات خزائن الدولة بالشروات ، ولكن في سنة ٣٧٣ هـ ظهرت بوادر الفلام والمجاعة بسبب انخفاض نهر النيل ، وفي تلك الفترة كان ابن كلثوم محجورا عليه كما ذكرنا ، وعند اشتداد الازمة افتقد الخليفة العزيز بالله الوزير العلامه ولم يجد في جميع أنحاء الدولة من يسد فراغه بانقاذ البلاد مما هي عليه ، وعندما صدر بيان بتهربته من التهمة ، عاد الى وظيفته ، وشمر عن ساعد الجدة ، وفي وقت قصير وجد العلاج الناجع ، وتمكن من انقاذ البلاد وارجاع الأمور الى نصابها ، فمظمت مكانته ، وأقبلت عليه الدنيا من جديد ، وظل قائما بخدماته حتى وفاته .

المصادر الفاطمية تجمع على القول : بأن ابن كلثوم كان مسلما عن يقين وإيمان وحقيقة ، وأنه كان متمسكا بأهداب الدين يطبق قواعد الاسلام وأصوله وأحكامه ، وكان مختصا ومعتنقا للفقه لجعفري ، وقد مر معنا أنه ألّف فرقة في الأزهر من المدرسين والفقهاء لتدريس هذه المادة ، وتعتبر الرسالة الوزيرية المصدر الاول والأساس لأحكام هذه المادة ، ويجب أن لا ننسى أنه وفد على مصر بمهده عدد من العلماء من جميع أقطار العالم الاسلامي ، فاقاموا في مصر للدرس وللتحصيل ، وأجرى ابن كلثوم عليهم الرواتب والأرزاق ومنهم :

أبو عبدالله بن محمد بن جعفر التميمي المغربي المعروف « بالقزاز » القيرواني النحوي ، وكان يحمل لقب شيخ اللغة العربية في المغرب . ويقولون عنه .

« ان القزاز فضح المتقدمين وقطع السنة المتأخرين » .

ومنهم : الحسين بن عبدالرحيم « الزلازلي » مؤلف كتاب « أنواع الأسجاع » والتميمي « الطبيب » والبديهي الذي أخذ عنه ابن كلثوم علم العروض .

قال أبو حيان التوحيدي : سألت التميمي الشاعر المصري عن ابن كلثوم فقال :

ذاك رجل ضيافة ٠٠ له زوار كالقطر ، يعطي على القصد والتأميل والطبع والطلب وليس عنده امتحان فالراحل شاكر .

ومن الشعراء الذين خصهم برعايته أبو الرقعمق الشاعر الفكه الذي قدم مصر ونال
رفده ، والإنطاكي ، والرسي ، وغيرهم شعراء عدة حظوا بمثل هذه الرعاية .

وخلاصة القول :

أن الوزير ابن كلّس كان مثلاً أعلى في الاخلاص للدولة الفاطمية الفتية ، وكان
كريم اليد جزيل العطاء محسناً للناس ومحباً لعمل الخير ، وإذا علمنا أن مائة شاعر
وقفوا على قبره ورثوه ، أدركنا منزلته ، ومن المؤسف أن قصائدهم فقدت ، ولم يبق
إلا هذه الابيات للشاعر أبو الرقعمق :

لم يدع للعزیز في سائر الار	ض عدواً الا واحمد ناره
وهذا اجتباہ دون سواء	واصفياه لنفسه واختاره
لم تشيّد له الوزارة مجدداً	لا ولا قيل رفعت مقداره
بل كساها وقد تغرّمها الدهر	وكر الغطوب بالبذل غاره
هكذا كل فاضل يده تسمي	وتضحي نفاعه ضراره
فاستجره فليس يأمن الا	من تقياً بظله واستجاره

في نهاية المطاف لا بد من القول :

أن ابن كلّس سهر على الحياة الاقتصادية لمصر ، ووضع العديد من الأسس التي
سارت عليها الدولة في سياستها الداخلية خصوصاً في النواحي الاقتصادية ، وقد تجلت
خبرته بها منذ أن كان قائماً بخدمة كافور الإخشيدي ، ويجب أن لا يغرب عن بالنا بأنه
شجع أصحاب رؤوس الأموال وذوي اليسار والتجار بالحضور الى مصر واستثمار أموالهم
فيها ، وإلى جانب الرخاء الاقتصادي عمّم الأمن والاستقرار وانتشر العدل وانفتحت
مصر على العالم ، وانتظمت المواصلات والاتصالات والبريد .

ويذكر التاريخ الفاطمي :

أنه لم يكن في البلاد الاسلامية دار للكتب أعظم من التي كانت في القصر الفاطمي ،
ومن الجدير بالذكر أنه كان فيها ألف ومائتان نسخة من تاريخ الطبري وحده ، وذكر أنها
كانت تشتمل على مليون وستمائة ألف كتاب ، ويؤكد ذلك ما ذكره القاضي الفاضل
عبدالرحيم بن علي ، بأنه لمّا أنشأ المدرسة الفاضلية في القاهرة جعل فيها مائة ألف مجلد
كلها نُهبت من القصور الفاطمية .

لقد كانت تلك المكتبة العامرة وأمثالها سبباً للنهضة العلمية والأدبية التي تلاّلت
في المهد الفاطمي والتي استمرت آثارها في الدولة الأيوبية .
ولكن مما يؤسف له أن القضاء على الدولة الفاطمية قد رافقه عبث الأيدي الجاهلة
بتلك المكتبة .

لعلّ كلمتنا جاءت كافية للتعريف بالوزير يعقوب بن كلّس ، ووصف سيرة حياته
وما قام به من أعمال في حياته الحافلة بالنشاط والوطنية والاخلاص .

□ مصادر البحث :

- تاريخ الدولة الفاطمية : حسن ابراهيم حسن
- المعز لدين الله : حسن ابراهيم حسن وطه احمد شرف
- كنوز الفاطميين : زكي محمد
- تاريخ جوهر الصقلي : علي ابراهيم حسن
- في ادب مصر الفاطمية : محمد كامل حسين
- مصر في عهد الدولة الفاطمية : محمد جمال سرور
- مجموعة الوثائق الفاطمية : جمال الدين الشيبال
- نظم الفاطميين في مصر : عبد المنعم ماجد
- نظم الحكم في مصر الفاطميين : مصطفى عطية مشرفة
- عبقورية الفاطميين : محمد حسن الاعظمي
- نظام الوزارة في العصر الفاطمي : جمال الدين الشيبال
- اهل اللمة في العصر الفاطمي : جمال الدين الشيبال



□ العواشي :

- ١ - قائد تركي لعب دورا كبيرا في حروبه التي خاضها ضد الفاطميين في ديار الشام ، وخاصة عندما انضم الى القرامطة اتباع « الحسن الاعصم » ، وفي معركة « الرملة » انتصر عليهما الخليفة العزيز وقائده « جوهر الصقلي » فقبضاه عليه .. وساقاه الى القاهرة بحيث اكرمته العزيز بالله ، ومعه دمه وعواطفه وسمح له بالقامة في القاهرة معززا مكرما .
- ٢ - الصحيح انه مات عام ٣٨٠ كما ورد في شذرات الذهب وغيره والعزيز الفاطمي توفي عام ٣٨٦ وهكذا يمتنع وفاة ابن كلس في سنة ٣٩٤ (ع ي) .



الحياة الفكرية في العصر المملوكي

د. صادق آئينهوند

□ ظهور دولة المماليك :

بعد سقوط الدولة الفاطمية وقيام دولة الأيوبيين في مصر ، عجل التنافس والصراع على العرش في أواخرها زوال هذه الدولة التي انتهت في أواسط القرن السابع الهجري (٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م) لتقوم مكانها دولة المماليك بسبب أن « شجرة الدر » أم خليل - التي كانت في الأصل جارية - زوجة الملك الأيوبي الأخير ، الملك نجم الدين الصالح تزوجت بعد وفاته عز الدين أيبك أحد أمراء المماليك الذي أسس الدولة الجديدة (١) .

□ دولة المماليك :

المماليك هم الأرقاء البيض ومنهم التركي والمغولي والصيني والألماني والروسي والشركسي والأرمني الى غير ذلك .

وهم الذين اشتروا تجار الرقيق وأتوا بهم الى مصر والشام وغيرها ، فكان الأغنياء والأمراء والسلطين يكثر من هؤلاء الأرقاء ليكونوا لهم سنداً يعتمدون عليه في تقوية مراكزهم (٢) .

يرجع ظهور المماليك في العالم الاسلامي الى ما قبل قيام دولتهم بأمد طويل فقد كان الخليفة العباسي ، المأمون (١٩٨-٢١٨ هـ) هو أول من استخدمهم (٣) ، ثم استخدمهم الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨-٢٢٧ هـ) وكان من جراء ذلك أن تسلط الجيش المملوكي على الدولة والخلفاء العباسيين (٤) .

واستمر الحال على ذلك حتى شهدت السنوات الأخيرة من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) والنصف الأول من القرن السابع (الثالث عشر الميلادي) ازدياد نفوذ المماليك في مختلف الإمارات والدول الاسلامية في الشرق الأدنى (٥) .

درج المؤرخون على تقسيم المماليك الذين استمرت دولتهم ثلاثة قرون الى طبقتين : بحرية وبرجية ، أما البحرية ، منهم وهم ممالك الدولة الاولى ، فالمرجح أن سبب تسميتهم ترجع الى اختيار الصالح نجم الدين ، جزيرة الروضة في بحر النيل مركزاً لهم (٦) . قال المقرئزي : « والمملك الصالح هو الذي أنشأ المماليك البحرية بديار مصر ، وذلك أنه لما مر به ما مر ذكره في الليلة التي زال عنه ملكه بفرق الأكراد وغيرهم من المعسكر عنه حتى لم يثبت معه سوى مماليكه رعى لهم ذلك ، فلما استولى على ملك مصر أكثر من المماليك وجعلهم معظم عسكره ٥٠٠ فصاروا بطانته المحيطين بدهليزه ، وسامه البحرية لسكناهم معه في قلعة الروضة على بحر النيل (٧) » .

□ المماليك البرجية :

وقد انتهت الدولة الاولى - دولة المماليك البحرية ، التي ذكرنا أنها تأسست لما استولت شجرة الدر على السلطنة (٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م) وكان انتهائها بموت السلطان الملك الصالح صلاح الدين حاجي سنة (٧٨٤ هـ - ١٢٨٢ م) بعد أن عاشت ما يقرب من قرن ونصف القرن ، تولى الخدم فيها خمسة وعشرون سلطاناً منهم من لم يتول السلطنة الا بضعة أيام ، او بضعة شهور ، ومنهم من طالت مدة سلطنته واستقرت سنوات طولاً (٨) . لتقوم مكانها دولة المماليك الثانية ، المعروفة بدولة المماليك البرجية بتولي السلطان الظاهر بريق ، الذي كان هو ومن تلوه يسكنون القلعة بجبل المقطم - وهو ما أعطاهم اسم : « البرجية » - وينسبوا نسلهم الى قلاوون وأبنائه وأحفاده (٩) .

□ الحركة العلمية :

ازدهرت الحركة العلمية في عصر السلاطين ازدهاراً واسماً ، فعدت البلاد محوراً لنشاط علمي متعدد الاطراف . ويرجع السبب في ذلك الى ما أصاب أنحاء العالم الاسلامي في المراق على أيدي المغول وفي الأندلس على أيدي الصليبيين من خراب ومحن ودمار ، فضلاً عما أصاب بلاد الشام ، من أضرار على أيدي الصليبيين والمغول جميعاً (١٠) ، فكان من حظ مصر وبلاد المماليك التي ظلت بمنجاة من مثل تلك المصائب أن تفدو هي المجال الوحيد للنشاط الفكري والثقافي والفني بذل صلاح الدين ورجال دولته كل طاقة في انشاء المدارس ودور الحديث في مصر والشام ، واستدعى علماء السنة والفقهاء ، وأغراهم بالعضور وسار خلفاؤه على سنته ونهجوا نهجه . واستمرت سياسة المماليك في نشر مذاهب أهل السنة والتمكين لها في مصر والشام ببناء المدارس والمساجد الكبرى التي تنهض بهذا العبء (١١) .

واذا رجعنا الى حياتنا الفكرية والعلمية نجد أنفسنا خاضعين في تفكيرنا الى حد كبير ، للكتب المؤلفة في العهد المملوكي (١٢) .

وأما ما اعتري الأدب العربي من وهن ، دفع المختصين بالأدب الى اعتبار العصر المملوكي عصر انحطاط للأدب العربي ، فهو انحطاط نسبي ، لأن الأدب العربي مع

ما كان له من مركز مرموق في عهد المماليك - لم يكن اليضامي - بطبيعة الحال ، أدب العصر العباسي الذي شهد فيه الأدب العربي عصره الذهبي (١٣) .

وقد تميز العصر المملوكي بظهور « الموسوعات الكبرى » في الأدب ، والنحو ، وعلم الحديث ، والفقه ، والتاريخ . كما تميز أيضا بعدم التخصص ، فالمؤلف يكتب في شتى العلوم .

فالفقيه ابن مالك (محمد بن عبدالله الطائي الاندلسي الجبالي م ، ٦٧٢ هـ) وشروحه ، وكتب ابن هشام (جمال الدين عبدالله بن يوسف الانصاري م ، ٧٦١ هـ) : القطر والشذور ، والتوضيح ، ومغنى اللبيب ، هي مملوكية .

و « علوم البلاغة » : الماني والبدیع والبيان كلها ترجع الى متن التلخيص الذي وضعه جلال الدين القزويني الدمشقي ، (محمد بن عبدالرحمن م ، ٧٣٩ هـ) وهو مملوكي .

أما « معاجم اللغة » فأكثرها استعمالا وانتشارا هي ، لسان العرب لابن منظور (جمال الدين محمد بن يعقوب م ، ٨١٧ هـ) ومختار الصحاح .

وفي « الفقه الشافعي » يرجع المتفتقون الى كتب النووي (محيي الدين يحيى بن شرف النووي ، ٦٧٧ هـ) وخاصة المنهاج وشروحه ، ومختصره المنهج ، ومؤلفات السبكي (تقي الدين علي بن محمد م ، ٧٥٦ هـ) ومتن الزبد وشروحه .

أما « الكتب التاريخية » فأشهرها : وفيات الأعيان لابن خلكان (أحمد بن محمد م ، ٦٨١ هـ) ، فوات الوفيات وعيون التواريخ وكلاهما لابن شاکر الكتبي (محمد بن شاکر ابن أحمد م ، ٧٦٤ هـ) ، البداية والنهاية لابن كثير (علاء الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير م ، ٧٧٤ هـ) ، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (يوسف بن تغري م ، ٨٧٤ هـ) ، السلوك للمقريزي (تقي الدين أبي العباس م ، ٨٨٥ هـ) ، المختصر في أخبار البشر ، للملك أبي الفداء ، اسماعيل بن علي الأيوبي (م ، ٧٣٢ هـ) التتمة لابن الوردي (زين الدين عمر بن مظفر المعري م ، ٧٤٩ هـ) ، وتاريخ ابن خلدون .

وفي « الثقافة العامة » : مقدمة ابن خلدون (ولي الدين أبي زيد عبدالرحمن ابن محمد م ٨٠٨ هـ) ، نهاية الارب للنويري ، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن عبد الوهاب (م ، ٧٣٢ هـ) ، صبح الأعشى للقلقشندي ، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي م ، ٨٢١ هـ) (١٤) .

استمرت الحركة العلمية في عهد المماليك لأنهم على الرغم من بعدهم عن المروبة كانوا يؤمنون بالاسلام ، ويخلصون له ، ويهتمون لعلومه وآدابه ولفته ، وقد أبقوا لتسا مدارس كثيرة في الشام ومصر والحجاز ما تزال شاهدة على حرصهم الشديد على نشر العلم وتعميمه . ولم يخل عصر أحدهم من تشييد مدرسة ، أو بناء جامع فيه مدرسة ، أو خزانة كتب ، أو تأسيس كتاب للأطفال ، أو دار قرآن للاهتمام ، أو دار حديث للطلاب (١٥) .

والغريب أن الممالك - وهم من أصول متعددة غير عربية - كان لهم أثر واضح في ازدهار النشاط العلمي في مصر . من ذلك ما نسمعه عن ولع بعض السلاطين - مثل الظاهر بيبرس - بسماع التاريخ ، وحرص البعض الآخر على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلمة وحضورها (١٦) .

إن هؤلاء السلاطين والأمراء كانت فيهم غيرة على الدين ، واندفاع إلى الذود عن أهله ، ورغبة في إقرار كريم العيش والرعاية للمؤلفين والعلماء ، وإن العلم والأدب والعربية قد أفادت من هذه الرعاية فوائد جمة (١٧) .

ولما كان الغالب على المعصر التعليم الديني السني ، فقد تصدرت علوم القرآن والتفسير والحديث ، ثم الفقه والأصول وكل ما يتصل بأمور الدين والشرع .

وكان الاهتمام بهذه العلوم امتداداً لاهتمام الأيوبيين بها ، ونبع فيها جماعة من المشاهير المتقدمين (١٨) :

- فني «علوم القرآن والتفسير والفقه» : عز الدين بن عبد السلام (٥٧٧-٦٦٠ هـ) .
- ابن النقيب ، جمال الدين محمد بن سليمان (توفي سنة ٦٩٨ هـ) .
- الكواشي ، موفق الدين أبو المباس أحمد بن يوسف (٥٩٠-٦٨٠ هـ) .
- ابن كثير العالم المؤرخ الفقيه الدمشقي . (حدود ٧٠٠-٧٧٤ هـ) .
- الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر (٧٣٥-٧٩٤ هـ) .
- القسطلاني قطب الدين ، محمد بن أحمد بن علي (٦١٤-٦٨٦ هـ) .
- القسطلاني تاج الدين أبو الحسين علي بن أحمد بن علي أخو قطب الدين (٥٨٨-٦٦٥ هـ) .
- القسطلاني شرف الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن علي بن العلامة قطب الدين (ولد سنة ٦٤٨ هـ) .
- الديماطي ، شرف الدين عبد المؤمن بن خلف ، الحافظ العلامة النسابة المشهور (ولد سنة ٦١٣ هـ) .
- الجعبري ، برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن مضاد بن شذاد (توفي سنة ٦٨٧ هـ) .
- الحافظ عبد الغني المقدسي (٦٥٦-٧١٠ هـ) .
- الباجي علي بن محمد بن الخطاب (٦٣١-٧١٤ هـ) .
- ابن منير الحلبي المصري ، عبد الكريم بن عبد النور (توفي سنة ٧٣٥ هـ) .
- ابن قايماز الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان (ولد سنة ٦٧٣-٧٤٨ هـ) .



- مغلطاي بن قليج بن عبدالله البكجري (٦٨٠-٧٦٢ هـ) .
 - الحافظ العراقي ، عبدالرحيم بن الحسين (٧٢٥-٨٠٦ هـ) .
 - البرزالي ، القاسم بن محمد بن يوسف الاشبيلي الاصل (توفي سنة ٧٣٩ هـ) .
 - القيسراني ، فتح الدين ، أبو محمد عبدالله بن عز الدين (توفي سنة ٥٠٧ هـ) .
 - الحافظ المزي ، يوسف بن الزكي بن عبدالرحمن (٦٥٤-٧٤٢ هـ) .
 - معيي الدين النووي ، يحيى بن شرف الدين (توفي سنة ٦٧٧ هـ) .
 - ابن بنت الاعز ، عبدالوهاب بن خلف قاضي القضاة بالديار المصرية (توفي سنة ٦٩٥ هـ) .
 - ابن الرفعة ، نجم الدين أحمد بن محمد بن علي المصري الشافعي (ولد سنة ٦٤٥ هـ) .
 - ابن جماعة ، عز الدين بن بدر الدين (توفي سنة ٧٦٧ هـ) .
 - ابن دقيق العيد ، تقي الدين محمد بن مجد الدين علي بن وهب المنفلوطي (ولد سنة ٦٥٢-٧١٢ هـ) .
 - ابن سيد الناس ، أبو الفتح فتح الدين محمد بن محمد اليميري (٦٧١-٧٣٤ هـ) .
 - زين الدين السبكي ، أبو محمد عبدالكافي بن ضياء الدين (توفي سنة ٧٣٥ هـ) .
 - تقي الدين السبكي ، علي بن عبدالكافي بن زين الدين (٦٧٣-٧٥٦ هـ) .
 - بهاء الدين السبكي ، أبو حامد ، أحمد بن علي عبدالكافي (٧١٩-٧٦٣ هـ) .
 - تاج الدين السبكي ، أبو نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي (٧٢٧-٧٧١ هـ) .
 - جمال الدين الحسين السبكي ابن تقي الدين (٧٢٢-٧٥٥ هـ) .
 - صدر الدين بن ضياء الدين (توفي سنة ٧١٥ هـ) .
 - صدر الدين يحيى بن ضياء الدين (توفي سنة ٧٢٥ هـ) .
 - بهاء الدين أبو البقاء ، محمد السبكي (٧٢٧-٧٧٧ هـ) .
 - تقي الدين أبو الفتح محمد السبكي (٧٠٤-٧٤٤ هـ) .
 - ولي الدين عبدالله بن بهاء الدين محمد بن عبدالبر السبكي (٧٣٥-٧٨٥ هـ) .
 - بدر الدين السبكي محمد بن بهاء الدين (٧٤١-٨٠٣ هـ) .
- ومن فقهاء الشام المملوكيين في هذا العصر :**
- نجم الدين بن مصري (٦٥٥-٧٢٣ هـ) .



- ابن تيمية (توفي سنة ٦٥٢ هـ) .
- البارزي نجم الدين عبدالرحيم بن ابراهيم (توفي سنة ٧٣٨ هـ) .
- ابن قيم الجوزية (توفي سنة ٧٥١ هـ) .
- علام الدين القونوي ، علي بن اسماعيل الشافعي .
- ابن كثير .
- ابن الأذري ضياء الدين أبو الحسن علي بن سليمان الشافعي (٦٤٦-٧٣١ هـ) .
- الأذري ، شهاب الدين أحمد بن حمدان (توفي سنة ٧٨٣ هـ) .

□ العلوم الانسانية :

أ - المؤرخون

- يوسف قز أوغلي بن عبدالله البغدادي ثم الدمشقي الحنفي ، المعروف ببسط ابن الجوزي (٥٩٧-٦٥٤ هـ) .
- ابن الساعي ، علي بن أنجب (توفي سنة ٦٧٤ هـ) .
- أبو الفداء ، الملك المؤيد ، اسماعيل بن الأفضل علي بن الملك المظفر محمود الأيوبي (٦٧٢-٧٣٢ هـ) .
- ابن الفوطي ، عبدالرزاق بن أحمد بن محمد المروزي الأصل ، البغدادي (٦٤٢-٧٢٢ هـ) .
- ابن الوردي ، عمر بن مظفر بن عمر (٦٩١-٧٤٩ هـ) .
- ابن الجوزي ، شمس الدين محمد بن ابراهيم (توفي سنة ٧٣٩ هـ) .
- ابن كثير ، اسماعيل بن عمر المفسر صاحب التواريخ (٧٠٠-٧٧٤ هـ) .
- شهاب الدين بن فضل الله العمري (توفي سنة ٧٤٩ هـ) .
- شهاب الدين النويري ، أحمد بن عبدالوهاب (٦٧٧-٧٣٣ هـ) .
- أبو شامة عبدالرحمن بن اسماعيل (توفي سنة ٦٦٥ هـ) .
- ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (توفي سنة ٦٩٧ هـ) .
- ابن منبر الحنفي ، قطب الدين عبدالكريم بن عبدالنور بن منبر (توفي سنة ٧٣٥ هـ) .
- الدوادار بيبس بن عبدالله المنصوري (توفي سنة ٧٢٥ هـ) .
- الأذفوي ، جعفر بن ثعلب (توفي سنة ٧٤٨ هـ) .
- كمال الدين بن المديم عمر بن أحمد بن هبة الله (توفي سنة ٦٦٦ هـ) .
- المقفطي ، جمال الدين بن يوسف (توفي سنة ٦٤٦ هـ) .
- ابن أبي شهبه .
- ابن حجر المسقلاني (توفي سنة ٨٥٢ هـ) .

ب - النحاة

- ابن العاجب ، عثمان بن عمر (توفي سنة ٦٤٦ هـ) .
- ابن النحاس ، بهاء الدين محمد بن ابراهيم بن محمد بن أبي نصر (ولد سنة ٦٧٢ هـ) .
- ابن مكتوم ، أحمد بن عبدالقادر (ولد سنة ٦٦٢ هـ) .
- أبو حيان ، أثير الدين محمد بن يوسف بن علي ، الفرناطي (٦٥٤-٧٤٥ هـ) .
- ابن المرحل ، شهاب الدين عبداللطيف بن عبدالعزيز أبو الفرج المحقق النحوي المصري (توفي سنة ٧٤٤ هـ) .
- ابن هشام ، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري ، الحنبلي النحوي (٧٠٢ - ٧٦١ هـ) .
- ابن عقيل ، عبدالله بن عبدالرحمن بن عقيل (توفي سنة ٧٦٩ هـ) .
- أحمد بن أبي بكر (توفي سنة ٧٢١ هـ) .
- المازني ، محيي الدين بن محمد بن عبدالعزيز .
- ابن الجزري ، شمس الدين .
- ابن مالك ، جمال الدين محمد بن عبدالله (٦٠٠-٦٨٦ هـ) .
- بدر الدين بن مالك ، المعروف بابن المصنف .
- ابن عصفور ، علي بن مؤمن بن محمد ، الاشبيلي الاصل (٥٩٧-٦٦٩ هـ) .

ج - علماء اللغة

- الصاغاني ، الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر الفقيه الحنفي اللغوي (توفي سنة ٦٥٠ هـ) .
- ابن الصائغ ، شمس الدين محمد بن الحسن بن سباع الجذامي المصري الدمشقي (٦٤٥-٧٢٠ هـ) .
- ابن منظور ، محمد بن مكرم بن علي الافريقي المصري (٦٣٠-٧١١ هـ) .

د - الفلاسفة والمتكلمون

- نصير الدين الطوسي ، محمد بن الحسن الفيلسوف ، عالم الرياضيات والطبيعات الفارسي (توفي سنة ٦٧٢ هـ) .
- عضد الدين الأيجي ، عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالغفار (توفي سنة ٧٥٦ هـ) .
- سعد الدين التفتازاني ، مسمود بن عمر (توفي سنة ٧٩١ هـ) .
- شمس الدين الكرماني ، ابن يوسف (توفي سنة ٧٨٦ هـ) .
- قطب الدين الشيرازي ، محمود بن مسمود الفارسي الاصل (٦٣٤-٧١٠ هـ) .
- محمد بن أبي بكر السنجاري الكلاباذي (٦٧٥-٧٢١ هـ) .

□ المصادر :

- ١ - تاريخ المماليك البحرية ، للدكتور علي ابراهيم حسن (القاهرة ، مكتبة النهضة العربية ، ١٩٦٧) .
- ٢ - الادب في العصر المملوكي ، للدكتور محمد سعد زغلول (القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٠) .
- ٣ - الموجز في تاريخ الدول الاسلامية ومعهدها في بلادنا فلسطين ، لمصطفى مراد الدباغ (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٨١) .
- ٤ - ولادة دمشق في عهد المماليك ، لمحمد احمد دهمان (دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٤) .
- ٥ - مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، (بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٠) .
- ٦ - اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، لمحمد بن طولون الصالحي الدمشقي ، تحقيق محمد احمد دهمان (دمشق ، دار احسان ، ١٩٨٥) .
- ٧ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، لاكم حسن العلبي (دمشق ، الشركة المتحدة للتوزيع ، ١٩٨٢) .
- ٨ - مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، للدكتور بكري شيخ امين (بيروت ، دار الافاق الجديدة ، ١٩٨٠) .
- ٩ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لابن تغري بردي (القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٣٧٥ هـ) .
- ١٠ - هوات الوفيات لابن شاکر الککبی ، تحقيق ، الدكتور احسان عباس (بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٣) .
- ١١ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، للمقريزي تحقيق ، مصطفى زيادة (مصر ، ١٩٤١) .
- ١٢ - حسن المعاصرة في اخبار مصر والقاهرة ، لجلال الدين السيوطي (مصر ، ١٢٩٩ هـ) .
- ١٣ - شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، لابن العماد العنبري (بيروت ، دار الافاق الجديدة) .
- ١٤ - الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ، لابن حجر المصقلاني (حيدر آباد ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٤٥-١٩٥٠ م) .
- ١٥ - البدر الطالع بمعاصر من بعد القرن السابع ، للقاضي محمد بن علي الشوكاني (بيروت ، دار المعرفة ، ١٣٤٨ هـ) .
- ١٦ - البداية والنهاية في التاريخ ، لابن كثير (مصر ، ١٣٥٨ هـ) .
- ١٧ - بدائع الزهور في وقائع الدهور ، لابن اياس محمد بن حمد العنفي ، تحقيق محمد مصطفى (مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣) .

□ العواشي :

- ١ - انظر : تاريخ المماليك البحرية ، للدكتور علي ابراهيم حسن ، ص ٢٢ . الادب في العصر المملوكي ، للدكتور محمد سعد زغلول ، ج ١ ، ص ١١٣ .
- ٢ - الموجز في تاريخ الدول الاسلامية ومعهدها في بلادنا فلسطين ، لمصطفى مراد الدباغ ، ج ١ ، ص ٣٧ .
- ٣ - تاريخ المماليك البحرية ، ص ٢٣ .
- ٤ - ولادة دمشق في عهد المماليك ، لمحمد احمد دهمان ، ص ٧ .
- ٥ - مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، ص ١٥٢ .
- ٦ - مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، ص ١٥٤ .
- ٧ - السلوك / ١ ، ص ٣٣٩ .
- ٨ - الادب في العصر المملوكي ، ص ١٩ - ١٨ .
- ٩ - المصدر نفسه ، ص ٤٨ .
- ١٠ - مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .
- ١١ - الادب في العصر المملوكي ج ١ ، ص ١٠٦ .
- ١٢ - اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، لمحمد بن طولون الصالحي الدمشقي ، تحقيق محمد احمد دهمان ، مقدمة ص ٥ .
- ١٣ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، لاكم حسن العلبي ، ص ١٥٩ .
- ١٤ - اعلام الورى ، ص ٥ - ٦ .
- ١٥ - مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني للدكتور بكري شيخ امين ، ص ٥٩ .
- ١٦ - مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، ص ٢٧٤ .
- ١٧ - مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، ص ٦٠ .
- ١٨ - الادب في العصر المملوكي ، ص ١٢٣ .

وهنا.. كما في العرب أيضاً

نهلة الحمصي

المعروف في علم الاجتماع أن الأمة (جماعة من الناس تجمعهم عناصر مشتركة) وأن كانوا ينتسبون في أصولهم البعيدة الموهلة في القدم إلى اقوام مختلفة ، غير أن وحدة اللغة والتراث الفكري والعيش المشترك بما فيه من آمال وآلام مشتركة يخلق لدى أفراد الأمة شعوراً بالانتماء إليها وتعلقاً بها ، ويجعلها بالتالي حقيقة اجتماعية وحضارية ، وكان جماعات الناس الذين ينتسبون إليها ، من أصل واحد بعد أن صهروا معاً بفعل عوامل البيشة والوراثية .

والتاريخ هو قصة الأمم ، يتحدث عن تمازج الأقوام والحضارات بما فيها من نظم ومعتقدات وعلوم وآداب وصناعات ...

ولقد امتازت الحضارات على مرّ العصور بقدرة عالية على الانتقال وراء حدود المجتمع الذي نشأت فيه في الأصل ، وكان ذلك الانتقال أو الانتشار نتيجة لاتصال الأمم (ذات الثقافات المختلفة والمعتقدات والتقاليد المتباينة) سواء أكان ذلك الاتصال عدائياً أم لأغراض سلمية ، وسواء أتم ذلك بطريقة مباشرة من خلال الغزو والحروب أم بطريقة غير مباشرة ...

ولهذا فإن التاريخ الانساني على سمته وحضاراته المتنوعة - متماسك الأجزاء متصل الحلقات ، تنتمي حلقاته الأولى إلى أقدم الأحقاب والعصور ، وكل حادثة تاريخية هي نتيجة لحادثة أقدم منها . وبين أحداث التاريخ الحاضرة والغابرة وشائج وأواصر ، والحاضر وليد الماضي ، يحمل في ثناياه وتضاعيفه بذور المستقبل ...

وانطلاقاً من حقائق التاريخ هذه فإن الانسان في أي مجتمع هو نتاج شخصيتين

اثنتين : شخصية الحاضر التي تشكلت في البيئة الخلقية والثقافية التي نشأ عليها ،
والشخصية القديمة - غير الشاعرة - التي انتقلت اليه بفعل تراث الأجداد ، وكانت
خلاصة لماضٍ طويل من الحضارات التي مرت على أرضه ...

لذلك فإن تصوير حضارة ما من خلال التاريخ ، وإيرادها في صفحات كتب التاريخ ،
صعب ومسير يتطلب عناية كبيرة ، وروية ، وموضوعية ، ونظرة واسعة الأفق ، نائية عن
التحامل والكرامية ، تورد الحقيقة كاملة غير منقوصة ، بعيدة عن التلفيق أو التلغيع
بالرداء الأسطوري ، تورد الحقائق ناصصة ، مأمونة ، من أجل خير الإنسانية وإبعادها عن
العنف والإرهاب اللذين يهددان اليوم الكرة الأرضية بأجمعها .

وكمثال للرواية التاريخية التي تبتمد عن الصواب ، تورد المستشرق زيفريد هونكة
في كتابها : (شمس العرب تسطع على الغرب) النص التاريخي التالي الذي يُدرس في
مدارس الغرب عن فتح العرب للأندلس : « وتدفت جموع العرب (المتوحشين) بوجوههم
السوداء وغيولهم الكثيبة فوق أرض إسبانيا التي تركها أهلها فرحاً ، وانشت الأرض
الما تحت وقع سناهاك خيولهم التي خربت الحقول » . هذا النص الذي يقرؤه أطفال
المدارس في الغرب عن فتح المسلمين للأندلس ، إضافة إلى نص يتحدث عما كان يمكن أن
يحدث لبلاد الغرب لو لم يهزم (شارل مارتل) العرب وينقذ أوربة من شرورهم ٩١ .

وتضيف الكاتبة : والواقع أن مثل هذه الجمل يتعلمها الأطفال ويحسبونها حقائق
لا تقبل الشك كما يعتقدون أن العرب ليسوا أصحاب حضارة وإنما هم وسطاء ، نقلوا
إلينا الحضارات القديمة فحسب .

وتنطلق الكاتبة في أقوالها هذه من إيمانها : (بأن من يعرف نفسه ويعرف
الآخرين لا بد له من أن يعرف أيضاً أن الشرق والغرب لا ينفصلان وأن العداء
الديني والتعصب الأعمى كانا أسوأ قاتل للشعوب حرماها من الحياة والازدهار) .

أما غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) فيورد هذه الفكرة ذاتها بأسلوب آخر
فيقول : ان معلوماتنا المدرسية تلح على أن اليونان واللاتين وحدهم منبع العلوم والآداب
في الزمن الماضي ، وفي هذا جعود وأي جعود لتأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة أوروبا .

لا شك أن التسليم بما جاء في صفحات التاريخ دون تمحيص ، وتلقين الخطأ للأولاد ،
يعلمهم الحق ويبنّي الكرامة بين الشعوب ، في وقت تحتاج فيه كرتنا الأرضية إلى الفهم
الصحيح للأمور ومقاومة الأخطار الماحقة التي تتهددها .

لقد قامت حروب طويلة منذ أقدم العصور ، وما تزال هذه الحروب حتى يومنا
الحاضر تشتمل هنا وهناك في العالم . وفي كل الحروب قتل المتحاربون بعضهم بعضاً ونهبوا
وخرّبوا - على اختلاف عروقهم ومستوى حضارتهم - وهذه طبيعة الحروب البشعة ،
ولكننا إذا اكتفين بهذا السرد فأننا نزيد من أوار البغضاء في العالم . ان علينا حين

نؤرخ أن نبدأ منذ أن ينتهي دور الحروب ويبدأ دور التنظيم فيحول المتعاربون نشاطهم الى ميدان التنظيم والبناء ، ويكون التمازج بين الحضارات والعروق .

ولا شك أن الحضارة التي تنشأ من اتصال الشعوب المختلفة ذات الصفات المتباينة تكون فيها الغلبة لصفات الشعوب الوافرة العدد ، غير أن تأثيراً مهماً ضؤل - للأقوام الأقل عدداً والأضعف حضارة - يبقى من جراء هذا الاتصال .

ومثل هذه الدراسة لحقائق التاريخ يجب أن توضع في سلسلة منطقية خاضعة لهدف نرسمي اليه في تأويلنا ، ألا وهو الكشف عن القيم الانسانية في الماضي ، والتي تتطلب الشرح والتأويل من أجل فهم الحاضر . . . وبهذا لا يعود التاريخ بمفهومه الحديث بحثاً عن الامتداد الزمني في الماضي بوصفه إطاراً لما وقع فيه من أحداث فحسب ، ولكنه يصبح كشفاً عن القيم الانسانية الحضارية التي تعقب هذه الأحداث وتعدد مدى تأثير العوامل التاريخية في التقدم الحضاري أو انحطاطه . . .

ولعل هذا التاريخ الناطق يبدو أحياناً في الآثار الماثلة التي تستوقف النظر بأشكالها الظاهرة وتبر عن رغائب الزمن الذي قامت به وعن مشاعره تعبيراً صادقاً ، مما يمكننا من الوقوف على أحوال القرون الغابرة أكثر مما نراه في صفحات كتب التاريخ ، ففي الآثار تتجلى روح الزمن وعبقريّة الأقاليم ، ويلسان هذه الآثار الصامتة تنطق أجيال من الأجداد راقدة في ثنايا العصور .

يقول غوستاف لوبون :

(إن الكهف الذي نعت في العصر الحجري أو المعبد المصري أو المسجد الاسلامي أو الفاس المصنوعة من الصوان أو السيف ذا المقبضين الفضل أحياناً لمعرفة التاريخ من أكاداس كتب البحث والجدل ، لأن هذه الآثار تتحدث بلسان صدق عما كانت عليه الأقاليم في الماضي .

ويمكن أن تباد أمة ، وأن تحرق كتبها ، ولكن تأثيرها في العجر يبقى قويا غالباً (لأن الإنسان لا يستطيع محوه ولا تكاد العصور تقدر عليه) .

وكخلاصة لما سبق فإن التاريخ الذي نود أن يكتب ويدرس للأولاد في الشرق أو الغرب هو التاريخ الذي يشير الى تمازج الحضارات الذي يعقب الفتوحات ، والذي يبدو في الفنون والآداب والنظم السياسية والاجتماعية التي تعبر عن احتياجات الشعوب ومشاعرهما وتبدو في معتقدات الأقاليم وفلسفتهم وعلومهم وآدابهم ، وفي نمط شعورهم وطرق تفكيرهم ، لأن العالم كله اليوم وحدة متصلة ولا يمكن للشرق أو الغرب إلا أن يتساندا ويتعصدا عن الكراهية والتمصب . . .

• أما الهدف من هذا الموضوع فهو التوصل الى كتابة (تاريخ العرب في أوربا) كما ينبغي أن يكتب بموضوعية . . .

★ ★ ★

مما لا شك فيه أن كثيراً من كتب التاريخ - في الشرق أو الغرب - قد خاضت في موضوع (العرب في أوروبا) جله أو بعضه ، ولكن مما لا شك فيه أيضاً أننا بحاجة إلى تاريخ موضوعي يجمع بين الروايات المختلفة - العربية الإسلامية والأوروبية المسيحية - وتمحيص ما جاء فيها وترتيبها ، ليصل القارئ إلى الحقيقة البينة الجلية للاطلاع على الواقع الصحيح لتمازج الحضارات وتأثير الأمم بعضها في بعض

والمل أول ما يخطر على البال هو تاريخ العرب في الأندلس أو في جزيرة صقلية . . . ففي صفحات التواريخ الكثيرة مما كتبه العرب والفرنجية عن حروب العرب المسلمين ومعاركهم مع الفوط والفاندال وعن حضارة العرب المسلمين التي سادت قروناً وما تزال آثارها شواهد صدق عليها، في هذه التواريخ الكثيرة ما يساعد على تقليب الروايات والتنسيق بين صحيحها وحذف المفروض منها أو الخاطيء أو الأسطوري للوصول إلى تاريخ يدرس ، مجرد عن التعصب لهؤلاء أو أولئك ، بعيد عن الغلظ والمغالطة .

ويحتاج الوصول إلى هذا التاريخ الصحيح إلى فهم أمور ينبغي الوقوف عندها حين تقليب صفحات ما أرخه المسلمون أو الغربيون .

أما بالنسبة للمؤرخين المسلمين في الأندلس فقد كتبوا عن الحوادث بعد انقضائها بزمان طويل فلم يكونوا معاصرين لها ، أما ما كتب عن هذه الأحداث في زمانها أو بعد مدة قصيرة فلم يكن مستوفياً لشروط التحقيق ، وأكثر هذه الأحداث رواها أصحابها شفاهاً وتناقلتها من ثم أفواه الرواة . . . وغير خاف أن العرب كانوا في ذلك الدور - دور الحماسة والمجد وأعلام شأن الدين - يمزجون الخيال بالواقع ويجمعون بين ما حدث فعلاً وبين ما كانوا يطمحون إلى حدوثه أو كان يجب أن يحدث حقاً .

وكان يشق على العرب كثرة الأعلام الأجنبية من أسماء الرجال والأماكن ، فقد كانت ثقيلة اللفظ على ألسنتهم ، كما أنه لم يكن من المألوف وضع الحركات على الأحرف . . . فكانت الأسماء تحرف . . . وكان النسخ أحياناً يؤدي إلى كثير من التصحيف . وهكذا ابتعدت كثير من الألفاظ عن أصلها ، مما جعلها مجهولة لدى القارئ الأجنبي .

ومع ذلك فالمستشرق دوزي الهولاندي يقول عن العرب المسلمين ما يلي : « إن العرب لم يكونوا يكتبون التاريخ في القرنين الأولين من استيلائهم على إسبانيا لأن العرب كانوا يعتمدون على الرواية الشفهية ويملكون قوة ذاكرة عجيبة ليس تضاهيها ذاكرة في حفظ الوقائع والسنين والأصنام والأنساب وذلك بدون ضياع أو تحريف ، وكان التاريخ يتناقله الأبناء عن الآباء ، وكان الذين يشتغلون بالكتابة قليلي العدد فلذلك ندرت الكتابة في التاريخ ، ومع هذا فقد وجدت كتب قليلة عن فتح الأندلس ، منها كتاب (أخبار مجموعة) في فتح الأندلس الذي لا يعرف مؤلفه والذي الحق بتاريخ ابن القوطية .

أما بالنسبة لدخول العرب الى فرنسا فقد اقتصر تاريخ العرب على الحكايات التاريخية بهذا الشأن ، أما دخولهم الى إيطاليا وسويسرا وجزر البحر الأبيض المتوسط فلم يتعرض لها المؤرخون العرب .

فإذا أردنا الحديث عن المؤرخين الغربيين فإننا نجدهم قد سجلوا تاريخ العرب في أوروبا في أشد الأزمنة على هذه البلاد وأحلّوها سواداً ، وفي وقت طفت فيه الأمية والجهل على أبناء الشعب واقتصر التعليم على رجال الدين والنسباء .

وكانت حكايات الغربيين لوقائع غارات العرب المسلمين على أوروبا متأخرة عن زمن حدوثها في القرن التاسع الميلادي ، ومن هذه الحكايات ما لم يتعرض للحديث فيها عن بعض الأحداث أصلاً فقد تجاهلها وكأنها لم تكن ، وركز على بعضها الآخر وأوردتها بشكل مبالغ فيه ، يضاف الى أن المؤرخين الغربيين خلطوا في تاريخهم ما بين (المجر) الذين جاؤوا من شرقي أوروبا ووصلوا الى إيطاليا وفرنسا وعاشوا فيهما فساداً وبين العرب الذين جاؤوا من بلاد اسبانيا ، كما أن أقواماً متعددة غزت أوروبا من بينها صقالبة و صربيين ومورافيين وبوهميين وقسم من أهالي بلاد اليونان ، وكان هؤلاء يقتتلون مع الأمم السكسونية والهونية ، وكان هؤلاء في حروب دائمة مع شارل مارتل وأولاده وأحفاده ... ولم تنقطع هذه الحروب حتى دخل الجرمان والسلاف في الدين المسيحي .

وكان من الأخطاء التاريخية لدى مؤرخي الغرب إطلاق كلمة (الساغازين) على المسلمين وتلقبهم بالوثنيين ، تلك الكلمة التي كانت تطلق على المسلمين وغيرهم ، وربما كانت كلمة (ساغازين) تعني شرقي ومنها جاءت الكلمة التي كانت تطلق على العرب (مراكينو) وقصد بها العرب الذين جاؤوا من آسيا ، وفي نعت المسلمين بالوثنيين بعد كبير عن الحقيقة فليس من بعيد عن الوثنية كالعرب ... وكان من نتيجة هذا أن عزا المؤرخون الغربيون الى المسلمين العرب أعمالاً لا يمكن أن يقوموا بها وليست منهم .

وكذلك كانت شهرة بعض ملوك الفرنجة كبيرة فنسبت اليهم أحداث وقعت قبل وجودهم أو بعد مجيئهم بقرون كما حدث لسيرة شارلمان التي نسبت اليها أحداث وقعت بعد قرنين أو ثلاثة من زمانه .

وكان القصاصون يضيفون الى الوقائع من خيالهم الشيء الكثير الذي لم يقع ، فيوردون الأحداث التي يودون لو وقعت ويضيفونها الى تاريخهم مظهرين الأجداد أبطالاً حرروا البلاد ، وطردوا الأعداء ، من ذلك أن أهالي جنوبي فرنسا لم يكونوا يحبون شارل مارتل لأن هؤلاء كانوا ينظرون اليه والى قومه كبرابرة من أهل الشمال ، بينما هم أمة ذات مدنية قديمة من زمان الرومانيين ، يضاف الى ذلك أن شارل مارتل لم يحرم الكنائس التي يتحدث تاريخ الغرب عن تهديم العرب لها ، بل على العكس فقد استباح شارل مارتل أموال الأديرة لتسليح جنده (وكان سارق أموال الكنائس) يتخذ من الدين وسيلة لمنع اتساع رقعة دولة العرب ، وفي ذلك تقول المستشرق هونكة : (إذا رجعنا بهدوء الى التاريخ نرى أن القيصر لودفيج عندما أراد أن يسجل أمجاد أجداده على

جدران القصر لم يجد في أعمال جده شارل مارتل ما يستحق التسجيل سوى انتصاره على القبائل الألمانية ٠٠٠ لقد كان هذا الامبراطور فاتحاً للبلاد التي ادعى تحريرها يعمل فيها سيفه وجنده أكثر مما يفعلها العرب .

أما قصة (رولان) بطل الأنشودة المعروفة باسمه وهي إحدى المقطوعات التي تتغنى بشارلمان (حفيد شارل مارتل) في القرن الحادي عشر عندما توجه لغزو اسبانيا ، وهناك قتل رولان في معركة وقعت عند جبال البرانس (البيرنه) أثناء تراجع الجيش الى فرنسا بيد سكان البلاد الأصليين ٠٠٠ فإن الأسطورة تنقل المعركة الى أرض أخرى وتجعل الأعداء هم العرب وتبالغ في اظهار شجاعة البطل ٠٠٠ وهذه الملحمة (ذات الأحداث المختلفة عن الحقيقة) انتشرت بشكل واسع في أوروبا وترجمت الى عدة لغات .

والى هذا فقد اعتمد المؤرخون الغربيون على ما كتبه رجال الكنيسة من القساوسة ، وأكثر ماورد فيها كان يخلط الوقائع بالدعاية .

كذلك ففي التواريخ الغربية تغير بين ذلك بجعل المتعاونين مع العرب المسلمين الفاتحين هم اليهود فحسب من سكان البلاد ، مع أنه مما لا شك فيه أن المسلمين قد وجدوا من الأهالي معاونين كثير ، في السر أو العلن ، وأولا تلك المساعدة والمساعدة لم يتيسر للعرب أن يقيموا في تلك البلاد القاصية البعيدة عن أرضهم وأوطانهم الأصلية ، ولكن المؤرخين لا يصرحون بذلك مكابرة واخفاء للواقع .

وهناك تاريخ اعتمد عليه المؤرخون الغربيون المحدثون بحجة أنه أفضل من سواه وهو (تواريخ القديس دينس ٠٠٠) ولكن هذه التواريخ كتبت في أواسط القرن الثاني عشر ، وقد حشر فيها كاتوبها كل الأساطير التي كانت تدور في ذلك الوقت ٠٠٠ ولهذا فأننا لا نجد تمحيصاً للتاريخ وتفريقاً بين الحقائق والأساطير .

ويمكننا بعد هذا الاستعراض الوصول الى حقيقة وهي : ان تاريخ العرب في اسبانيا وغيرها من دول أوروبا يحتاج الى اعادة نظروثمين جديد يعطي لكل حضارة قيمتها في روية وموضوعية وبعد عن التمسب وانكره .

★ ★ ★

واذا ما حاولنا أن نبحث عن أسباب الفتوح العربية في أوروبا فأننا نجد أن السبب الأول كان لنشر الدين رجاء ثواب هذا العمل المبرور عند الله ، فإن الاسلام يحث على الجهاد ويسمي كل من يقتل في سبيل الدعوة شهيداً ، والجهاد فريضة على كل مسلم ٠٠٠ وعلى كل مسلم أن يدعو غير المسلم الى الايمان قبل أن يجرد عليه الحسام ٠٠٠ وكان كثير من الأخرى يمتقون ، فإن تحرير رقبة هو أفضل ما يتقرب به المؤمن المسلم الى الله ٠٠٠ وكان الأسير الذي لا يُسلم يعمل في حرث الأرض أو رفع الأثقال ، أما اذا أسلم فكان يمتاز بالخدمة ويستعان به في المارك ، وكان المسلمون يتلقون الذين يدخلون بالدين الاسلامي بتسامح وقلب مفتوح ، فيوفرون لهم حظوظهم وأرزاقهم ٠٠٠ وهكذا دخل

عدد كبير من أهل البلاد في الاسلام وتسمنوا على الوظائف وتزوجوا من مسلمات ... وهذا ما حدث في اسبانيا ، وبذلك استطاع العرب والمسلمون أن يقوموا برسالة الحضارة ، يقول غوستاف لوبون : « في أقل من قرن استطاع العرب أن يعيدوا ميث الأرضين ويعمروا خرب المدن ويقيموا فخم المباني ويوطدوا ويطبق الصلات التجارية بالأمم الأخرى ، ثم شرعوا يتفرغون للدراسة العلوم والآداب ويترجمون كتب اليونان واللاتين وينشؤون الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في أوروبا زمناً طويلاً » .

« وأخذت حضارة العرب تنهض منذ ارتقاء عبدالرحمن العرش ، أي منذ انفصال اسبانية عن المشرق باعلان الخلافة في قرطبة في سنة (٧٥٦) فغدت قرطبة أرقى مدن العالم القديم مدة ثلاثة قرون .

والم يكد عبدالرحمن يقبض على زمام الحكم في اسبانية حتى أخذ يسمى لحمل العرب على اعتبار اسبانية وطناً حقيقياً لهم وأخذ ينفق دخل بيت المال في العمران وفي اصلاح البلاد بدلاً من انفاقه في الغزوات البعيدة .

وامتازت الحضارة بدماء من زمانه بميل العرب الشديد الى الفنون والآداب والعلوم وانشاء المدارس والمكتبات والمختبرات وترجمة الكتب ودراسة العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيميائية والطبية .

كذلك صار للعرب نشاطهم في الصناعة والتجارة ، فكانوا يصدرون منتجات المناجم ومعامل الأسلحة ومصانع النسيج والجلود والسكر الى افريقيا والشرق بواسطة تجار من اليهود والبربر ، كما غدت اسبانيا سوقاً هامة للبضائع الشرق وهمزة الوصل بين الشرق والغرب . وبرع العرب في الزراعة براعتهم في العلوم والصناعات ... وفي اسبانيا الحاضرة اليوم كثير من اعمال الري ما تزال مستعملة الى الآن » .

ولا شك أن كثيرين من أهالي البلاد الأصليين تعلموا اللغة العربية ... واليوم ، وبعد أن نسيت اللغة التي كان يتكلم بها الناس في اسبانيا ننظر الى ما تركته الحضارة من ثقافة ما تزال تؤثر ، لأن هناك أموراً في الحضارات تتعالى على الاندثار . وفي ذلك يقول الأديب الاسباني المعاصر مينيل هومسيه هاجرثي الشهير بارنيال شريش : « قد تنسى لغة المحتل التي كان يتكلم بها الناس في الأرض التي احتلها ، ولكن ما تتركه من ثقافة يصعب على السكان ازالة آثارها ، فهناك أمور تتعالى على محاولات الاحتواء ، مثال على ذلك حضارة الأندلس ذات القدرة المعجبية على البقاء على الرغم من ذهاب أصحابها) ويقول الأديب الاسباني : خموس ريوساليدو : « ان الفصل الاسلامي في التاريخ الأندلسي لا يعتبر الوحيد في تاريخها ولكنه يعتبر أحد الفصول المهمة جداً ، والمرحلة التي يتقبلها الأندلسي حتى الآن بكل سهولة » .

وبعد فإن ما نرجوه من خلال عرض هذه الحقائق أن نصل الى كتابة تاريخ يقرب ما بين اسبانيا والعرب ، وذلك بأعادة كتابة التاريخ العربي في اسبانيا بهندوء وروية ،

تاريخ يختصر في ذكر ما حدث في العروب ويفصل في سرد ما أدى اليه تمازج العروق من تعامل الحضارات ، التي تدل على ان العرب والاسبان قد استقوا في وقت ما من حضارة واحدة وان كانوا من أصلين مختلفين ، ثم اختلفت بعد ذلك مسيرتهم ، ولكن تلك الحضارة بقيت رابطاً حضارياً بينهما ، يجبان تدفع الى التفاهم والتقارب والتعاون المستمر بينهما دون تعصب للماضي أو تحسس منه ...

★ ★ ★

أما بالنسبة الى البلاد الأوربية الأخرى ، فإن التاريخ العربي لم يتمق في ذكر ما حدث بعد المعارك ، أولم يتطرق الى ذكر الوقائع البتة ، ولهذا فإن عودة واجبة لهذا التاريخ ينبغي الوقوف عندها ...

جاء في نفح الطيب للمقري ما معناه : « ان نفس موسى بن نصير كانت تود اختراق أوروبا من الغرب الى الشرق للوصول الى القسطنطينية مروراً باسبانيا ففرنسا فإيطاليا الى بلاد البلقان فالقسطنطينية ... ولكن الخليفة الأموي لم يسمح له بأن يخوض بالسرايا الإسلامية في بلاد متناحية فتحت بهم نائية » . وكان هدف ابن نصير فيما عزم أن يخوض به أن يصبح البحر المتوسط كله بحراً للمملكة الإسلامية ، ولكن دعوة الخليفة للقائد جعلته يقفل راجعاً عما انتوى القيام به ... واندرجت ولاية الأندلس وفي ولاية المغرب ... ومع ذلك فقد غزت جيوش المسلمين ما وراء جبل البرت (وهي جبال الألب) ثم تراجعت الجيوش ولكن بقيت لها جيوب في تلك البلاد .

كان العرب يطلقون على فرنسا اسم (الأرض الكبيرة) ويمنون بها جميع الأراضي الواقعة بين جبال البرانس (أو البيرنه) وجبال البرت (وهي جبال الألب) وبين الأوقيانوس ونهر اليا ومملكة الروم . وهذه البلاد تنطبق في الحقيقة على فرنسا في زمن شارل مارتل وابنه بين القصير وابن هذا الأكبر شارلمان .

ولقد شمل الجهاد في عهد موسى بن نصير والولاة بعده جبهتين :

ـ داخل الأندلس ولا سيما في الشمال .

ـ وراء جبال البرت في الأرض الكبيرة .

كانت أولى الغارات السريعة على فرنسا غارات موسى بن نصير ، وكانت خاطفة ... وعن نفح الطيب : (أن بموث طارق بن زياد قد فتحو وأوغلوا حتى انتهوا الى وادي رودنه (نهر الرون) كما ملكت جيوشه برشلونه وأربونه وصخرة بينيون ولودون التي تعتبر ثالث مدينة في فرنسا اذ ذاك ، وعندما تراجع العرب المسلمون عن هذه الأراضي تركوا فيها جيوباً لهم ...) ولقد بقي حلم الفتح بعد موسى بن نصير في قلوب من حكم بعده بلاد الاسبان وكانت بداية تحقيق هذا الحلم هو الاستيلاء على البلاد التي تقع وراء جبال (البرت) وكانت قوة المد الاسلامي قد بلغت مبلغاً عالياً من عهد الولاة

فسيروا الجيوش في سبيل الله الى تلك البلاد البعيدة ، ومن أشهرهم السمع بن مالك الخولاني الذي بذل نشاطاً واسعاً في جنوب فرنسا وأنفق جهوداً كبيرة في معاركه في غالة (Gaule) وطرسكونة (Tarascon) عاصمة اكيثانيا . كما حدث عدة معارك بين المسلمين وبين دوق اكيثانيا واستشهد كثير من المسلمين . وكانت سبتمانيه (Septimanie) جنوب شرقي فرنسا هي البلاد التي تلي جبال البرت أول ما حصلها المد الاسلامي . وتعني هذه الكلمة المقاطعة ذات المدن السبع ، ومن أشهر هذه المدن أربونة وقرقشونة . وقد أقام السمع حكومة اسلامية فيها ، واتخذ مدينة أربونة عاصمة لها وحصنها حتى تصمد غارات من يهاجمها .

وفي أيام الوالي عنبسة وصل الجهاد الى مدينة سانس ، وقد اتجه الوالي في جيوشه شرقي فرنسا ثم شمالها طالباً جوار نهر الرون مانلاً غرباً حتى سانس .

غير أن المد الاسلامي بلغ مداه في عهد الوالي عبدالرحمن الغافقي حيث جدد نشاط الفتح الاسلامي . . . كان عبدالرحمن الغافقي مهتماً بأخذ ثار المسلمين عن الغزوات التي أصيبوا بها في السنين الأخيرة قبل امارته ، وكان يفكر في حملة شديدة على فرنسا يدوخ بها هذه المملعة ثم يجتاز منها الى ايطاليا فالمانيا فالقسطنطينية ويدخلها في حكم الاسلام ، ولما كانت الحماة اiban غليانها فقد اندفعت الجيوش لا يقف أمامها شيء وهي تكتسح الأراضي من (نافار) وهي مملكة في شمال اسبانيا الى بوردو ومنها الى تور . . .

كان جيش عبدالرحمن الغافقي كالريح المرسلة أخاف الفرنجة فاتفقت ملوكها . . . ووقعت المعركة المشهورة والتي سميت ومعها ببلاط أو بلاط الشهداء والتي انتهت بانكسار العرب وانسحابهم . . . فلحقهم بين ثم جيش شارل مارتل فالتجؤوا الى (اربونة) التي استطاعت صد الفرنجة لتحصينها . . .

وما تزال هذه المعركة شاغلة أعظم موقع في أذهان جميع الأوروبيين . . . فقد كانت لها نتائج مهمة في أحداثها ونتائجها وتضحياتها . . . وليس بعيداً أن هناك معلومات قيّمة دونت عنها وضاعت مع ما ضاع من هذه المصادر فلم تصلنا الا معلومات من جهة واحدة نرددها دون تقصير للواقع والحقيقة التاريخية التي يجب أن نبحث عنها فلا نردد : (من أن ما جعل شارل مارتل يتغلب على العرب هي الأسلاب التي أعاققت الجيوش العربية الاسلامية وأثقلت خطوهم وجعلتهم يتقاعسون عن القتال . . .) ومن أول هذه الحقائق أن السبب البارز في هزيمة العرب بعدهم عن عاصمة الأندلس ، إذ غدت المسافة بينهم وبينها تزيد على (١٠٠٠) كم ، يضاف الى ذلك قتال جيش شارل مارتل في أرضه التي يعرف مواقعها ويألف التحرك فيها ، إضافة الى الجو الشتائي الماطر والأرض الموحلة والتلال الوعرة .

ولقد كان انسحاب الجيش الاسلامي السريع عملية معقدة لا نفاذه بعد أن بانث صعوبة الاستمرار في المعركة وبخاصة بمد مقتتل عبدالرحمن الغافقي . . . ويدل على ذلك خدمة المسلمين لجيش شارل مارتل بترك أسلابهم أمام خيامهم وانسحابهم في جنح الظلام حتى لا يلحقهم جيش الفرنجة . . . ويدل هذا على مقدرة حربية أنقذت جيش المسلمين ،

كما أنه يدل على ابطال الرواية التي تقول ان الفنائم كانت هدف المسلمين في معركتهم وسبب هزيمتهم في آن واحد .

وما كتب عن هذه الواقعة متضارب أشد التضارب حتى ما بين المؤرخين الغربيين أنفسهم ، فقد اعتبرها بعضهم نكبة كبيرة أصابت أوروبا وضربة عنيفة حرمتها من الحضارة المنيرة التي كان من الممكن أن يوقظها تمازج الحضارة العربية مع الحضارة الأوروبية قبل (٢٠٠) سنة من بداية عصر النهضة . . . وبمضهم يعتبرها الخلاص لأوروبا من انتشار الدين الاسلامي فيها .

فاذا عدنا لتحليل واقع العرب في فرنسا فاننا نرى التالي :

١ - لم يكن مجيء العرب الى فرنسا وتغلغلهم في أحشاء البلاد وفق خطة مرسومة بل كان بدافع فتح البلاد في سبيل الله . . . اضافة الى طموح المسلمين في توسيع رقعة البلاد الاسلامية ، والدليل على ذلك توجه الولاة أنفسهم ، وكنت تراهم في مقدمة الجيش يواجهون الممعة بأنفسهم ويتحدون الخطر مستعينين بايمانهم مضحين بأرواحهم ، وفي ذلك يقول المؤرخ رينو : (ان العرب في تغلغلهم في فرنسا لم يكونوا ينوون الاستيلاء على هذه المملكة فقط وادخالها في الاسلام بل كان هدفهم الاستيلاء على كل أوروبا واطافة هذه القارة الى سلطنة الاسلام) .

ولكن ما حال دون استمرار العرب والمسلمين في الفتح يعود الى عوامل منها الفتن التي قامت بين العرب وبين البربر المسلمين من جهة وبين القيسيين واليمانيين من جهة اخرى .

٢ - كانت الفترة الأولى من الجهاد في الأرض الكبيرة ترمي الى ادخال سائر أوربة في الاسلام ، وكان يحدو المسلمين الى ذلك ثيل المجد في الدنيا والثواب في الآخرة ، وقد امتد هذا العهد منذ قدوم موسى بن نصير وحتى زوال حكم الولاة .

أما في العهد الأموي في الأندلس فلم تكن البلاد خاضعة للشرق الغربي ، بل كان المشرق على العكس يهادن الفرنجة في الغرب ويبحث اليه الرسائل والهدايا ، كما حدث في عهد الرشيد وشارلمان . . . كما أن وضع العرب في الأندلس قد اختلف عما كان عليه في السابق ، فقد كانت هناك عداوة مستمرة ونزاع دائم مع خلفاء بغداد .

٣ - حصن الولاة بعض المدن (كاربونة) وكان كثير من أهل البلاد مع الولاة من المسلمين . . . والسبب في ذلك أن الشعب الذي كان يسكن جنوب فرنسا كان مؤلفاً من أحقاب الرومانيين ومن الفوط ، ولم يكونوا يرون في حكام فرنسا كشارل مارتل وابنه بيبين القصير وحفيده شارلمان الا غازين كفيهم ، وليس كما تصورهم بعض التواريخ الغربية مخلصين ، ولهذا استطاعت مدينة أربونة أن تصد شارل مارتل ثم ابنه بيبين القصير سبع سنوات . . . ولم تسقط المدينة الا عندما ملأ أبناؤها الحصار . ثم عادت الى العرب وبقي العرب والفرنجة يتماودون بها حتى خرجت من يد العرب نهائياً عام (٨٠٠) م .

ومما لا شك فيه أنه بعد استرجاع بين القصير لأربونة هدأت الأحوال بين الفرنسيين والعرب لأن بين كان يعد جبال (البرانس) هي التخم الطبيعي بين فرنسا وإسبانيا ، ولكن عندما جاء شارلمان اجتاز البيرة على ثقة من أن سكان البلاد الأصليين سيماونونه ، ولكن خاب فآله ، فأما المسلمون فقد قاتلوه قتالا مريراً عند سرقسطة ، وأما أهالي شمالي إسبانيا فقد أنكروا أن يحكمهم غريب أياً كان وهكذا انقضوا على جيش شارلمان يساعدهم المسلمون ٠٠٠ وكان ذلك انشاء رجوع شارلمان إلى فرنسا عندما علم بهجوم الساكسونيين على بلاده .

٤ - لم ينحصر الجهد في الميدان العسكري بل شمل الميدان الاجتماعي في كل وجوهه الحياتية ، فنظمت الإدارة في البلاد المفتوحة في جنوب فرنسا وتمت الإصلاحات المالية والزراعية والمعمارية وذلك على الرغم من الفترة القصيرة التي أقام بها العرب في فرنسا ٠٠٠ وكان عدد العرب الذين بقوا في فرنسا وتنصروا كبيراً ، وكان الوادعون منهم يشتغلون بالفلاحة والزراعة وقد يؤدون الضرائب عن محصولاتهم إلى أمير البلاد التي كانوا فيها .

وفي المقابل فإن المسلمين أبان حكمهم في فرنسا تركوا للأهالي حريتهم الدينية وظلت الغالبية منهم على دينهم ، ولكن من المؤكد أن كثيرين أيضاً دخلوا الإسلام ، وكان كثير من الأسرى والرهائن يتململون العربية ولا سيما التجار والحجاج الذين يزورون الديار المقدسة .

ولا شك أن المسلمين والعرب كان لهم تأثيرهم في طرق الزراعة التي اشتغلوا بها ، فحفروا الآفنية ونسقوا من تحتها الجنائن وزرعوا الأشجار ولا يزال في (البروفانس) غابة يقال لها غابة المغاربة .

كذلك أثروا في الصناعة فعملوا أهل البلاد استخراج القطران من أشجار الصنوبر والأرز لشد أواصر أخشاب المراكب ، ولهذا يسمي أهالي هذه المنطقة القطران باسمه العربي فاته .

ولا مرأه أنه دخل الفرنسية كلمات كثيرة عربية من خلال العلاقات التجارية ، وعلى الرغم من أن التأثير العربي في فرنسا ليس كبيراً ولكن ينسب العامة إلى لفظة (سارازين) التي تمنى العرب كل ما يروونه كبيراً وجليلاً ٠٠٠ وقصص بطولات الفرنجة مع العرب خلدت العرب وأبطالهم كما خلدت أبطال الفرنجة وبلاءهم حتى صار في تاريخ كل مدينة من مدن الجنوب أمير عربي أو بطل عربي يبارز أميراً أو بطلاً فرنسياً ، وبعد أن يشتد البراز والقتال بينهما ويطول المراك ويعتمد ، وتظهر فيه خوارق الأقدار ، ينتهي بالبداة بتغلب البطل الفرنسي على البطل العربي ، وحتى قصص الفروسية المتعلقة بشارلمان تذكر أنه اقتبس في صفه من علم العرب وثقافتهم .

□ العرب في سواحل فرنسا وشمال إيطاليا وجبال سويسرا :

إذا قلبنا التواريخ العربية فاشأ لا نجد ذكراً لوقائع العرب في هذه البلاد ، ولكنها وردت في تواريخ غربية واتخذت وجهة النظر الغربية ومن بين الكتب هذه :

- كتاب (غارة العرب على سويسرا في أواسط القرن العاشر) تأليف د. فرديناند ككر .
وقد كتب بالألمانية ونقله الى العربية الأديب شكيب أرسلان .

- كتاب : (غارات العرب في فرنسا ، ومن فرنسا على سافواي وببيمونت وسويسرا)
تأليف المؤرخ المستشرق (رينو) ترجمة : شكيب أرسلان .

جاء في هذين التاريخين ما يلي : في عام ٨٨٩ كان والي (البروفنس) رجلاً يقال له بوزون ، وكان قاسياً ثقلت أمارته على الناس مما جعلهم مساعدين للغزاة العرب في تلك الديار .

بدأت تلك الغزوات بعشرين ملاحاً ركبوا مركباً خفيفاً من سواحل إسبانيا قاصدين (البروفانس) فأخذتهم الريح وألقت بهم في خليج غريمو أو (سان تروبيز) ، وصعدوا البر ولم يصبرهم أحد . وكان حول هذا الخليج أجمة لا يجرؤ انسان أن يدخل فيها ، وشمال الخليج كانت سلسلة جبال بعضها أعلى من بعض ، فإذا وصل الانسان الى قممتها أشرف على قسم من بروفنس السفلى .

وعندما توصل هؤلاء العرب الى الصمود الى القسم ، عرفوا ملامحة المكسان لاستقرارهم فيه بصورة دائمة ، فالبخر لتلقي الامدادات والبر هو المنفذ الى ما يريدون الذهاب اليه من النواحي ، والغاية هي المقل والملجأ عند الاضطراب . حينئذ أرسل هؤلاء الى إسبانيا والبريقيا يستمدون من اخوانهم الانضمام اليهم وبدؤوا العمل في مكانهم ، فما مضت سنوات حتى امتلأت تلك الأرض بالعصون والمقاتل وكان أهم تلك العصون المسمى (فركسينا توم أو فركسينت) .

والقد اختلف المؤرخون الأوروبيون : الطليان والفرنسيون في موقع فركسينا توم . فالفرنسيون يجعلون فركسينا توم في خليج سان تروبيز بين فرنسا وإيطاليا والى جانبه جبل يقال له جبل (المورو) تلك اللفظة التي كانت تطلق على المسلمين . أما الطليان فيجعلونه (فركسينا توم) بقرب (ارل) و(أنتيب) التي هي محرفة عن (مين الطيب) كما سماها العرب ، ومنها امتدوا الى نيس (نيس) والى سان ريمو . ويقول المؤرخون الطليان : ان مجيء العرب المسلمين كان سنة ٨٩١ ، ثم يتممون بقية القصة .

وانتشر المسلمون في الساقواي والدوفيني وفاليزيا وليفورية وجنوة . وقد استعان الحكام الطليان بالعرب على أمدانهم . والغريب كما أسلفت أن جميع المؤرخين الغربيين والشرقيين تعدثوا عن نزول العرب في تلك الأصقاع الا مؤرخي العرب أنفسهم ، فلا يوجد في العربية شيء اللهم الا ما جاء في المسالك والممالك لابن حوقل الذي يتحدث

عن جبل نجا اليه المسلمون فعمروه وصاروا في وجوه الفرنجة قوماً لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم) ثم يسمي ذلك المكان بجبل (القلال) .

وقد ورد اسم جبل القلال في معجم البلاد لياقوت الحموي وذلك في أثناء كلامه على (أنكبرنه) قال : بلاد واسعة من بلاد الأفرنج بين القسطنطينية والأندلس (ثم يصف إيطاليا) وبمدها يذكر جبل القلال ...

- ويسمي المعاصرون هذا المعقل الذي يقع في آخر خليج غريمو (أوسان تروبيز) فركسينا توم وتسمى القرية المبنية على سفح الجبل والغابة التي تحيط بالجبل غابة (المواري) أو (المورو) .

وتروي أحداث التاريخ التي كتبها الغربيون أن هؤلاء الذين نزلوا في ذلك المكان ساعدتهم الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها في البلاد فقطعوا جبال الألب وانتشروا في السفواي وشمال إيطاليا وسويسرا .

ونجد أخبار وقائع العرب الذين احتلوا هذه البلاد في التواريخ الفارسية وقد جاء في بعض التواريخ : (كان جبلاً خراباً ، سكن فيه أناس وأووا الى هذا الجبل في جهادهم ضد الفرنج ، ولولا هذا الجبل لكان على الاسلام خطر عظيم ، وسبب الحاق هذا الجبل ببلاد الأندلس أنه كان تحت حماية خلفاء قرطبة . وكان هؤلاء يحسبون المستعمرة العربية في فركسينا توم . ولما انتهى العرب من بناء حصنهم بدأوا بشن الغارات في الشواحي القريبة منهم ، وصادف ذلك أن الحروب الداخلية بين حكام تلك البلاد كانت حامية الرطيس فصارت كل فئة تجتهد أن تجذبهم لنفسها ، فقويت شوكتهم ونمت واستولى العرب على قلوب الجميع من أمرهم وأصبح لا يرتفع في وجههم رأس . . . وكان العرب يتقدمون في جبال الألب تعلقاً وتسلقاً حتى وقعوا في أعلاها . . . واستطاع العرب بحكم استيلائهم على بعض القمم ومضايق جبال الألب أن يقطعوا المواصلات بين إيطاليا وفرنسا وكانوا يأخذون على المسافرين رسماً معلوماً . . .

ويقول المؤرخ (ليوتبراند) الذي عاش في الثلث الأول من القرن العاشر : (إن العرب أغاروا على مدينة آلي إحدى مدن مونتفرات المشهورة بحماماتها المعدنية ، وإن بعض العرب دخلوا مدينة جنوة .

وقد أعلن الكونت هوغ ملك البروفانس عزمه على طرد العرب من تلك الأطراف ، ولما كان أهم معقل لهم هو حصن فراسينت الذي كانت تنطلق منه غاراتهم الى داخل البلاد ، ولما كان مصاهراً لأميراطور القسطنطينية فقد أرسل اليه يطلب منه انجاده بأسطوله وكان يملك نفاطات اغريقية تحرق المراكب بمجرد اصابتها . وزحف هوغ سنة ٩٤٢ على الحصن من البر وجاء الأسطول من البحر فالتجأ العرب الى الجبال . . . وفي هذه الأثناء جاء الخبر الى هوغ بأن منافسائه يهاجم مملكته ، فأسرع هوغ لمهادنة العرب شرط أن يقطعوا معبر سان برنار وسائر معابر الألب على عدوه .

وبعد هذه الواقعة ازدادت جراءة العرب واستقرت قدمهم في البلاد وأصبحوا كأنهم سيلبثون فيها أبداً وأخذوا يتزوجون من الأهالي ويحرقون ويزرعون كسائر الفلاحين، وكان الأمراء يكتفون بأن يأخذوا منهم أثاثاً خفيفة ، وكانت جماعة قد توطنت مدينة نيس وغرونوبل وغدوا كاملها . أما الذين كانوا في أهالي الجبال فقد كانوا يأخذون من المارين أثاثات فادحة . . .

وقد ثبت أن العرب أقاموا طويلاً في السافواي وكانت تسمى (موزين) ويوجد هناك أسماء كثيرة تدل على وجود العرب هناك كوادي (السرالين) . . وكان المسلمون يجولون في جميع أنحاء سويسرا بلا معارض كأنهم في ديارهم حتى قال أحد المؤرخين: أنهم صاروا أشبه بالمعزى لغفة أقدامهم وسهولة سيرهم في حروف الجبال ، وقد بنوا أبراجاً في أماكن متعددة ما تزال آثارها موجودة .

وفي سنة ٩٥٢ كان المجر قد اكتسحوا الألزاس وصارت جميع بلاد الجورة تحت خطر احتلالهم، ففكر أمير بوفونيه وسويسرا والدوفيني في تدبير حيلة للتخلص من العرب والمجر معاً ، فأوهم كلا منهم بأنه يريد أن يتعاون معه ليقضي على الآخر الطامع فيما بيده ، وهكذا التحم الفريقان ، العربي والمجري وبقي جيش الأمير واقفاً ، وعندما تعب الجميع هجم الأمير بجيشه .

وبعد أن كسر المجر وذهب العرب منها بقيت البروفانس والدوفيني في أيديهم ، وفي سنة ٩٥٦ تم إجلاء العرب عن غرونوبل . ثم كانت معارك مع العرب في كل مكان ، وحصلت معركة عند مكان يقال له (تورتور) فانهزم المسلمون وقتل من قتل وأخذ من وقع أسيراً أما من استسلم فقد عفي عنه واستخدم في الزراعة . وقد بقي للعرب بقايا معروفة مدة طويلة في تلك البلاد .

ثم سقط حصن فركسينت سنة ٩٧٥ بعد ثمانين سنة واستولى الكونت غليوم على أراضيهم وقسمها بين الأهالي والأمراء .

ويقول بعض المؤرخين ان بقاء المسلمين العرب ظل في جبال الألب في إيطاليا وسويسرا مستمراً إلى ما بعد سنة ٩٨٠ ، غير أن شوكتهم كانت قد زالت . . ويقال ان بعضهم اندمج مع أهل البلاد وأصبح جزءاً منهم .

والسؤال الذي يرد الآن هو : كيف يكتب هذا التاريخ ؟ من المؤكد أن آثاراً قد بقيت في هذه البلاد التي احتلها العرب مدة طويلة أو قصيرة ، كما سرت عنهم أخبار . . وأنت ترى في تلك البلاد قلعة كانوا يمتصمون بها عندما كانوا يجتاحون الأرض ، أو مخاضة نهر أو قنطرة كانوا يجتازون النهر من عليها ، يأخذون عندها رسماً على المارين، وعلى الجبال ترى أبراجاً متناوذة كانوا يتبادلون منها الاشارات النارية لأجل توحيد حركاتهم . . . ولا شك أن استقرار العرب في بروفانس ودوفيني وببيموننت وسافواي وسويسرا لم يكن الا في بعض الماقل المحصنة وفي ضواحيها ، فلم يستولوا على بلاد بأكملها . . . غير أن عدداً كبيراً من المسلمين بقوا في تلك البلاد ، ويذكر شكيب أرسلان

(أن في سويسرا عائلات ملقبة بالسرازين ، في جنيف وفي بازل ، وهناك علماء سويسريون من أصل عربي كابن أبي زيد ، وقد كانت عائلته في طولوز وقد تنصرت على المذهب البروتستانتي ، ولما أخرج البروتستانت من فرنسا ذهب إلى جنيف ، ويسميه السويسريون - أبو زيت - وقد نبغ في جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلك والفلسفة ، وكان معاصراً لفولثير وروسو ونيوتن وصديقاتهم ، وكانت له عندهم منزلة ، وفي جنيف شارع باسم شارع (ابن زيد) ويضيف شكيب أرسلان عبارة ينقلها عن الأب سراس من رهبان دير (جورا) : (وما يستجلب النظر أنه في المقاطعات المجاورة لمدينة بازل وفي نواحيها نجد بقايا الأسماء العربية مجاورة للطرق الرومانية وما ذلك إلا لأن العرب تمقبوا هذه الطرق وساروا فيها) .

□ العرب في إيطاليا وصقلية وفي جزر البحر المتوسط :

تعود العرب بعد الاسلام بعد أن فتحوا سورية ومصر وأفريقيا على استعمال الأساطيل البحرية . . . وكان كثير من العرب يغزون في البحر جهاداً في سبيل الله وابتغاء الأجر والثواب . ويقال : أن ابن عمر بن الخطاب كان واحداً من الفزاة المجاهدين في الأسطول الاسلامي الذي يغزو القسطنطينية ، وعندما سأل أمير البحر عن ذنوب المجاهدين أجابه هذا : والذي نفسي بيده لقد تركوا آثامهم على الشاطئ .

وعندما فتح العرب اسبانيا شعروا بأن لا بد لهم من صناعة سفن خاصة بهم ، فأنشأوا هذه الصناعة في تونس أولاً ثم نقلوها إلى اسبانيا . وكان في الأندلس قائد للبحر اسمه (أسير المام) . ويظن أن لفظة (أسبرال) محرفة عنها .

جاء في فتوح البلدان للبلاذري : (وجه معاوية بن أبي سفيان غزواته إلى صقلية فاستطاعت جيوشه أن تغنم منها الشيء الكثير ، ثم فتح رودوس وأنزل بها قوماً من المسلمين ، وكانت رودوس من أحصص الجزائر ، وأقام المسلمون سبع سنين في حصن اتخذ لهم ، ثم في عهد خلافة الوليد افتتح بعضها ، أما في عهد المأمون فقد تم افتتاحها جميعها) . ولقد فتحت صقلية بتمامها سنة ٢١٣ هـ على يد قاضي القيروان ودام ملك العرب فيها إلى سنة ٤٦٤ هـ ، وبقي فيها الاسلام مدة مديدة بعد زوال ملكهم . .

تقول زيفريد هونكه في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب : (قدم العرب إلى صقلية من تونس من المنطقة التي حول القيروان ، وحولوا خرائب صقلية إلى حدائق غناء وزرعوا النخيل وأنواع الفواكه وحولوا الجزيرة الفقيرة إلى بلد يزخر بالخيرات وزينوها بالقصور والمساجد الرائعة التي كانت تخرج بالشمرام والمغنسين والفلاسفة والأطباء وعلماء الرياضة والطبيعة ويحصيها ابن حوقل في بالرمو العاصمة ما بين (٣٠٠) مسجد وقصر . واستعمل العرب في صقلية الورق الأبيض في كتاباتهم ونظموا الشعر الرقيق الذي لم يعرفه الرومان والجرمان ، وصارت الجزيرة وطناً لمن يسكن فيها ، وبكائها من غادرها . . وبعد زوال السلطان السياسي للعرب بقي لهم فيها سلطانهم المعنوي من خلال علومهم وفن بنائهم وأدبهم .

ولقد بنى أهل صقلية قصورهم وحدائقهم على الطراز العربي واستعانوا بمن بقي من العرب ، سواء دخل النصرانية أم لا . وأخلص العرب في خدمة روجر ملك صقلية المتسامح الذي آمن بالثقافة العربية وبحضارة العرب ، فكان أغنى ملك على أصغر مملكة ، واستطاع معها أن يضم امارات يترك لحكامها المحليين أمر التصرف فيها ، فكان ملك صقلية وإيطاليا وشمال إفريقيا . ومن أجله كتب الادريسي كتابه : نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، ورسم له سبعين خريطة تفوق خرائط بطليموس ، كما رسم خريطة للعالم نحتها على لوح من الفضة) .

أما بالنسبة لإيطاليا فقد جاء عن المؤرخ رينسو ومن مجموعة مؤرخين فرنسيين وعن تاريخ كوندى : (كان العرب قد استولوا على صقلية ، وكان اثنان من أمراء إيطاليا يتنازعا على الحكم في المنطقة قرب نابولي ، فاستنجد كل منهما بالمسلمين الذين كانوا في صقلية فدخل المسلمون إلى أراضي (الأرض الكبيرة) ، وفي سنة ٨٤٦ م جاء غزاة العرب إلى روما وصعدوا في نهر التيبر وغزوا أيضاً جنوة فنفر الأهالي وقتلهم) .

وفي مجموعة الدون بوكه : (وفي سنة ٨٤٨ م غزا المسلمون مرسيليا وجميع الساحل إلى جنوة ، وما زال زحف جيش من المسلمين يقوده موسى عامل سرقسطة يتقدم متجهاً إلى الشمال من الساحل حتى اضطر الملك شارل الأصغر أن يطلب من المسلمين (الصلح) . ولبت المسلمون في تلك البلاد زماناً طويلاً إلى أيام فردريك الثاني امبراطور ألمانيا ، وملك صقلية الذي عاش في أوائل القرن الثالث عشر ، وكان قد اتخذ جيشاً من المسلمين ، وكان يعرف العربية معرفة تامة) .

ويقول المؤرخ ليوتيراند الذي عاش في الثلث الأول من القرن العاشر : ان العرب أهاروا على عدة مدن واستولوا عليهما في بلاد إيطاليا منها كريبو وبارة وتارنت كما قرعوا أبواب روما وغزوا جنوة ثم غزوا مرسيليا .

وفي عهد عبدالرحمن الداخل نشطت صناعة السفن في المراسي وكانت جزر البليار (أي ميورقة ومينورقة واليابسة وجزيرتا سردينية وكورسيكا) عرضة للغزوات المسلمين بحيث أن أهالي تلك البلاد وضموا أنفسهم تحت حماية شارلمان . ثم اكتسح المسلمون كورسيكا ، وكان بسين ملكاً على إيطاليا ، فأرسل أسطولاً لمطاردتهم فانسحبوا إلى الوراء . وفي سنة ٨٠٨ جاء بعض الغزاة المسلمين ونزلوا سردينية ، ولكن المسلمين خسروا ثلاثة عشر مركباً ، وانهزموا) . ويبدو أن عبدالرحمن الأول كان مائلاً إلى إدارة شارلمان الذي أقام علاقات ود مع الدولة العباسية . فدعاه إلى المصاهرة والسلم فأجابته شارلمان إلى السلم ولم تتم المصاهرة . غير أن الغزوات البحرية للجزر والسواحل بقيت مستمرة .

كذلك استولى العرب المسلمون على جزيرة كريت وكان العرب يسمونها (أقريطش) ويقال ان جماعة ممن كانوا يسكنون حوالي قرطبة ثاروا على حكم أميرهم فاستطاع أن يتغلب عليهم ، فهاجر قسم منهم إلى طليطلة ، أما الباقون فقد جاز بعضهم البحر إلى المغرب وكان عددهم نحواً من ثمانية آلاف ، فتقبلهم (ادريس بن ادريس) في فاس ، فكان

مبدأ سكنى الأندلسيين بفاس ، وسار بنهم نحو خمسة عشر ألفاً إلى الاسكندرية ودخلوها ، ولكن عامل المأمون صانهم على أن يذهبوا إلى إحدى جزر بحر اليونان فاختاروا اقريطش (كريت) وكان الممور منها قليلاً ، فنزلوا بها ثم انضم اليهم كثير من المصريين والشاميين والعراقيين . وكانت كريت تابعة للقسطنطينية ، ولكن العرب استولوا عليها وأسسوا دولة (كريت) التي دامت أكثر من مائة سنة من سنة (٨٢٨) إلى (٩٦١) وقد أسسها عمرو بن شعيب ، وتداول ملكها أولاده من بعده إلى أن استولى عليها البيزنطيون ثانية ، فصارت تحت حكمهم ولكن بقي فيها الكثير من العرب المسلمين .

وجاء في المسالك والممالك لابن حوقل : أنه كان للمسلمين في بحر الروم أكثر من جزيرة مثل قبرص واقريطش (قبرص وكريت) اللتين كانتا جزيرتين كثيرتي الخير والمير والتجارة والوارد منها والصادر عنها ، غير أن هاتين الجزيرتين كانتا مختلفتين ، فأما قبرص فقد كانت قسمين : قسم للنصارى وقسم للإسلام . وأما كريت فقد حكمها المسلمون كلها .

وبعد فإن العرب في فرنسا وإيطاليا وجزر البحر المتوسط كانوا ككل من يدخل إلى أرض ماغازيا ، يخرب ويفنم . ولكنهم كما يقول غوستاف لوبون : (لما تكررت غزواتهم وأصابهم فيها من المنجاح والتوفيق ما أصابهم رأوا أن يستقروا فيها وأن يحسنوا سياسة أهلها . ولما رسخت أقدامهم فيها كفوا عن عادة نهبها وأنعموا عليهم بنعم الحضارة ، وكان لهم فيها ما لهم في اسبانيا من الأثر النافع البالغ) .

ولا شك أن تأثير العرب كان عظيماً في المجالين العلمي والأدبي ، ولقد دخلت العلوم إلى أوروبا عن طريق اسبانيا وصقلية وإيطاليا بدءاً من القرن الحادي عشر والثاني عشر .

وظلت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية مصدراً وحيداً للتدريس في جامعات أوربة خمسة قرون أو ستة ، وبلغ تأثير العرب في جامعات أوربة من الاتساع ما شمل معه بعض المعارف التي يحققون فيها تقدماً مهماً كالفلسفة مثلاً ، وكان للعرب شأن في جامعات إيطاليا وبخاصة جامعة بادوا ، حتى قال الشاعر الكبير بترارك : يا عجبا استطاع شيشرون أن يكون خطيباً بمدنيومستين واستطاع فيرجيل أن يكون شاعراً بمدنيومستين ، فهل قدر علينا ألا نؤلف بمد العرب ، لقد تساوينا نحن والإفارقة وجميع الشعوب غالباً وسبقناها أحياناً خلا العرب ، فيا للحماقة ويا للضلال .

أما المستشرق زيجريد هونكه فهي ترى أن الحروب الغربية مع العرب والمسلمين كانت سبباً في دفع الحضارة الإنسانية قدماً إلى الأمام ونسبها تقول (لئن كان التقارب بين الشرق والغرب في فترات متباعدة قد أدى إلى نقل الحضارة العربية إلى ربوعها التبداء حضارة الغرب فإن التنازع الدائم بينهما قد مثل هو الآخر دوره في شدة الهمم وخلق الحضارة الغربية واسياغ الخير على أوربة والبشر جميعاً) .

وهكذا ، ومن بعد الحروب يجب أن يبدأ العالم في كتابة التاريخ ، تاريخ الحضارات وتمازج الشعوب في السلم . . .

مصادر الدراسة

- ١ - نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب للمقري
- ٢ - المسالك والممالك لابن حوقل
- ٣ - حضارة العرب غوستاف لوبون / ترجمة: عادل زعيتر
- ٤ - شمس العرب تسطع على الغرب المستشرق : زغريد هونكه
ترجمة : فاروق ببيضون، وكال وسوفي
- ٥ - التاريخ الأندلسي - من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة د. عبدالرحمن علي العجبي
- ٦ - غزوات العرب لأوروبا شكيب أرسلان
- ٧ - غارات العرب على أوروبا في فرنسا والسافوا وبيمونت وسويسرا جوزيف رينو / ترجمة: شكيب أرسلان
- ٨ - غارة العرب على سويسرا في أواسط القرن العاشر فرديناند كلر / ترجمة: شكيب أرسلان
- ٩ - مقدمة (أنثولوجيا في الشعر الأندلسي) بقلم : البيازين
لميغيل خوسيه هاجرتي - الشهر بارنيال شريش
- ١٠ - مقدمة مختارات من الشعر الأسباني بقلم : خيسوس ريو ساليديو
من منشورات المعهد الأسباني العربي ترجمة : محمد عبدالحميد عيسى
للثقافة في مدريد

★ ★ ★

الصيّد لاني الأندلسي

أبو العباس النبائي (ابن الروميّة)

فاضل السباعي

ازدهر علم النبات والأعشاب في الأندلس ، ابتداءً من القرن الرابع الهجري ، (العاشر الميلادي) ، وشاع التداوي بالحشائش والأعشاب على أيدي علماء أندلسيين ، لعل من أبرزهم تلك الطليعة المؤلفة من سبعة من الأطباء والصيدلة والعشابين ، الذين كانوا في قرطبة على عهد الخليفة الأموي القوي عبد الرحمن الناصر ؛ وقد صحب هؤلاء العلماء الراهب نقولا ، الذي وصل إلى قرطبة سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) ، موفداً من قبل صاحب القسطنطينية ، ليساعدهم في شرح وتفسير كتاب العشاب الإغريقي الأشهر ديسقوريدس ، الذي كان الإمبراطور قد قدمه هدية إلى الخليفة الأندلسي تقرباً مع هدايا أخرى ، وكان الراهب نقولا يتقن اللغة الإغريقية - التي لم يكن في قرطبة من يتقنها - فضلاً عن لغته اللاتينية .

والذي كان من أعضاء هذه اللجنة السباعية ، أنهم فهموا فهماً جيداً مضمون كتاب ديسقوريدس المسمى « المادة الطبية Materla medica » (المؤلف في القرن الأول الميلادي) ، ولكنهم لم يحاولوا نقله إلى العربية (وكان قد تمّ نقله قبل ذلك ببغداد نقلاً غير دقيق) ، لأنهم تجاوزوا هذه المرحلة التي ما هو أبعد :

● فقد استقطب العلماء الأندلسيون ، في دراستهم لهذا الكتاب ، النباتات التي ليس لها وجود في الأندلس ،

● ثم أنهم أخذوا يتعرفون النباتات الأندلسية التي ليس لها في الكتاب ذكر ،

● كما أنه ظهر في الأندلس ، في ذلك الحين ثم في الأجيال التالية ، كثير من العلماء الذين عكفوا على تأليف الكتب والموسوعات في الحشائش والأعشاب ، منهم : ابن جُلجل ،

وابن وافد، وأمية بن أبي الصلت، والغافقي، والادريسي، وأبو العباس النباتي، وضياء الدين بن البيطار... وغيرهم، وذلك كله إضافة الى ما كان عليه «الأطباء» الأندلسيون عامة من عناية بالمداداة بالأعشاب، كالطبيب الجراح أبي القاسم الزهراوي، وأطباء أسرة زهر ونخص منهم: عبد الملك - الجند، وزهر - الأب، وعبد الملك - الابن (صاحب كتاب التيسير في المداداة والتدبير) وغيرهم كثير كثير.

ولعلنا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان أبا العباس النباتي، المولود في اشبيلية سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥ م)، كان واحداً من أعظم العشائين الأندلسيين. الا أن ما يتميز به هذا الصيدلاني المشاب عن نظرائه، أنه كان - الى علمه بالأعشاب - «حافظاً» من المعنيين بالحديث النبوي الشريف، رواية وتصنيفاً. واذا كان جهده العلمي قد مكّنه من أن يؤلف خمسة كتب في العشائش والنبات، فان دينه وتقواه قد جعلاه يصنّف عندها يفوق ذلك من كتب الحديث. بيد أنه من المؤسف أن مؤلفات هذا العالم الكبير قد ضاعت كلها - في ما نعلم حتى اليوم - فلم يعلّ إلينا منها كتاب واحد!

وفي تقديرنا لأبي العباس النباتي - الذي تكتيه بعض المصادر التاريخية بـ «ابن الرومية»، كنية «كان يكرهها ويقلق لها» كما ذكر المؤرخ ابن عبد الملك المراكشي (١) - نؤكد أنه كان يتمتع بمزيتين علميتين لم تجتمعا معاً، وبهذا القدر من الوضوح، عند غيره من العشائين أو الأطباء في الأندلس أو في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

أولى هاتين المزيّتين أنه كان عالماً طليّعة، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى. فهو يمشق المعرفة، ويتحرى أسبابها، ويجري ورائها، وهو لذلك لم يلتزم القعود في مدينته اشبيلية، بل قام يطوف في أرجاء الأندلس، من سهل وجبل وبادية وساحل... وقد أتى لسان الدين بن الخطيب على ذكره في كتابه «الإحاطة...»، قال: أنه دخل غرناطة «غير ما مرة، لسماع الحديث وتحقيق النبات، ونقش [أي: بحث وفحص] عن عيون النبات بجمالها»؛ وقال في حقه أيضاً: أنه كان «نسيج وحده... وعجيبة نوع الانسان في عصره وما قبله وما بعده، في معرفة (النباتات...) على اختلاف أطوار منابتها، حساً ومشاهدة وتحقيقاً... قام على الصنعتين، لوجود القدر المشترك بينهما، وهما: الحديث والنبات، اذ موادهما الرحلة، والتقييد، وتصحيح الأصول، وتحقيق المشكلات اللفظية، وحفظ الأديان والأبدان...» (٢).

على أن مطامح أبي العباس العلمية ما كانت لتتوقف عند حدود وطنه الأندلس، بل استنهضت منه للقيام برحلة هي - في ظننا - أطول ما أنجزه نباتي عشاب في تاريخ حضارتنا. واذا كان تلميذه الأندلسي، ضياء الدين بن البيطار المالقي، قد سافر - كما يحدثنا معاصره مؤرخ الأطباء ابن أبي أصيبعة - «الى بلاد الأمازيغ وأقصى بلاد الروم، ولقي جماعة يمانون هذا الفن، وأخذ عنهم معرفة نبات كثير، وعائنه في مواضعه» (٣)، وذلك قبل أن يستقر في القاهرة ثم يلقي وجهه ربّه في دمشق، بعد أن صنف أكبر موسوعة عربية في بابها «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»...

أقول : اذا كان ابن البيطار قد فعل ذلك ، فان الرحلة العظمى التي حققها أبو العباس كانت أطول من ذلك مسافة ، ولا تقل في مضارها خطراً !

فقد غادر النباتي أبو العباس الحافظ ، اشبيلية سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) ، مجتازاً البحر الى العدو المغربية . ومن هناك أخذ ينتقل بين مدن شمال افريقية وسواحلها وسهولها ، وفيها فيها ، مخالطاً الناس في المدينة والريف والبادية ، مستمعاً الى ما يخبرونه به من معلومات عن النباتات التي يعمدونها في مناطقهم وينتفعون بها في غذاء ودواء ، حتى نزل الاسكندرية فالقاهرة ، وسار على ضفاف النيل ٠٠٠ وهو ، في ذلك كله ، يبحث عن النباتات والأعشاب ويتحقق من منافعها . والطريف أنه اعتذر ، شاكراً ، تكريماً بذله له صاحب مصر والشام « الملك العادل » بأن يقيم عنده ويكون طبيباً ورئيساً !

وبعد مصر ، زار أبو العباس الديار المقدسة فادى الفريضة ، ثم توجه الى الشام والعراق ، وأمن في رحلته شرقاً وشمالاً حتى اقليم خراسان (يقع اليوم في أفغانستان) ، ومضى فيه حتى مدينة « مرو » (تقع اليوم في جمهورية تركمانيا السوفيتية) ، وكانت مرو ، آنذاك ، حاضرة غنية برجالها وعلمائها وفقهائها ، وكانت مكتباتها العامة والخاصة تزخر بالكتب والمخطوطات ، كما يعدننا بانثفاضة ياقوت الحموي ، الذي جمع من تلك الخزائن معظم موضوعات كتابه « معجم البلدان » (١) .

ولقد مرّ أبو العباس بمدينة « حران » (تقع في الجنوب الشرقي من الجمهورية التركية اليوم) ، في رحلته العلمية هذه ، التي استغرقت عامين وبعض العام ، وتمخضت عن تأليفه كتابه الفريد « الرحلة النباتية » !

وأما المزية الأخرى ، التي تمتع بها أبو العباس النباتي وفاق فيها نظرائه من المشايخ ، فانها تتجلى في حرصه على تعلية النباتات (أي وصفها وصفاً علمياً) ، وفي دقته في هذا الوصف ٠٠٠ وقد تستنفده التعلية للنبات الواحدة حتى يكاد لا يبقى زيادة لاستزيد !

لنستمع اليه وهو يصف النبتة المسماة « كفـ مريم » ، يقول :

« نبتة منبسطة على الأرض ، رجليّة الورق الى الاستدارة ما هي ، صلبة الأغصان ، في ورقها جمودة ويسير قبض ، مزغبة ماهي ، شديدة الخضرة ، تتكون على الأرض في استدارة على قدر الشبر ، تخرج ، فيما بين تضاعيف الورق على الأغصان ، زهرة دقيقة الى الصغرة ما هي ، على شكل زهر الرجلّة ثم يسقط ، فيخلقه بزر أصفر من الحلبّة صلب يسقط ، وتورق ، وتنقبض الأغصان ، وترتفع على الأرض حتى ترجع على الشكل الذي يتعارفه الناس على حسب ما تجلب اليهم ٠٠٠ » .

ويذكر المواضع التي وقع فيها على هذه النبتة : « وقد رأيتهما بصحراء مصر ٠٠٠ وأيضاً بالمغرب ، بصحراء سجلماسة ونهرها . ورأيت [منها] ٠٠٠ نوعاً بجبال بيت المقدس ،

صغيراً ، أبيض اللون ، دقيق الميدان ، مدحرج الخلقة ، دقيق البزر ، وهذا النوع موجود أيضاً بطريق عسقلان في الصحارى .»

ولا يفوته أن يعلن بثقة العارف : « وقل من يعرف [هذه النبتة] على الصفة التي وصفت » ! ويضيف باعتداد مقرون بالتواضع : « ولم يحلها أيضاً أحد قبلي ، فيما علمت » (٥) .

والتعريف العلمي المعاصر لهذه النبتة ، كما ورد في « معجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية » ، أنها « كف- مريم » ، أو « كف- عائشة » ، أو « شجرة الكف » Rose de Jerico, St. Mary's Flower : نبات صغير سنوي بري من الصليبيات ، ينبت في أنحاء فلسطين والجزيرة وسيناء وغيرها أومق تم نموه وجف ، تقتله الرياح وتذهب به ، حتى إذا صادف مكاناً رطباً عاد إلى النمو .

وبدا أن شجر « الغيار شنبّر » ، واسمه العلمي Cassia fistula ، قد استرعى انتباه أبي العباس النباتي منذ نزل ثغرى الإسكندرية ، ثم ما عثم أن رآه في القاهرة ... فقال في كتابه « الرحلة النباتية » : « هو شجر معروف ، وثمره مألوف بمصر واسكندرية وما والاها ، ومنهما يحمل إلى الشام » . وهو أيضاً بالبصرة كثير ، ومنها يحمل إلى المشرق .»

ثم وصفه وصفا يجمع بين الدقة العلمية والوصف الشعري ... قال :

« شجرة كقدّر شجر الجوز ، وورقه كورقه ، إلا أنه أصغر منه قليلاً ، وأطرافه حادة ، وهو أصلب من ورق الجوز ، وفيه شبه من ورق الشاهبلوط .»

« ويزهر زهراً عجباً ، لم تر عيني مثله جمالاً وحسناً في خلقته ، وذلك أنه يخرج من بين تضاعيف الورق ، في شهر سبتمبر [أيلول] ، وهو في عرجون طوله نحو ذراع ، يخرج من جهاته الأربع عروق في طول الأصبع ، وتنفث أطرافها عن زهر ياسميني الشكل في قدر خمس ورقات في كل زهرة في نهاية الصفرة ، فيأتي شكل العرجون ، وهو متدل بين تضاعيف الأغصان ، كأنها ثريا مسروجة .»

« وهذا الزهر ، إذا أن أن يخرج الثمر ، يستحيل لونه إلى البياض ، ويدوي ، ويسقط ، وتبرز أنابيب القضيب الشنبرية على الشكل المعروف ، منها الطويل ومنها القصير ، عناقيد كعناقيد الخرنوب ، تتدلى كأنها العصي ، شديدة الخضرة ، ثم تسود إذا انتهت » (٦) .

وبدا ، أيضاً ، أن وصفه للنبات كان يستغرقه أحياناً : إلا أنه يشير ، غالباً ، إلى ما فيها من منافع للأبدان ... فبعد تحليله للنبتة التي سماها « الليقية » أو « الليقية » (بالقام) ، تلك التي رآها بصعيد مصر ، وفي العجاز حيث يسمونها « الملقم » ، وفي أرض الفلور بفلسطين ، وبطن مرو في خراسان ، يقول : أن جِراء هذه النبتة ،

التي هي على شكل جِراء « قشّاء الحمار » إلا أنها أكبر ٠٠٠ ان في داخل هذه الجِراء
شراً دلائمي الشكل ، « وهو عندهم نافع لحيات البطن » (٧) .

★ ★ ★

ان أبا العباس النباتي ، العالم المسكون بهاجس المعرفة وما يملّيه ذلك عليه من
الحرص على التتبُّع والتحري والاستقصاء، قد حدّثنا عنه المصادر التاريخية المعاصرة
له واللاحقة على مدى أربعة قرون ، بأن ترجمت حياته وعرفتنا بشخصه بنبيذ
صغيرة كان المؤرخون يتناقلونها ويتداولونها، موجزين أو متزيّدين .

والمصادر التي أمّثت بترجمة أبي العباس هي ، حسب تسلسلها الزمني :

- ١ - « التكملة لكتاب الصلة » لابن الأثير (ت ٦٥٨ هـ) ،
- ٢ - « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ) ،
- ٣ - « القدر المعلن في التاريخ المعلن » ، وبالأحرى « اختصاره » ، لابن سعيد المغربي
الأندلسي (ت ٦٨٥ هـ) .
- ٤ - « الذيل والتكملة الكتابي الموصول والصلة » لابن عبد الملك الأنصاري
المراكشي (ت ٧٠٣ هـ) ،
- ٥ - « تذكرة الحفاظ » للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ،
- ٦ - « الاحاطة في أخبار غرناطة » للسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) ،
- ٧ - « الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب » لابن فرحون (ت ٧٩٩ هـ) ،
- ٨ - « نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب » للمقري (ت ١٠٤١ هـ) .

وقد بدا أن واحداً من هؤلاء المؤرخين القدامى لم يتوقف عند صاحبنا أبي العباس
ليكتب عن علمه الغزير ! ولكن لاح ، أيضاً ، أنه لم يخطر لواحد من أبناء القرن العشرين
أن يفصل ذلك ، وفي تراثنا الكبير منات العلماء ، بل الألوف ، الثاؤون في بطون
المخطوطات ، هذه التي تشملها عتبات الخزائن المربية والعالمية ٠٠٠ فكيف يمكن
أن يدرس علم هذا الرجل ، وقد امتدت يد الإنسان والكوارث والزمن الى مؤلفاته
الخمسة عشر ، فلم يصل إلينا منها - في علمي حتى الساعة - مؤلف واحد ؟ وهل تقوم
دراسة ، حول علم عالم ، وعلمه غائب أو مفقود ؟

ضاعت مؤلفات أبي العباس النباتي كلها ، ما تعلق بعلم الحديث وكذلك تلك التي
صنفها في النبات ، وعددها - كما أحصيتها في المصادر - خمسة ، هي :

- ١ - « تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس » ،
- ٢ - « شرح حشائش ديسقوريدس وأدوية جالينوس » ،
- ٣ - « مقالة في تركيب الأدوية » ،
- ٤ - « التنبيه على أغلاط الفافقي في أدويته » ،
- ٥ - « الرحلة النباتية » .

أجل ، ضاعت مؤلفاته كلها . ولكن المصنفين في امتنا جروا على أن يأخذوا العلم والمعرفة بعضهم عن بعض ، بأن يستخرج أحدهم من كتب السابقين نصوصاً يستشهد بها في كتابه دعماً لرأيه أو استيفاءً للموضوع .

والذي فعله العشّاب الأندلسي ابن البيطار - معاصر أبي المباس وتلميذه - أنه ، استجابة لطلب صاحب مصر « الملك الصالح أيوب » ، قد انصرف إلى إعداد موسوعة جاءت في أربعة أجزاء هي « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ، جمع فيها ، بإحاطة استثنائية ، أسماء المفردات المعروفة في عصره ، ورتبها على حروف المعجم ، فكان يسمى المفردة النباتية ، وأحياناً الحيوانية والمعدنية ، ويدرج تحتها ما وصل إلى علمه من معارف الأطباء والنباتيين والعلماء حولها ، وذلك بأن يذكر اسم العالم تليه المعلومة المنسوبة إليه . وكان من نصيب أبي المباس أن المصنف استقى منه معلومات - حسب مسرد أعدده - في مئة ومفردتين اثنتين !

ولدى رجوعي إلى هذه الموسوعة ، وقفت فيها على نماذج وافية من علم أبي المباس النباتي ، استمدها التلميذ البار من كتاب أستاذه « الرحلة النباتية » ، الذي كان قد ألّفه من وحي رحلته المشرقية .

ومما لاحظته في المفردات ، المئة والاثنتين ، التي اقتبس ابن البيطار فيها معلومات من أبي المباس ، أن ما يرد في المفردة الواحدة من المعلومات كان نصيب أبي المباس فيها غالباً هو الأولي ؛ وأحياناً لم يكن يرد في المفردة إلا ما يقوله نباتيئنا الطلعة وحده ، وهذه أحصيتها فكانت ٣٨ مفردة .

ولكن ما يسترعي الانتباه ويستحق مزيداً من الإعجاب ، أن ٦٦ مفردة (من ال ١٠٢) قد انفرد عالمنا الإشبيلي بتعليقها فلم يشاركه في التحلية أحد ، وذلك يؤكد تفوقاً علمياً له على أقرانه من العلماء في المضمار الواحد .

★ ★ ★

□ الحواشي :

- ١ - « الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » ١ : ٤٨٧ ، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ، دار الثقافة ، بيروت (د٥) .
- ٢ - « الإحاطة في أخبار غرناطة » ١ : ٢١٣ و ٢٠٨ ، تحقيق حمد عبدالله عنان ، مكتبة الغانجي ، القاهرة ، ط الثانية ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ .
- ٣ - « ميون الأنباء في طبقات الأطباء » ، ص ٦٠١ ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت (د٥) .
- ٤ - « معجم البلدان » ٥ : ١١٢ - ١٤ ، طبعة مصورة ، دار أحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ .
- ٥ - « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » لابن البيطار ، ٤ : ٧٤ ، طبعة مصورة ، مكتبة المثنى ، بغداد (د٥) .
- ٦ - « جامع المفردات » ٢ : ٨١ .
- ٧ - « جامع المفردات » ٤ : ١١٧ .

أسباب الخلاف اللغوي وأسلوب البحث في تراث العالم

محمّد وليد حافظ

بدأ التفكير في تدوين اللغة وجمعها ، واستنباط قواعد النحو مع ظهور اللحن . فقد كانت حوادثه المتتابة نذير خطر هب على صوته أولو الغيرة على العربية والاسلام ، بدأ اللحن خفيفاً منذ أيام الرسول ﷺ ، ولم ينج منه حتى كثير من الخلفاء الأمويين وولاتهم .

أما المحرك الرئيس لنشأة العلوم العربية فهو الدين الجديد ، فان اهتمامهم بأحكامه حفز على تدوين الفقه والحديث ، ثم نشأة العلوم المتعلقة بهما . وعنايتهم بالقرآن الكريم حملتهم على الاهتمام بقراءاته وتفسيره ، فلم تنقض المئة الثانية للهجرة حتى كان للفقه كتبه ومذاهبه وأصوله ، وللدين كتبه وجدله وأصوله ومتكلموه وفرقه (١) . ثم جاء النحو يتقدم رويداً رويداً ، والذي تجمع عليه المصادر أن النحو نشأ بالبصرة ، وبها نما واتسع ، ثم انتقل الى الكوفة ، ومهما كان الرأي في واضع أول مؤلف نحوي فان الكتاب المدون الأول الذي وصل الى عصرنا هو كتاب سيبويه (- ١٨٠ هـ) .

كان الخليل (- ١٧٠ هـ) كما قال ابن جنّي « كاشف قناع القياس في علمه » (٢) . وليس مصادفة كما يقول بعضهم أن تعاصر مدرسة القياس في النحو مدرسة الرأي في الفقه ، التي رفع لواءها الإمام أبو حنيفة النعمان (- ١٥٠ هـ) ، فالمدرستان تكونتا في ظل تفتح العقل العربي .

وهكذا وضعت في القرن الثاني أسس العلوم ومناهجها . وبدأ كل علم يستقل بنفسه ، ويظهر الاختصاصيون فيه .

على أن ظهور مدرسة القياس في النحو العربي رافقه ظهور الخلافات النحوية ،

وتمايز مدرستي البصرة والكوفة ، وإذا كان بعض الباحثين يميل الى رد الخلاف الى أسباب سياسية ، مثل تشييع أهل البصرة للزبير وتشيع أهل الكوفة لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنهما) ، والى تقريب العباسيين للكسائي زعيم مدرسة الكوفة ، وأحد القراء السبعة ، فإننا نعلم أن الخلاف كان يدور حول أمور خطيرة هي السماع والقياس ، وإن جدلاً طويلاً دار حول من يحتج بكلامهم ، وإن أهل الكوفة اتهموا بالأخذ عن قبائل عربية كانت تعيش على تخوم الجزيرة العربية ممن خالطت العجمة السننهم ، وأنهم كانوا أميل الى الترخص في السماع . ونميل كذلك الى أن الاجتهاد ، وهو باب شرعه على مصراعيه تفتتح العقل العربي هو مفتاح الخلاف .

تطور الخلاف واشتدت حدته بتأثير السياسة والمصيبة والقبلية ، وأصبح مادة للتسلية حيناً ولشحن النفوس بالعداء حيناً . وقصة سيويه مع الكسائي في المسألة الزنبورية (٣) مأساوية حتى ليقال أن سيويه ذهب ضحيتها .

كان لا بد من البحث عن مخرج من الهوة التي وصل إليها الخلاف ، ينقذ النحو، وعلماء البلدين من الماهرات التي لا تخدم العلم في شيء ، فظهرت مدرسة أبي علي الفارسي (- ٣٧٧ هـ) التي حرصت على أن يكون النحو علماً كسائر العلوم ، بما تعنيه الكلمة من نزعة عقلية موضوعية وشمولية بمقدار حرصها في الوقت نفسه على أن يصل الانسان الى الايمان عن طريق العقل ، فسلكت سبيلين الى هذا الهدف ، وهما :

أولاً - فهم اللغة العربية التي استنبطت منها علومها فهماً موضوعياً عميقاً ، وذلك من خلال مقولتين ينطلق منهما اليوم علم اللغة الحديث . وهما :

١ - اللغة ظاهرة اعتباطية .

٢ - اللغة ظاهرة اجتماعية .

تعني المقولة الأولى وجود ظواهر في اللغة لا تملل ، أبرزها العلاقة بين اللفظة ومعناها أي بين الدال والمدلول ، ومنها ظاهرة العدل ، وظاهرة الاستغناء . . فعلينا تقبل هذه العلاقات الاعتباطية دون محاولة تحليلها .

وتعني المقولة الثانية أن المجتمع صاحب هذه اللغة ، فعلينا تقبل ما قاله المجتمع حتى العصر الذي ابتدأ فيه العلماء دراستهم الوصفية التحليلية الشاملة للغة العربية وهو ما يسمى اصطلاحاً بعصر الاحتجاج ، باعتبار العلاقة الاعتباطية أساساً ، أي دون حاجة الى أن نتساءل : لماذا قال العرب هذا أو ذاك من ألفاظ وتراكيب ، وننخدع ما قالوه قاعدة ، ثم تتطور اللغة عن طريق القياس ما دام المجتمع نفسه يتطور .

ثانياً - إذا تجاوزنا الظواهر التي لا تملل ، فإن سواها يعمل ، والتعليل معناه الإفهام عن طريق العلاقة السببية . وعلى أساس العلة الجامعة المانعة خطأ ابن جني الخطوة العاسمة على طريق وضع القاعدة اللغوية الشاملة المطردة (٤) .

كان ابن جني بعد استاذة أبي علي المرشح الأول لمهمة اخراج النحو من مازقه وذلك للأسباب التالية :

١ - مذهبه الاعتزالي : « والاعتزال منهج يستند الى تحكيم العقل ، وهو منهج في البحث والتجربة والاستدلال العقلي والشك والقياس » (٥) . « وقد كانت ثقة المعتزلة كبيرة بالعقل ، لا يحدها الا احترام أوامر الشرع ، فكل مسألة من مسائلهم يمرضونها على العقل ، فما قبل آقروه ، وما لم يقبل رفضوه » (٦) « وسلسلة علماء المعتزلة طويلة ، في طليعتهم سيبويه ، مروراً بالفراء والفارسي والزمخشري وابن يمش » .

٢ - تتلمذه الطويل على أبي علي الفارسي ، وأبو علي « قد خطر له وانتزع من علل هذا العلم ثلث ما وقع لجميع اصحابنا - يعني البصريين - » (٧) . ولا عجب فقد أقام على هذه الطريقة - يعني طريقة القياس والعقل - مع جللة أصحابها وأعيان شيوخها سبعمائة سنة ، لا يمتاؤه ولد ، ولا يخدم به رئيساً » (٨) . وقد لازم ابن جني أبا علي منذ عام ٣٣٧ هـ عام اجتياز أبي علي بالموصل الى حين وفاة الأستاذ عام ٣٧٧ هـ ، وهي ملازمة لم تقتصر على التلمذ ، فقد غدا التلميذ نداً لأستاذه ، مستشاراً فيما يعرض للاستاذ من مسائل ، على نحو ما نرى في مواضع كثيرة من الخصائص » (٩) .

٣ - نضوجه العلمي زمن تأليفه « الخصائص » وهو الكتاب الذي ألفه في أواخر عمره بعد وفاة أستاذه عام ٣٧٧ هـ ، أي بعدما بلغ ابن جني الستين من عمره ، وقبل وفاته ببضعة عشر عاماً على الأكثر ، وبعد فراغه من كتب هامة له ، مثل سر الصناعة ، وشرح تصريف المازني .

٤ - تفكيره الموضوعي القائم على احترام متقدميه احتراماً عميقاً دون الخضوع لأرائهم ، وما وصلوا اليه من نتائج . ويتجلى هذا الاحترام في تجنب أي اهانة لسابقيه مما نلاحظه لدى العلماء المتأخرين من أمثال أبي حيان النحوي (- ٧٤٥ هـ) وابن هشام الأنصاري (- ٧٦٢ هـ) ويتجلى بوضوح أكثر فيما نورد من طريقة مناقشته لأرائهم ، وتتجلى حريته الفكرية في مبدئه الصريح : « للانسان أن يرتجل من المذاهب ما يدهو اليه القياس ، ما لم يلو بنص ، أو ينتهك حرمة شرع » . واجماع أهل البلدين - يعني البصرة والكوفة - إنما يكون حجة اذا أعطاك خصمك يده ألا يخالف المنصوص والمقيس على المنصوص ، فأما ان لم يعط يده بذلك ، فلا يكون اجماعهم حجة عليه » (١٠) لأن النحو علم منتزع من استقرار هذه اللغة « فكل من فرق له من علة صحيحة ، وطريق نهجة كان خليل نفسه ، وأبا عمرو فكره » (١١) .

هذا مع وضع شروط قاسية لمخالفة المتقدمين ، منها « أن يناهضه اتقاناً ، ويثابته عرفاناً ، ولا يغلد الى سانح خاطره ولا الى نزوة من نزوات فكره » . غير معاز به - أي برأيه - ولا غاض من السلف » (١٢) .

شعر ابن جني ، وهو العالم المزود بصفات العالم السالفة الذكر ، الى جانب صفات بدهية مثل الصبر الشديد ، وعدم التعنت ، بالحاجة الى دراسة اللغة دراسة

شاملة لاستخلاص أسرارها كما يقول الأستاذ سميد الأفغاني (١٣) . ولا أدل على هذا الغرض من عنوانه كتابه بالخصائص ، وبالجملة إلى تأسيس علم أصول النحو على غرار علم أصول الفقه ، ولا سيما أنه وجد أن « الرفع والنصب والجزم أمر فرغ منه في أكثر الكتب المصنفة فيه » (١٤) وقد بحث عن عمل أسلافه ، فلم يجد إلا عمليْن لم يرضيا طموحه ، أحدهما للأخفش (٢١٥ هـ) والثاني لأبي بكر السراج (٣١٦ هـ) .

والنحو في مفهوم ابن جني ليس قسيم الصرف ، على نحو ما يفهم في العصور المتأخرة وإنما هو « انتحام سمت العرب في تصرفه من أعراب وغيره ، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والاضافة والنسب والتركيب ، وغير ذلك » (١٥) . ونستطيع أجمالاً صنييع ابن جني في تأسيس أصول النحو ودراسة خصائص اللغة في الوصول إلى النظام العام للغة عن طريق بحث القوانين العامة لها ، وعن طريق طرد هذه القوانين من خلال القياس . ففصل الكلام على قواعد القياس ، وعلى أنواع العلل ، وعلى طريقة الوصول إلى العلة الجامعة التي لا يطمئن فيها طاعن لتأسيس القاعدة اللغوية الشاملة .

أما أسباب اختلاف العلماء في نظر ابن جني ، فلا بد من الإشارة بادئ الأمر إلى أنه لا يطمئن في خلق أحد من متقدميه ، ولا في علمه ، ولا يشك في نزاهة أحد منهم ، ولا يردّ الخلاف إلى أسباب مزاجية أو عصبية أو سياسية ، وهو يوثق متقدميه ، ويصدق ما نقله السلف ، ويبحث المشكلة بحثاً موضوعياً منطلقاً من طبيعة اللغة العربية نفسها ، وطبيعة العلل التي تتحكم في العلاقات اللغوية ، والدلالات التي تعملها الألفاظ ، وطبيعة البحث العلمي نفسه .

١-١ : أن اللغة العربية التي استخلصت منها القواعد لم تكن لغة واحدة . ويحدث أن يجتمع في كلام الفصيح لغتان فصاعداً (١٦) مثل اجتماع (سقى) و (أستقى) بمعنى واحد في بيت البييد :

سقى قومي بني مجد واسقى نميراً والقبائل من هلال

و « ولى » و « أوفى » في بيت طغيلة الغنوي :

أما ابن طوق فقد أوفى بلمته كما ولى بقلاص النجم حاديها (١٧)

ومن ذلك قولهم (بغداد) و (بغدان) ، ويجوز أن تكون للقبيلة الواحدة لفطتان للمعنى الواحد ، متساويتان في الاستعمال ، أو أن تستعيرها من قبيلة أخرى فتلتحق اللفظة الدخيلة بطول الاستعمال باللفظة الأولى (١٨) .

ويروي ابن جني عن الأصمعي حكاية الرجلين اللذين اختلفا في « الصقر » أهو بالسين أم بالصاد ، فتراضيا بأول وارده عليهما ، فحكيا له ما هما فيه ، فقال : لا أقول كما قلتما ، إنما هو « الزقر » ويعقب قائلاً : « ألا ترى إلى كل واحد من الثلاثة كيف أفاد في هذه الحال إلى لفته لغتين أخريين معها ، وهكذا تتداخل اللغات » (١٩) بل يفرد

باباً خاصاً لتركب اللغات (١٠) ، وباباً خاصاً باختلاف اللغات وكلها حجة (٢١) وباباً خاصاً في العربي الفصيح ينتقل لسانه (٢٢) ويسمع لغة غيره ، أيراعونها ويعتمدها أم يلغونها ويطرح حكمها (٢٣) .

ولا يخفى على قارئ الخصائص تتابع الأبواب الثلاثة الأخيرة ، وإن الباب السابق لها لا يبعد عنها كثيراً ، مما يؤكد الحاج ابن جني على هذه المسألة .

ويصيب ابن جني كبسد الحقيقة في معرض دفاعه عن سيبويه حين يذكر الأمثلة التي فانتسه في « الكتاب » في قوله « وإن انساناً أحاط بقاصي هذه اللغات المنتشرة وتحجر أذراها (٢٤) المترامية على سعة البلاد ، وتعادي السننها للداد ، وكثرة التواضع بين أهلها من حاضر وباد ، حتى اغترق (٢٥) جميع كلام الصرحاء والهجناء ، والعبيد والإماء في اطرار الأرض ، ما بين منشور ومنظوم ، ومخطوب به ومسجوع ، حتى لغات الرعاة الأجلاف ، والرواعي ذوات صرار الأخلاف (٢٦) ، وعقلائهم والمدخولين ، وهذاتهم الموسوسين ، في جدهم وهزلهم ، وحريهم وسلمهم . فلم يخلل من ذلك - على سمته وانبثائه ، وتناثره واختلافه - إلا بأحرف تافهة المقدار ، متهاففة على البحث والاعتبار ، ولعلها أو أكثرها مأخوذة عن فسدت لفته ، فلم تلزم عهدته ، لجدير أن يعلم بذلك توفيقه ، وأن يخلى له إلى غايته طريقه » (٢٧) .

٢-١ : ثم إن اللغة سواء كانت تواضعا أم الهاما لم تكن في وقت واحد « فانها لا بد أن يكون وقع في أول الأمر بعضها ، ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه ، لحضور الداعي اليه ، فزيد فيها شيئاً فشيئاً » (٢٨) وهذه الأشياء التي أضيفت على قياس ما كان وضع في الأصل مختلفاً ، وإن كان كل واحد أخذاً من صفة القياس حفظاً ، ويجوز أيضاً أن يكون الموضوع الأول ضرباً واحداً ، ثم رأى من جاء من بعد أن خالف قياس الأول إلى قياس ثان جازر في الصفة مجرى الأول .

أما أهل الوبر فتناقلوا كلام أبائهم وأجدادهم ، وليس كذلك أهل الحضرة ، لأنهم يتظاهرون بينهم بأنهم قد تركوا وخالفوا كلام من ينتسب إلى اللغة العربية الفصيحة وأخلطوا بأشياء من أعراب الكلام » (٢٩) .

٣-١ : ناهيك عن « كثرة هذه اللغة ، وسعتها ، وغلبة حاجة أهلها إلى التصرف فيها » (٣٠) و « شدة تداخلها ، وتزاحم الألفاظ والأغراض على جهاتها » (٣١) .

٢-١ : قد يكون للحكم الواحد علتان أو أكثر منهما ، كرفع المبتدأ ، فالبحريون يمثلون لرفعه بالابتداء ، والكوفيون يرفعونه إما بالجزء الثاني الذي هو مرافقه عندهم ، وإما بما يمود عليه من ذكره على حسب مواقفه (٣٢) ، وكذلك رفع الخبر ، ورفع الفاعل ، ويعقب ابن جني على هذا تعقيباً عميق الدلالة وصريحها : « وعلى هذا باب معظم العربية » (٣٣) .

٢-٣ : وقد تدعو هلتان مختلفتان الى حكمين في الشيء الواحد ، مثل اعمال أهل الحجاز ما النافية للحال ، واهمال بني تميم لها ، والسبب أن أهل الحجاز كأنهم لما رأوها داخلية على «المبتدأ والخبر دخول » ليس «عليهما ، ونافية للحال نفيها اياها اعمالوها عملها اذ اجتمع فيها الشبهان بهما ، أما بنو تميم فلما رأوها حرفاً داخلها بمعناه على الجملة المستقلة بنفسها ، ومباشرة لكل واحد من جزأيهما ، أجروها مجرى « هل » (٣٤) .

٣-١ : ويسمى الشيء فيستدل به من وجهه على تصحيح شيء أو افساد غيره ، ويستدل به من وجه آخر على شيء غير الأول ، مثل اتصال الضمير المنصوب بالمرفوع في نحو (أكرمه) فهذا موضع يمكن أن يستدل به على شدة اتصال الفعل بفاعله ، ولكنه يفسد استدلال من قال : أن المفعول به انما نصبه الفاعل وحده ، لا الفعل وحده ، ولا الفعل والفاعل جميعاً (٣٥) .

٣-٢ : وقد يرد شيء من اللفظ ، فيجوز جوازا صحيحا أن يستدل به على أمر ما ، وأن يستدل به على ضده الهية ، وذلك نحو «مرت بزيد ، ورغبت في عمرو » فالدلالة الأولى لهذه الأفعال الموصولة بحرف الجر أن الجار معتد من جملة الفعل الواصل به ، لأن الباء في نحو «مرت بزيد » ماقبة لهمزة النقل في نحو «أمرت بزيدا » . والدلالة الثانية هي أن حرف الجر جار مجرى بعض مجروره ، لأنك تحكم لموضع الجار والمجرور بالنصب ، فتعطف عليه بالنصب ، فتقول : «مرت بزيد وعمرا » ، ولأنه لا يفصل بين الجار والمجرور . وهكذا استخلصت من اللفظ الواحد دالتان كلتاها مقبولة في القياس (٣٦) .

٤-١ : «العلماء اختلفوا في الاعتلال لما اتفقت العرب عليه ، كما اختلفوا أيضا فيما اختلفت العرب فيه ، وكل ذهب مذهبا ، وإن كان بعضه قويا ، وبعضه ضعيفا » (٣٧) .

٤-٢ : يستعرض ابن جنسي في باب « صدق النقلة ، وثقة الرواة والجملة » (٣٨) المشهورين من علماء السلف ، مثنيا على خلقهم ، فعلى (رضي الله عنه) بادي هذا العلم ، والمرشد اليه ، ثم ابن عباس (رضي الله عنه) ، ثم أبو الأسود الدؤلي . وهذا أبو عمرو بن العلاء يعترف بأنه زاد في شعر العرب بيتا واحدا :

وانكرتني وما كان الذي تكرت من الحوادث الا الشيب والصلعا

فيتخلص من تبعات هذا العلم وتحرجه ، ويتحوب الى الله . وهذا الأصمعي صناجة الرواة والنقلة حذف من اللغة الكثير لأنه لم يبق عندنا إذا لم يسمعه . وكفاه ثقة أنه توقف عن تفسير القرآن الكريم ، وحديث النبي ﷺ ، فكيف يتهم بالزيادة في كلام العرب . ونظيرهما أبو زيد ، وأبو عبيدة ، وأبو حاتم ، والكسائي ، وسيبويه ، وأبو علي الفارسي الذي « كان من تحو به وتأنيه وتحرجه كثير التوقف فيما يحكيه ، دائم الاستظهار لا يراد ما يرويه ، فكان تارة يقول : أنشدت الجريير فيما أحسب ، وأخرى : قال لي أبو بكر فيما أظن » (٣٩) .

فما الذي أوقع الخلاف بين علماء على هذا الخلق والمفئة والنزاهة ؟ انه شرف هذا العلم ، وكرم هذا الأمر من جهة ، والحرص الشديد من العلماء على هذا العلم ، وتحريمهم الصدق والدقة من جهة أخرى « ولعل أكثر من يرمى بسقطة في رواية ، أو غمر في حكاية محمي الصدق فيها ، يرى عند الله ذكره من تبعها ، لكن أخذت عليه اما لاهتنان شبهة عرضت له . . . واما لأن ثاليه و متمييه مقصر عن مفزاه ، مفضوض الطرف دون مداه . . . فلولاً أن هذا العلم في نفوس أهله كريم الطرفين ، جدد السمتين لما تسابوا بالهجنة فيه ، ولا تنابزوا بالألقاب في تحصين فروجه ونواحيه ، ليطلوا ثوبه على أعدل غروره (٤٠) ومطابويه » (٤١) .

٣-٤ : « لا يمنع العالم قوة القوي من اجازة الوجه الآخر اذا كان ذلك الوجه من مذاهبيهم وعلى سمت كلامهم » (٤٢) ولا بد أنذاك أن الوجه الذي أفق به هو أظهرها عنده . ومن أمثلته رأي سيبويه في قولهم « له مائة بيضا » « انه حال من الفكرة ، وان جاز أن يكون (بيضا) حالا من الضمير المعروفة في (له) ، وعلى ذلك حمل قوله : لمزة موحشا طلس (٤٣)

فقال فيه : انه حال من النكرة ، ولم يحمله على الضمير في المظرف ، أفيحسن بأحد أن يدعي على أحد متوسطينا أن يخفى هذا الموضع لديه ، فضلا عن المشهود له بالفضل : سيبويه » (٤٤) .

٤-٤ : وقد يفتي العالم بالوجه الأضعف لأنه صحيح على الحالات « ووجه الحكمة في الجمع بين اللفتين : القوية والضعيفة في كلام واحد أن يروك أن جميع كلامهم ، وان تفاوتت أحواله على ذكر منهم ، وثابت في نفوسهم ، وليؤنسوك بذلك ، حتى اذا رأيتهم وقد جمعوا في عقد واحد بين ما يقوى ويضعف كنت اذا أفردت الضعيف منهما بنفسه ، ولم تضممه الى القوي ، فيتبين به ضعفه وتقصيره عنه ، انس به وأقل احتشاما لاستعماله » (٤٥) . وقد رأى العلماء في مثل هذا « سعة في التفسح ، وإرخاء للتنفس ، وشعاً على ما جشموه فتواضعوه أن يتكارهوه فيلفوه ، ويطرحوه ، ونظير هذا الانسان يكون له ابنان أو أكثر من ذلك فلا يمنعه من ذلك نجابة النجيب منهما الاعتراف بأدونهما ، وجمعه بينهما في المقام الواحد اذا احتاج الى ذلك » (٤٦) .

ويظهر هذا التفسير الحرص الشديد من ابن جني على الفاظ هذه اللفظة وأوجه استعمالها حرص الأب على أبنائه ، ومثل له بأكثر من مثال ، منها قول الفرزدق :

كلاهما حين جدء الجري بينهما قد اقلعا وكلا أنفيهما راب

« فقولاه : (كلاهما قد اقلعا) ضعيف لأنه حمل على المعنى ، وقوله (كلا أنفيهما راب) قوي لأنه حمل على اللفظ » (٤٧) وجعل ابن جني منه قوله تعالى « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٤٨) فحمل أول الآية على اللفظ وأخرها على المعنى ، والحمل على اللفظ أقوى (٤٩) ، وقرأ عبارة « ولا الليل سابق

النهار» (٥٠) «فقال أبو المباس : ما أردت؟ فقال أردت : سابق النهار» ، فقال : فهلا قلته ، فقال عماره : لو قلته لكان أوزن» (٥١) .

كيف نناقش مواقف العلماء ونختار من بين آرائهم وعللهم ؟

١ - يجب اختيار الرأي الأقوى ورفض الرأي الأضعف « فمنها - أي من تقاود السماع وتقاوع الانتزاع (٥٢) - أن يكثر الشيء فيسال عن علته ، كرفع الفاعل ونصب المفعول ، فيذهب قوم الى شيء ، ويذهب آخرون الى غيره ، فقد وجب اذا تأمل القولين واعتماد اقوامهما ورفض صاحبه» (٥٣) .

٢ - « فان تساويا في القوة لم ينكر اعتقادهما جميعاً ، فقد يكون الحكم الواحد معلولاً بمثلين» (٥٤) «وأفرد له ابن جني الباب التاسع عشر من الخصائص» .

٣ - قد يرد عن العالم الواحد رأيان متضادان ، وهنا ترد الاحتمالات التالية :

أ - اذا كان أحد القولين مرسلًا والثاني معللًا ، اخذ المعلل وتؤول المرسل ومثاله قول سيبويه في التام من (بنت) و(أخت) انها للتأنيث (٥٥) وقوله مع ذلك في باب ما ينصرف وما لا ينصرف : « انها ليست للتأنيث» (٥٦) . والقول الأول مرسل ، والثاني معلل من سيبويه بأن ما قبلها ساكن ، وتام التأنيث في الواحد لا يكون ما قبلها ساكنًا الا أن يكون ألفًا ، كقناة وفتاة . ويرى ابن جني الا يحمل القولان على التضاد ، بل يحمل قوله : « انها للتأنيث » على المجاز ، « ووجه الجمع بين القولين ان هذه التام وان لم تكن عندهم للتأنيث فانها لما لم توجد في الكلمة الا في حال التأنيث استجاز أن يقول فيها : انها للتأنيث ، الا ترى أنك اذا ذكرت قلت : « ابن » فزالت التام كما تزول التام من قولك « ابنة » فلما ساوقت تام « بنت » تام « ابنة » وكانت تام « ابنة » للتأنيث قال في تام « بنت » ما قال في تام « ابنة » . وهذا من أقرب ما يتسمعه في هذه الصناعة» (٥٧) .

ب - أن يكون القولان غير معللين ، فينظر حينذاك الى الاليتق بالمذهب ، والا جرى على قوانينه فيجمل هو المراد المعتمد منهما ، ويتأول الآخر ان أمكن .

والمثال أيضاً من الكتاب « كقوله - أي سيبويه : « حتى » الناصبة للفعل (٥٨) . وقد تكرر من قوله انها حرف من حروف الجر . وهذا ناف لكونها ناصبة له ، من حيث كانت عوامل الأسماء لا تبائر عوامل الأفعال ، فضلاً من أن تعمل فيها . وقد استقر من قوله في غير مكان ذكر عدة الحروف الناصبة للفعل ، وليست فيها « حتى » ، فعلم بذلك وبهتصه (٥٩) عليه في غير هذا الموضع ان (أن) مضمرة عنده بعد حتى ، فالمذهب اذا هو هذا . ووجه القول في الجمع بين القولين بالتأويل ان الفعل لما انتصب بعد (حتى) ، ولم تظهر هناك (أن) وصارت (حتى) عوضاً عنها ونائبة عنها نسب النصب الى (حتى) وان كان في الحقيقة (أن)» (٦٠) .

ودعم ابن جني موقفه بمثال معنوي ، هو قوله تعالى « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» (٦١) فظاهر هذا تناف بين العالتين ، ووجه الجمع بينهما أنه لما كان الله أقدره

على الرمي ، ومكنه منه ، وسدد له ، وأمره به ، فأطاعه في فعله ، نسب الرمي الى الله ،
وان كان مكتسباً للنبي ﷺ ، مشاهداً منه « (٦٢) » .

ج - « ان يرد اللفظان عن المالم متضادين ، غير انه قد نص في أحدهما على
الرجوع عن القول الآخر ، فعلم بذلك أن رأيه مستقر على ما أثبتته ولم ينفسه ، وان
القول الآخر مطروح من رأيه » (٦٣) .

ويميز في هذه الحالة حالتين فرعيتين :

١ - « ان تمارض القولان مرسلين غير مبان أحدهما من صاحبه بقاطع يحكم به
عليه ، بحث عن تاريخيهما ، فعلم أن الثاني هو ما اعتزمه وان قوله به انصراف منه عن
القول الأول اذا لم يوجد في أحدهما ما يجازيه عن صاحبه » (٦٤) .

٢ - « فان استبهم الأمر فلم يعرف التاريخ وجب سبر المذهبين ، وانعام الفحص
عن حال القولين ، فان كان أحدهما أقوى من صاحبه وجب احسان الظن بذلك العالم ، وان
ينسب اليه أن الأقوى منهما هو قوله الثاني . . . وان الأضعف منهما هو الأول منهما
الذي تركه الى الثاني . فان تساوى القولان في القوة وجب أن يعتقد فيهما أنهما رأيان له ،
فان الدواعي الى تساويهما فيهما عند الباحث عنهما هي الدواعي التي دعت القائل بهما
الى أن اعتقد كلاهما ، وعليه طريق الشافعي في قوله بالقولين فصاعداً ، وقد
كان أبو الحسن ركاباً لهذا الشبح (٦٥) أخذاه غير محتشم منه ، وأكثر كلامه في عامة
كتبه عليه . . . ومن الشائع في الرجوع عنه من المذاهب ما كان أبو العباس تتبع به كلام
سيبويه ، وسماه مسائل الفلط ، فحدثني أبو علي عن أبي بكر أن أبا العباس كان
يمتدح منه ، ويقول : هذا شيء كنا رأيناه أيام الحداثة ، أما الآن فلا . وحدثنا أبو علي
قال : كان أبو يوسف (٦٦) اذا أفق بشيء أو أمل شيئاً ، فقليل له : قد قلت في موضع
كذا غير هذا يقول : هذا يعرفه من يعرفه ، أي اذا أنعم النظر في القولين وجدنا مذهباً
واحداً » (٦٧) .

ومن أمثلة الآراء المتضادة من العالم الواحد ما كان يراه أبو علي في « هيهات »
انها اسم فعل تارة ، وانها ظرف تارة أخرى ، على قدر ما يحضره في الحال ، وفي الفاصل
بين (أما) وجوابها أنها تارة جملة شرط ، وتارة اسم مفرد ، و « هذا ونحوه من خلاج
الغاطر وتمادي المناظر دعا أقسوماً الى أن قالوا بتكافؤ الأدلة » (٦٨) وهذا كما هو واضح
يعود بنا الى الدلالات المختلفة للفظ الواحد ، وهو ما تقدم في الفقرة الثالثة من أسباب
اختلاف العلماء .

وسبب تغير الغاطر في رأي أبي علي أنه من عند الله ، ولكنه لا يأتي أيثا كان ، فلا بد
من أن يكون الانسان مؤهلاً علمياً ، يقول أبو علي : « الا أنه لا بد من تقديم النظر ،
الا ترى أن حامداً يقال لا يخطر له » (٦٩) .

وينبئ ابن جنى في هذه المناسبة الى ضرورة تسجيل الغاطر ، وعدم الاعتماد على الحافظة ويروي أنه رأى في حديثه معنى يجمع بين آية كريمة وبیت من الشعر ، ولم يشب رأيه كتابة . ثم انه بعد مضي سنين طوال كدّ ذهنه ليذكر وجه الجمع الذي ارتأه فيما مضى ، فلم تسمعه ذاكرته (٧٠) .

وختاماً للبحث نقول : اذا كنا أفضنا بعض الافاضة في السبب الأخير من أسباب اختلافات العلماء وهو طبيعة البحث العلمي ، وما بني عليه من منهج في مواقفهم والاختيار من بين آرائهم فعدونا أن السبب الأول ، وهو طبيعة اللغة العربية أعقد من أن يحيط به بحث أو باحث ، بله أن بيت فيه ، أما السبب الثاني وهو طبيعة الملل التي تتحكم في العلاقات اللغوية فقد أشبعه ابن جنى بحثاً في الخصائص ، فشرح أنواع العلة من موجبة ، ومجوزة ، واحتياطية ، وسمى كما سبق في المقدمة الى التخلص من تخصيص الملل للوصول الى العلة الجازمة ، أما السبب الثالث وهو ما يتعلق بالدلالات فينظر اليه في رأينا على ضوء النظام العام للغة الذي هو محور الجهد الرئيسي في «الخصائص» والذي يجب أن يكون الضابط لاجتهاد المجتهدين في هذه اللغة .

□ العواشي :

- ١ - انظر « في اصول النحو » للاستاذ سيد الأفغاني ص ١٠٠ .
- ٢ - الخصائص ١/٣٦١ .
- ٣ - خلاصتها أن يحيى بن خالد البرمكي ، جمع في مجلسه بين سيبويه والكسائي ، فقال الكسائي سيبويه : كيف تقول : (قد كنت اظن المغرب أشد لسة من الزنبور فاذا هو هي ، او فاذا هو ايها ؟ فقال سيبويه : « فاذا هو هي » ولا يجوز النصب . فقال له الكسائي : لعنت . فاحتكم الى فصحاء العرب الذين كانوا بالباب ، فابيدوا الكسائي . ولا خلاف في أن الحق الى جانب سيبويه ، وتؤيده شواهد كثيرة من القرآن الكريم ، مثل « فاذا هي بيضاء » الأعراف ١٠٨/٧ و « فاذا هي حية تسمى » طه ٢٠/٣٠ و « فاذا هي شاحصة » الانبياء ٩٧/٢١ وانظر مجالس نعلب وأما ابن السجري ٢٢٩/١ والانصاف في مسائل الخلاف ٧٠٢ وفي اصول النحو ١٨٠ .
- ٤ - انظر الجزء الأول من الخصائص ، باب « تخصيص الملل » .
- ٥ - في اصول النحو ١٠٤ نقلاً عن مقالة للاستاذ احمد امين في مجلة مجمع اللغة العربية في دورة ١٩٤٩ .
- ٦ - المذاهب الاسلامية . احمد أبو زهرة ص ٢١٥ .
- ٧ - الخصائص ١/٢٠٨ .
- ٨ - الخصائص ١/٢٧٧ .
- ٩ - انظر مثلاً الخصائص ١/٢٣١ و ١/٣٨٧ .
- ١٠ - الخصائص ١/١٨٩ .
- ١١ - الخصائص ١/١٩٠ .
- ١٢ - الخصائص ١/١٩٠ .
- ١٣ - في اصول النحو ٩١ .
- ١٤ - مقدمة الخصائص للمؤلف .
- ١٥ - الخصائص ١/٣٤٠ .
- ١٦ - انظر الباب ٥١ من الجزء الأول من الخصائص .
- ١٧ - اللسان (وفي) .
- ١٨ - انظر الخصائص ١/٣٧٢ .
- ١٩ - الخصائص ١/٣٧٤ .
- ٢٠ - هو الباب الثاني والفصون من الخصائص ج ١/٣٧٤ .
- ٢١ - هو الباب السادس والفصون من الخصائص ج ٢/١٠ .
- ٢٢ - هو الباب السابع والفصون من الخصائص ج ٢/١٢ .
- ٢٣ - هو الباب الثامن والفصون من الخصائص ج ٢/١٤ .
- ٢٤ - أي اطرافها وحواشيها ، الواحد ذرو ، العرب الموارد (ذرو) .
- ٢٥ - أي استوعب .
- ٢٦ - هو خيط يشد فوق خلف العلوية لئلا يرضعها ولدها . والأخلاف جمع خلف بكر الغاء وسكون اللام وهو للحيوان كالشدي للانسان .
- ٢٧ - الخصائص ٣/١٨٩ .
- ٢٨ - الخصائص ٢/٢٨ .
- ٢٩ - الخصائص ٢/٢٨ .



- ٤٨ - البقرة ١١٢/٢ •
٤٩ - الفصائل ٣١٤/٢ •
٥٠ - يس ٤٠/٣٦ •
٥١ - الفصائل ٣١٨/٣ وانظر ١٢٥/١ •
٥٢ - تفاوت السماع اطراذه وعدم اختلافه ، كرفع الفاعل اتفق السماع فيه • وتعارض الانتزاع اختلاف الاستنباط •
انظر الباب التاسع من الفصائل وحاشية المحقق رقم ٦ ص ١٠٠ •
٥٣ - الفصائل ١٠٠/١ •
٥٤ - الفصائل ١٠١/١ •
٥٥ - الكتاب (بولاق) ٨٢/٢ و ٣٤٨/٢ •
٥٦ - الكتاب (بولاق) ١٣/٢ •
٥٧ - الفصائل ٢٠٠/١ •
٥٨ - الكتاب ٤١٣/١ : (اعلم ان حتى تنصب على وجهين) •
٥٩ - انظر الكتاب ٤٠٧/١ •
٦٠ - الفصائل ٢٠٤/١ •
٦١ - الانفال ١٧/٨ •
٦٢ - الفصائل ٢٠٤/١ •
٦٣ - الفصائل ٢٠٥/١ •
٦٤ - الفصائل ٢٠٥/١ •
٦٥ - الشيخ ما بين الكاهل الى الظهر ، ولج الشيء أصلا ومغظمه ووسطه ، أقرب الموارد (شيخ) •
٦٦ - هو القاضي يعقوب بن ابراهيم (- ١٨٢ هـ) حافظ محدث فقيه ، لازم أبا حنيفة ، وولي قضاء بغداد (المعارف لابن قتيبة ٤٩٩) •
٦٧ - الفصائل ٢٠٥/١ - ٢٠٦ •
٦٨ - الفصائل ٢٠٦/١ • وتكافؤ الأدلة تساويها ، فلا ينصر مذهب على مذهب ، ودلالة كل مقالة من القائلين به مكافئة لدلالة سائر المقالات •
٦٩ - الفصائل ٢٠٧/١ •
٧٠ - انظر الفصائل ٢٠٧/١ •
٣٠ - الفصائل ٢١٥/١ •
٣١ - الفصائل ١٨٣/١ •
٣٢ - انظر الفصائل ١٦٦/١ والانصاف في مسائل الخلاف ٤٤ •
٣٣ - الفصائل ١٠١/١ •
٣٤ - انظر الفصائل ١٦٧/١ •
٣٥ - القائل بان ناصب المفعول به هو الفاعل وحده هو هشام ابن معاوية الضير ، والقائلون بان ناصبه الفعل والفاعل جميعا هم الكوفيون • وانظر المسألة مفصلة في الانصاف في مسائل الخلاف ٧٨ - ٧٩ وشرح الرضي على الكافية ٢١/١ وانظر الفصائل ١٠١/١ •
٣٦ - انظر الفصائل ١٠٦/١ •
٣٧ - الفصائل ١٦٨/١ •
٣٨ - هو الباب التاسع والخمسون بعد المائة من الفصائل ج ٣٠٩/٣ •
٣٩ - الفصائل ٣١٣/٣ •
٤٠ - جمع حر ، وغرور الشوب مكاسره ، اي حيث ينثني وينكسر •
٤١ - الفصائل ٣١٢/٣ •
٤٢ - الفصائل ٤٩٢/٢ •
٤٣ - تمامه : يروح كانه خلل • وهو لكثير عزة ، ويروي : لمية • فينسب الى ذي الرمة وانظر الكتاب لسبويه ٧٩/١ •
٤٤ - الفصائل ٤٩٢/٢ •
٤٥ - الفصائل ٣١٧/٣ •
٤٦ - الفصائل ٣١٨/٣ - ٣١٩ •
٤٧ - الفصائل ٣١٤/٣ • والبيت في هجاء جرير لما زوج ابنته لابن اخي امراته ، ثم طلقها • اي اترقا حين وقعت الالف بينهما ، ووقف قبل الوصول الى الغاية • انظر شرح أبيات المضي للبغدادي ٢٩٠/٤ • وقال الدكتور عبد الرحمن بدوي في « المطلق الصوري والرياضي » ص ٥٥ - ٦٠ : « من الواجب مراعاة المعنى ، فان استعمال - اي كلا وكلتا بمعنى جمعي جاء الفعل بعدهما في حالة التثنية بالضرورة ، وان استعمالا بشكل استغراقي وجب أن يأتي الفعل بعدهما في حالة الافراد » •

ابن رشد العالم والفيلسوف

حسن الكاتب

من أرسطو نفسه • وبدون ريب فإن ابن رشد هو مؤسس الفكر الحر ، فقد فتح أمام علماء أوروبا البحث والمناقشة على مضاريعها ، لذا فإنه أخرجها من ظلمات التقيد الى نور العقل والتفكير (٢٢) •

ولقد طغى نشاط ابن رشد الفلسفي على شهرته المرموقة ، وثقافته الفياضة في العلوم الأخرى ، مثل الطب والفلك • وقد ذكر جورج سارتون في كتابه « المدخل الى تاريخ العلوم » : « ان شهرة ابن رشد في عالم الفلسفة كادت أن تحجب منجزاته الطبيعية ، على أن ابن رشد كان يعتبر في الحقيقة من أكبر الأطباء في عصره • فقد ألف نحو عشرين كتاباً في الطب ، بعضها تلخيصات لكتب جالينوس ، وبعضها مصنفاً ذاتية ، وقد ترجم أكثرها الى العبرية واللاتينية ، وأشهرها (كتاب الكليات في الطب) وهو موسوعة طبية في سبعة مجلدات ، ترجمه الى اللاتينية الطبيب بوناكوزا من جامعة بادوا في سنة ١٢٥٥ ميلادية ، وطبع مرات عديدة مضافاً اليه كتاب (التيسير) لابن

● لا شك في أن ابن رشد كان أحد كبار فلاسفتنا الذين يزخر بهم تاريخنا المجيد ، وقد ترك لنا مآثر علمية جلية ، استفادت منها بلاد الغرب التي تنعم الآن بعضارة راقية ، وقد كان لابن رشد وغيره من علماء العرب والمسلمين ، الفضل الأول في بناء قاعدة تلك الحضارة • فقد استمد الغرب من تراثنا الغالد ، ذلك التراث الذي ما زال طلاب العلم الغربيون ينهلون منه في جامعاتهم ، وفي مجالات بحوثهم ودراساتهم • وقد بحث ابن رشد كثيراً في الفلسفة ، ولكنه لم يترك الحقول الأخرى ، فمكث على القراءة والكتابة ، ويروى أنه لم ينقطع عن القراءة والكتابة الا في ليلتين احدهما كانت عند وفاة والده ، والثانية كانت ليلة زواجه ، فقد ألف ابن رشد في الفيزياء والفلك والطب والفلسفة وغيرها (١) وصدق المؤلف المعروف جورج سارتون عندما قال في كتابه : « المدخل الى تاريخ العلوم » : « ان ابن رشد كان من أكابر فلاسفة الاسلام ولقد أثر على فلاسفة أوروبا بفلسفته أكثر

لابن رشد كتاباً آخر اسمه « التيسير » في
المداواة والتدبير (٨) .

وفي سنة ٥٤٨ هجرية قدمه ابن طفيل الى
أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٩) الذي
يعد المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين وكان
الفيلسوف ابن طفيل ذا تأثير على هذا السلطان
وكان السلطان يعتمد عليه في جلب العلماء والحكام
الى بلاطه ، وكان بين هؤلاء الفيلسوف ابن رشد ،
وكان لا يزال في دور الشباب .

وقد وصف لنا أحد تلاميذ ابن رشد ،
المقابلة الأولى التي جرت لأستاذه مع هذا
السلطان ، جاعلاً صيغة الكلام على لسان ابن
رشد نفسه . قال :

« لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب ،
وجدت عنده أبا بكر ابن الطفيل ، فمدحني
أبو بكر أمامه ، ثم سألتني عن اسمي وأسررتي ،
وقال لي :

« ما هو رأي الفلاسفة في السماء ؟ هل
هي حادثة أم قديمة ؟ » .
فخفت واعتذرت ، وأنكرت اشتغالي بالفلسفة ،
فأدرك أمير المؤمنين ما اعترائني من الخوف ،
فالتفت الى أبي بكر (ابن طفيل) ، وأخذ
يحادثه في ذلك ، ويذكر له أقوال أرسطو ،
وأفلاطون وغيرهما من الفلاسفة ، وما قال
أهل الملة في الرد عليهم ، حتى تعجبت من علمه
وسعة اطلاعه . وما زال يتلطف في كلامه حتى
هدأ روحي وتكلمت بما حضرني من ذلك ،
وأبدت رأيي (١٠) .

بيد أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد ،
إذ أن ابن رشد أخذ يتردد من ذلك العين على
قصر السلطان ، ويلتقي بأبن طفيل ، وفي ذات
يوم دعا ابن طفيل ابن رشد ، وقال له : ان

زهر . » فنتيجة ذلك أن ابن رشد قد اشتهر
شهرة عظيمة بين الأوروبيين في مجالين أساسيين
من المعرفة . هما الطب والفلسفة ، ولكن لن
ننسى جوانبه الفكرية والثقافية الأخرى التي
لم تكن أقل اشراقاً (٣) .

●● ولد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد
الأندلسي (أبو الوليد) في قرطبة بالأندلس وعاش في
الفترة بين (٥٢٠ - ٥٩٥) هجرية (١١٢٦ -
١١٩٨) ميلادية ويسميه الأفرنج Averroes .
وكان ينحدر من سلالة من المتبحرين والقضاة
اللامعين (٥) ، فجد ابن رشد كان قاضياً صنف
بالفقه وله فتاوى بنوازل عصره ذات مكانة
عالية ، وتسلم والد ابن رشد أيضاً القضاء ،
لكن لما شهر به جده ، ولما حظي به من مكانة
وكيما يميز عنه يضاف في العادة اليه عبارة
(الحفيد) ويضاف الى جده في نفس الوقت
عبارة (الجد) (٦) .

زار ابن رشد مدينة مراكش عاصمة
الموحدين مرات كان أولها ، فيما يبدو ، سنة
٥٤٨ هـ - ١١٥٣ م في أيام عبد المؤمن بن علي .
ويبدو أن ابن رشد كان منذ ذلك الحين على
صلات طيبة بأل زهر . ولمسل انصراف ابن
رشد عن التكسب بالطب هو الذي زوى عنه
منافسة آل زهر وعداوتهم وكسبه صداقتهم .
وتوثقت صلات ابن رشد بأبي مروان
ابن زهر فاتفقا على أن يؤلفا كتاباً جامعاً في
الطب يضع ابن رشد كلياته ، أو الجانب
النظري منه ، ثم يضع ابن زهر (٧) جزئياته
أو الجانب العملي منه ، ووفى ابن رشد بما
كان الطليبان قد اتفقا عليه ووضع كتاب
الكليات (٥٥٧ هـ الموافقة لـ ١١٦٢ م) . ولكن
ابن زهر لم يجد من وقته المملوء بالتطبيب
ما يوفره على وضع الكتاب المطلوب فوضع

الحقيقي ، فاعل الكل وموجده ، والحافظ له وذلك بتوسط العقول المحركة للأفلاك . وعنده أن الله عقل ومعقول معا ، وأن علم الله منزّه عن أن يكون علما بالجزئيات الحادثة المتغيرة المعلولة ، أو علما بالكليات التي تنتزع من الجزئيات . فكلا العلمين بالجزئيات والكليات حادث ومعلول ، أما علم الله فعلم يوحد العالم ويعبّط به ، فيكفي أن يعلم الله في ذاته الشيء ليوحد (١٦) ولتدوم عناية الله به ، وحفظه الوجود عليه ، وعنده أن العقل الفعال الذي يفيض المعقولات على العقل الانساني ، أزلي أبدي ، وأن العقل الانساني بحكم اتصاله بالعقل الفعال ، وافاضة هذا العقل عليه ، أبدي هو الآخر . أما النفس فصورة الجسم تفارقه وتبقى بعده منفردة . وأما الجسد الذي كان سبيحته ، فهو ليس عين الجسد الذي كان لكل انسان في الحياة وإنما هو جسد يشبهه . وأكثر كمالاته ، ويرى ابن رشد أن يعمل الانسان على اسعاد المجموع . فلا يخص شخصه بالخير والبر . وأن تقوم المرأة بخدمة المجتمع والدولة ، كما يقوم الرجل ، وأن المصلحة العامة هي مقياس قيم الافعال من حيث الخير والشر ، وأن كان العمل خيرا أو شرا لذاته ، وكان العمل الخلقي هو ما يصدر عن عقل وروية من الانسان ، وليس الدين عنده مذاهب نظرية ، بل هو أحكام شرعية ، وغايات خلقية ، بتحقيقها يؤدي الدين رسالته ، في خضوع الناس لأوامره ، وانتهائه عن نواهي (١٧) .

وانطلق ابن رشد في آرائه الأخلاقية ، من مذهب أرسطو وأفلاطون ، قال بالاتفاق مع أفلاطون بالفضائل الأساسية الأربع الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ، ولكنه اختلف عنه بتأكيد أن فضيلتي العفة والعدالة عامتان

أمير المؤمنين شكّا اليه ما يجده في أسلوب أرسطو وترجمته من الصعوبة والغموض ، وأنه يريد رجلا يشرح هذه الكتب . ومما قاله ابن طفيل لابن رشد :

« انك أقوى مني عزما ، فعليك بكتب أرسطو ؟ واعتقد أنك ستأتي عليها كلها ، لأنني أعرف سمو عقلك ، ووضوح فكرك ، وتجلدك ، أما أنا فإن سني ، واشتغالي بخدمة الأمير ، وصرف عنايتي - كل ذلك يمنعي من الاقدام على هذا الأمر (١١) » .

لما طعن ابن طفيل في السن ، حل ابن رشد محله في الطبابة للخليفة ، عام ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) بيد أن (١٢) ذلك لم يكن مؤديا إلى انقطاع الصلة بين السلطان والفيلسوف . وبهذا نستطيع أن نعتبر ابن رشد شارح المعلم الاول أرسطو ، وأكبر الفلاسفة الشراح أثرا في الغرب من القرن الثالث عشر الى القرن العشرين (١٣) .

ولقد بالسخ سلطان الموحدون يعقوب المنصور في اكرام ابن رشد بعد وفاة والده ولكن الدهر أبى أن ينعم بالهكيم ابن رشد فسمى به أعداؤه الى الأمير ورموه عنده بالزندقة والمروق ، فنفاه وسائر الفلاسفة من أرضه . ثم عاد الأمير الى نفسه فاستدعاه الى مراکش واعتذر اليه ، وظاهر نعمته عليه . ولكن ما لبث أن لقيه حمامه بمراكش سنة ٥٩٥ هجرية (١٤) - ١١٩٨ ميلادية (١٥) .

●● فلسفة ابن رشد باختصار :

تدور فلسفة ابن رشد على قديم العالم وعلم الله وعنايته والمعاد وحشر الأجساد فعنده أن العالم مخلوق وأن الخلق خلق متجدد به يدوم المالم ويتغير ، وأن الله هو القديم

٢ - تلخيص أول كتاب الأدوية المفردة
لجالينوس .

٤ - تلخيص النصف الثاني من كتاب حيلة
البرء لجالينوس .

٥ - كتاب في الفحص .

٦ - مقالة في اتصال العقل بالأسنان .

٧ - مراجعات ومباحثات بين ابن الطفيل
وبين ابن رشد في رسمه للدواء في كتابه
الموسوم بالكلديات .

٨ - مسألة في نوابغ الحمى .

٩ - مقالة في حميات العفن .

١٠ - مقالة في الترياق .

ب - في الفلك :

١ - مقالة في حركة الفلك .

٢ - شرح كتاب السماء والعالم لأرسطوطاليس

ج - في الحيوان .

١ - كتاب في الحيوان .

د - في الطبيعيات :

١ - جوامع كتب أرسطوطاليس في الطبيعيات .

٢ - تلخيص كتاب الطبيعيات لنيقولاوس .

٣ - شرح كتاب السماع الطبيعسي
لأرسطوطاليس .

٤ - تلخيص كتاب القوى الطبيعية لجالينوس .

هـ - في المنطق :

١ - كتاب الضروري في المنطق .

٢ - تلخيص كتاب البرهان لأرسطوطاليس .

٣ - مقالة في العقل .

لكافة أجزاء الدولة (الحكماء والحراس
والصناع) . وهذه الفضائل كلها توجد من
أجل السعادة النظرية، التي هي المعرفة العلمية
الفلسفية ، المقصورة على « الخاصة » وقصر
الخلود على عقل البشرية الجماعي ، على
المعرفة الفلسفية والعلمية ، التي تفتنني
وتتطور من جيل الى آخر . وقد كان لهذا القول
الأخير دور كبير في تطور الفكر المتحرر في أوروبا
في العصر الوسيط والحديث . وأكد ابن رشد
على أن الفضيلة لا تتم الا في المجتمع ، وشدد
على دور التربية الخلقية وأناط المرأة دوراً
حاسماً في رسم ملامح الأجيال القادمة ، فالحج
على ضرورة اصلاح دورها الاجتماعي في انجاب
الأطفال والخدمة المنزلية وبسط ابن رشد أهم
آرائه الأخلاقية من خلال شروحه على الأخلاق
الى نيقوماخوس لأرسطو وجوامع سياسة
أفلاطون (١٨) .

●● مؤلفات ابن رشد :

١ - في الطب :

ينحصر اهتمام ابن رشد في الطب بعلم
التشريح، وآلية الدورة الدموية عند الانسان،
وتشخيص بعض الأمراض ، ووصف بعض
الأدوية لها . كما ذكر ابن رشد في عدة أماكن
من مؤلفاته أن الجدري لا يصيب الانسان
أكثر من مرة واحدة ، وهذا ما توصل اليه
الطب الحديث . كما فهم فهماً جيداً شبكة
العين . وهناك قول ماثور عن ابن رشد من
اشتغل بعلم التشريح ازداد ايماناً بالله .

ونذكر فيما يلي المؤلفات الطبية لابن

رشد :

١ - كتاب الكلديات في الطب .

٢ - تلخيص كتاب الحميات لجالينوس .



- ٤ - مقالة في التعريف في صناعة المنطق .
- ٥ - مقالة في اتصال العقل المفارق بالانسان .
- و - في النفس :
 - ١ - شرح كتاب النفس لأرسطوطاليس .
 - ٢ - تلخيص كتاب المزاج لجالينوس .
- ز - في الفقه :
 - ١ - تلخيص كتاب المقدمات في الفقه .
 - ٢ - كتاب نهاية المجتهد في الفقه .
- ح - في الفلسفة :
 - ١ - تلخيص كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطوطاليس .
 - ٢ - تلخيص كتاب الاخلاق لأرسطوطاليس .
 - ٣ - كتاب تهافت التهافت .
 - ٤ - شرح كتاب القياس لأرسطوطاليس .
 - ٥ - مسألة في الزمان .
 - ٦ - مقالة في فسخ شبهة من اعترض على الحكيمة .
 - ٧ - مقالة في الرد على ابن سينا .
 - ٨ - مسائل في الحكمة .

ط - متفرقات :

- ١ - كتاب التحصيل .
- ٢ - شرح الأرجوزة المنسوبة الى الشيخ الرئيس ابن سينا في الطب .
- ٣ - شرح كتاب السمع الطبيعي لأرسطوطاليس .
- ٤ - تلخيص كتاب الاسطقسات لجالينوس .
- ٥ - تلخيص كتاب الملل والاعراض لجالينوس .

- ٦ - تلخيص كتاب التعريف لجالينوس .
- ٧ - كتاب منهاج الأدلة في علم الأصول .
- ٨ - كتاب فصل المقال فيما بين الحكمة والشرعية من الاتصال .
- ٩ - مقالة عن المتصلين .
- ١٠ - كتاب عن البرهان لأرسطوطاليس عن ترتيبه للقوانين (١٩) .

وقد اهتم ابن رشد بالحركة وملازمتها للزمن في الأجسام ، وملازمتها للفراغ ، ومعنى الميل ، وقادت تلك الأفكار الى علم الديناميكا . واعترف كولومبوس مكتشف أمريكا وبخط يده أنه قد كان لمؤلفات ابن رشد الفضل الكبير في وصوله الى أمريكا . وأورد المؤلف رينان (٢٠) : ما يثبت هذه الحقيقة . وأضاف رام لاندو (٢١) : « على الرغم من أن بعض العلماء الاسبان تمردوا أن ينتموا لفلسفة الغرب المسلمين الكبار بـ « الاسبان » فقد كانوا كلهم في الحقيقة الواقعة عرباً ، بدليل أن أسرهم كانت قد نشأت في الاصل في الشرق الأدنى ، ثم ارتفعت الى اسبانيا . في حين نشأت أسر قلة منهم في مراكش . وكان أشهرهم على الاطلاق ابن رشد . المعروف في الغرب Averroes »

أسرعت البلاد الأوربية منذ القرن الثالث عشر الميلادي الى تعلم فلسفة ابن رشد ، فاندفع الكثير الى ترجمة مؤلفاته في هذا المجال ، وانصرف الآخرون الى دراستها والتعليق عليها . وان كان اسم ابن رشد كاد أن ينسى في البلاد العربية والاسلامية ، لمدة سبعة قرون ، فقد ظل صدهاء يتردد في أوروبا حتى أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، وإذا كان أثره في الثقافة العربية والاسلامية قد بقي ضئيلاً ، بل كاد أن يكون معدوماً ، فان تأثيره كان قوياً نافذاً في تطوير الثقافة الغربية والفكر الأوربي

وقد امتازت طريقة ابن رشد في الشرح على غيرها لأنه كان يتناول النص بالإيضاح فقرة ، فقرة ، ويفسر كلام أرسطو تفسيراً دقيقاً ، ويحلل معانيه تحليلاً عميقاً . فكان يضع لهذه الغاية ، من الشروح ما هو صغير ومتوسط ، وكبير ، فهو إما أن يلخص ، أو يوضح باختصار ، أو يسهب في التفسير ويستطرد في التعليق . وهذه الطريقة التاريخية ملائمة لحاجات الطلاب ، ومفيدة في التعليم ، ولذلك نالت استحسان الجميع « (٢٢) » .

الحديث . يقول الدكتور محمد كامل عياد في مقالة بعنوان (تأثير ابن رشد على مرالمصور) قدمها في مهرجان ابن رشد الذي عقد في الجزائر عام ١٣٩٨ هجرية : « هكذا انتشرت حوالي منتصف القرن الثالث عشر مؤلفات ابن رشد بين الباحثين الأوروبيين ، وشاعت آراؤه في أوساط المثقفين ، وتغلغلت فلسفته في الجامعات وبالأخص جامعة باريس . كان أكثر الأساتذة الذين سمح لهم بتدريس فلسفة أرسطو يعتمدون في الدرجة الأولى على شروح ابن رشد الذي اشتهر باسم الشارح » .

□ الحواشي :

- ١ - العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية للدكتور علي عبدالله الدفتاح صفحة ٩٥ - ٩٦ .
- ٢ - المصدر السابق ص ٩٤ .
- ٢ - المصدر السابق صفحة ٩٣ .
- ٤ - الأعلام لغير الدين الزركلي - مجلد ٦ - ص ٢١٢ - ط ٣ .
- ٥ - عبقرية الحضارة العربية - منبع النهضة الأوربية - امدد من المؤلفين الأجانب ترجمة عبدالكريم مطحوس - اصدار وزارة الثقافة السورية بدمشق ١٩٧٢ .
- ٦ - مائة أوائل من تراثنا للدكتور سهيل زكار دمشق ١٩٨٢ .
- ٧ - تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون للدكتور عمر فروخ ص ٦٤٦ .
- ٨ - طبقات الأطباء - ٣ : ٦٧ .
- ٩ - تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات ص ٣٦٣ .
- ١٠ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، نقل عن الدكتورين جميل صليبا وكامل عياد في مقدمة هي بن بقلان ص ٢٢ .
- ١١ - المصدر السابق .
- ١٢ - ابن طفيل لتفسير شيخ الأرض - دار الشرق بيروت ط ١ ١٩٦١ .
- ١٣ - الموسوعة الموجزة لعسان بدر الدين الكاتب (صاحب هذه الدراسة) الجزء الأول - صفحة (٢٣ - ٢٤) دمشق ١٩٧١/٣/١١ .
- ١٤ - تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات ص ٣٦٣ .
- ١٥ - الأعلام لغير الدين الزركلي ج ٦/ ص ٢١٢ .
- ١٦ - الموسوعة العربية الميسرة - القاهرة ١٩٦٥ .
- ١٧ - انظر الموسوعة العربية الميسرة والموسوعة الفلسفية المختصرة وتاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون للدكتور عمر فروخ ص ٦٥٨ - ٦٨١ .
- ١٨ - معجم علم الأخلاق - دار التقدم بنوسكو ترجمة توفيق سلوم ١٩٨٤ .
- ١٩ - عيون الأطباء لابن أبي أصيبعة .
- ٢٠ - ابن رشد والرشدية لريطان .
- ٢١ - الاسلام والغرب لرام لاندو .
- ٢٢ - العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية للدكتور علي عبدالله الدفتاح .



حارس أعسفي من الخدمة بعد ١٥٠٠ عام

محمود عصام الميداني

دمشق الفيحاء ، المدينة التي تعكس قدم الانسان وعراقية التاريخ ، والتي حباها الله موقعا طيبا ، فليل إنها « إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد » ، واذا كانت توصف بأنها مدينة خمسة آلاف العام التي لم تنقطع فيها الحياة ، فان لسورها فضلا كبيرا في الحفاظ عليها عبر جزر غير يسير من تاريخها الطويل .

يذكر ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان ، أن أول حائط بني بمد الطوفان هو حائط دمشق وحائط حران ، ولعل هذه المبالغة بقدّم تاريخ حائط دمشق أو سورها قد نجمت عن ارتباطه بتاريخ مدينة دمشق ، التي يرد ذكرها في كشوف إيبلا منذ القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، كما يتردد ذكرها أيضا في أخبار تعوتمس الثالث منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد .

وتكاد تجمع المصادر التاريخية على أن دمشق من المواطنين الأولى للآراميين ، والآراميون شعب عربي قدم الى بلاد الشام من شبه الجزيرة العربية منذ أوائل الألف الثالث قبل الميلاد ، واستقر في المنطقة الواقعة بين جبل البشري وتدمر ، ومن ثم انطلق الى المناطق الخصيبة المجاورة ، فكانت دمشق أحد منازلها .

وليس بالأمر المستغرب أن تصبح دمشق مركزا هاما للآراميين ، نظرا لما تتمتع به من موقع هام يفضيه شريان مائي هو نهري بردى ، ويدلنا على ذلك اسمها الذي حملته وهو (دار ميسق) والتي تعني الأرض أو الدار المسقية ، وهذا ما يرسيه ويؤكد الواقع الجغرافي للمدينة .

والمعتقد أنها نشأت مدينة صغيرة وسط غوطة واسعة على الضفة اليمنى لنهر بردى ، ويؤكد الأثاريون أن المدينة الآرامية كانت تشغل الجانب الغربي من مدينة دمشق القديمة



■ مدخل سوق الحميدية حيث كان باب النصر وتظهر القلعة في يسار الصورة ■

كاراكالا ٢١١-٢١٧ م من زوجته جوليا دومنه Julia Domna وهي من مدينة حمص بسورية ، الى بناء سور حجري حول مدينة دمشق يتناسب مع أهميتها حين أصبحت عاصمة المنطقة الجنوبية من سورية ، وعُشِدَّت إحدى المدن العشر المسماة « ديكابوليس Decapolis » وبدأت بذلك حياة السور ، ويغلب الرأي على الباحثين بأن السور بُني بشكل مستطيل طوله ١٥٠٠م وعرضه ٧٥٠م وارتفاعه حوالي ١٠ م ، يُنفَّذ إلى داخله من خلال ثلاثة أبواب في الشمال هي : باب توما وباب جينيق وباب الفراديس ، ومن بابين جانبيين هما : الباب الشرقي والباب الغربي الذي دُعي فيما بعد بباب الجابية ، ومن بابين جنوبيين هما : باب كيسان (تذكر بعض المصادر أنه اسم من أصلح الباب زمن معاوية) والباب الصغير ، وفي دراسات حول السور رفض بعض الباحثين الشكل المستطيل وبأنه بني بشكل بيضوي قريب من مخططة الحالي باستثناء التعديل الذي حصل في شماله .

هذا ولا يعلم مصدر العبارة التي بنى منها السور ، وإن كنا نُخَمِّن أنها قد قطعت من الصخور الناشئة في منطقة الرهوة ، وحُملت على مياه نهر بردى يوم كان غزيراً ، وقبل أن تُشَقَّ منه الفروع لري غوطة دمشق .

ومن الجدير بالذكر أن تخطيط المدينة وبناء السور ليسا من أعمال الرومان بحسب، إذ إن التاريخ يروي كيف كُرِّمت مدينة دمشق المهندس الدمشقي أبولو دوروس Apollo Dorus في القرن الثاني الميلادي الذي بنى الجسر الحجري الشهير على نهر الدانوب ، وأقام ساحة تراجان Trajan في روما ، وأنشأ العديد من الحمامات والأبنية والألقواس ، زُيِّن بها المنشآت أيام الامبراطورية الرومانية ، وكان من أثر هذا التمازج الحضاري بين الشرق والغرب ظهور الحضارة الهلنستية التي ظهرت فيها الشخصية المتميزة لحضارة الشرق القديم . مما دفع الكاتب الروماني جوفينال المتوفى سنة ١٤٠م



■ جدار القلعة الشمالي حيث يجري ترميمه من قبل مديرية الآثار العامة ■

الى القبول : (منذ زمن بعيد يصب نهر العاصي ماءه في نهر التيبر جالبا معه لفته الفرية وعاداته وعوده وقيثارته)

□ السور في العصر العربي الاسلامي :

ما ان امتدت الموجة العربية الاسلامية في المحيط العربي لاعادة تحرير البلاد ونشر الدين الجديد ، حتى ظهرت مقاومة دولة الروم في بلاد الشام يقودها جنود الاحتلال البيزنطيون من خلف أسوار مدينة دمشق . وخلال حصار المدينة عام ١٣ هـ / ٦٣٤ م ، كان القائد أبو عبيدة عند باب الجابية ، وخالد بن الوليد عند الباب الشرقي ، ويزيد بن أبي سفيان أمام البواب الصغير ، وعمرو بن العاص أمام باب الفرج ، وكان ضرار بن الأزور في ثلثة من الفرسان يطوف على الأبواب يجري الاتصال بين القواد المعظم ، يذكى الحماسة في النفوس ويحث الجند على القتال .

حاصر الجيش العربي دمشق نحو من ٧٠ يوما حصاراً شديداً بالزحف والمترامي والمجانيق ، وكان القائد العظيم خالد بن الوليد - كما يذكر الطبري - لا يخفى عليه شيء من أمر الأعداء واتخذ كهينة السلام وأوهاق (الرهق جبل له أنشودة) يرميها الجنود على الأسوار ، ولما ثبت وهقان منهما تسلقهما القمعاق بن عمرو ومذعور بن عدي ، ويؤكد الطبري أن ذلك كان في أحصن مكان يحيط بدمشق وأكثره ماءً وأشدّه مدخلاً ، حتى اذا استويا على السور كثر الجند ومالوا الى الحبال فوثبوا فيها وفتحوا الأبواب ، ودخل الجيش من الباب الشرقي عشوة . عند ذلك أفلت الأمر من أيدي المدافعين وعرضوا الصلح على أبي عبيدة وعملت المدينة كأنها فتحت صلحاً بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب .

□ السور في المهدين الأموي والعباسي :

وما إن استقرت الدولة الأموية في بلاد الشام حتى تبوأ مدينة دمشق مكانها اللائق كعاصمة للأمويين ، ولا يتردد ذكر السور كثيراً في تاريخ الأمويين ، إذ أنها كانت المدينة المنية ومركز الإشعاع الذي انطلقت منه الشواطي والصوائف تثبت دعائم العروبة والاسلام في أقاصي بلاد الشام ويتجاوزها منطلقه إلى بلاد ما وراء النهر شرقاً وإلى الأندلس وأواسط فرنسا غرباً وفي هذا يقول أمير الشعراء :

لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت ببني العباس بفدان

ويحدثنا مؤرخو هذه الفترة عن أحواض المياه والنوافير والسقايات (السبل) التي كانت مثبتة عند أبواب السور وفي ساحات المدينة وشوارعها ، وكانت تبني القصور خارج السور ، كالقصر الذي ينسب إلى العجاج بن عبد الملك (في دمشق حي يعرف بقصر العجاج) ، وقصر عاتكة مكان الحي المعروف بقبر عاتكة وهما جنوب غرب المدينة القديمة ، وكذلك بدأت تظهر الميادين والساحات خارج السور لحفلات الفروسية والمقابر خارج المدينة وعند أبواب السور .

وبانتقال الخلافة إلى العباسيين ، انتقلت العاصمة إلى بغداد وهدم السور منذ عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ، وفقد أهميته وتحولت المدينة إلى أحياء مغلقة تعيش حياتها الخاصة ، وأقيمت البوابات بين الأحياء ، وفي كل حي كان يقام المسجد والحمام والسوق وكأنها قرى مستقلة ، إلا أنها كانت ترتبط بمركز المدينة وهو جامعها الكبير (المسجد الأموي) .

ثم عادت للسور أهميته وحظيت المدينة بالاهتمام والرعاية وبخاصة أيام نور الدين زنكي ٥٤٩-٥٧٠ هـ / ١١٥٤-١١٧٤ م ، وكان من الأعمال الهامة التي قام بها إعادة السور وتدعيمه بالأبراج القوية ، وإقامة الأسواق والمساجد إلى جانب الأبواب . ولم يكن عدد الأبواب ثابتاً خلال فترات التاريخ ، فمان يهدم السور حتى يعاد تجديده ، فتفتتح أبواب وتغلق أخرى ، وعندما امتدت المدينة خارج السور في جزئها الشمالي ، انتقل السور ليساير نهر بردى بعد أن كان يساير أحد فروعه ، وأطلق على الحي الجديد اسم (بين السورين) وما يزال هذا الحي محتفظاً باسمه ومظهره القديمين .

ولقد كان تدعيم السور وتجديده ضمن خطة للوقوف في وجه الحملات الصليبية والعامل الطبيعي هو تعرض سورية لسلسلة من الهزات الأرضية كما يذكر ابن القلانسي في كتابه تاريخ دمشق ، وبأنه خلال العامين ٥٥١ و ٥٥٢ هـ / ١١٥٦ و ١١٥٧ م ، قد أصابت الزلازل مدن حلب وشيزر ودمشق تهدمت خلالها الدور في حلب وانهار حصن شيزر ، وهو يذكر في تاريخه ليوم ٢٥ ذي القعدة سنة ٥٥٢ هـ أن دمشق ضربتها ست هزات أرضية في يوم واحد ، ويبدو أن هذه العوامل مجتمعة دعت نور الدين إلى تجديده .

السور وبناء الأبراج وفتح البوابات ، وزوّد كل باب بسويقة (باشورة) صغيرة وأقام
المساجد على الأبواب ، وليستمر الاهتمام بالسور زمن صلاح الدين الأيوبي ومن خلفه
من الأيوبيين .

ونظراً لأن المدينة كانت في حالة حرب مستمرة زمن الحروب الصليبية فقد بنيت
قلعة دمشق على أنقاض قلعة قديمة كان قد بناها الأمير السلجوقي تتش عام ٤٧١هـ / ١٠٧٨م ،
في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة وأعيد إصلاحها عام ١٢٠٦ م ، وما تزال
القلعة قائمة الى اليوم شامخة بقامتها المهيبة تطل من علّ بجدرانها وأبراجها تروي قصة
صمودها في وجه الطامعين ، وقد عملت مديرية الآثار العامة على كشف جدرانها
بهدم البيوت والأسواق التي التصقت بها على مرّ الزمن لظهور هذا الأثر بالشكل الذي
يتناسب مع أهميته .

ويكبو السور إثر الاجتياح المغولي عامي ١٢٦٠ و ١٤٠٠ م خلال الهجمة الوحشية
على بلاد الشام والرافدين ، ولكنه يعود للظهور مرة أخرى أيام العثمانيين وليبدأ
السكان ببناء منازلهم خارج السور مع توسع المدينة وازدياد عدد سكانها ، واحتلت مساحتهم
في كثير من أجزائه ، وتركزت القلعة بمد أن بقيت فترة من الزمن سكناً للوالي العثماني
وبقيت ملجأ للسكان عندما تنهار مقاومة السور أمام الولاة المتصارعين ، وظهرت
أحياء جديدة خارج السور كحي الفسوات وسويقة صاروجة ، وكانت الأحياء تمتد
باستحياء وبحذر ورهبة شديدين خلال فترات الأمن ، يعود أهلها للالتجاء الى حنايا
سورهم أيام الأزمات والمحن .

وفي أيام والي دمشق محمد العظم نظم القسم الغربي من سوق الحميدية . واقامت
المشيرة العثمانية مكان القصر العدلي اليوم (غرب مدخل سوق الحميدية حالياً) خارج
حدود السور ، وكان ذلك عام ١١٩٥ هـ / ١٧٨٠ م ، مما دفعنا الى اعتبار هذا التاريخ
هو نهاية خدمة السور لمدينة دمشق رسمياً .

هذا ولم يبق من هذا السور الا الجزء الذي بين باب السلامة وباب توما ، وجزء
بين الباب الشرقي وباب توما ، والجزء الذي بين الباب الشرقي والزاوية الجنوبية الشرقية
من السور وجزء آخر عند الباب الصغير ، وكذلك جزء كشف عنه حديثاً جنوب باب
النصر في القسم الغربي من السور ، وما تزال فتحات الأبواب قائمة الى اليوم ومنها ما يزال
يحفظ بالأبواب الحديدية الضخمة ، عند باب النصر الذي هُدم وباب جينيك الذي
لا يعرف مكانه بالضبط .

أما اليوم فتقف بقايا السور والقلعة مع الأبواب المتبقية تُذكر بتاريخ دمشق
وأحداثها ، وفي هذه البقايا حجارة منذ أيام الرومان وأخرى زمن نورالدين وثالثة
مملوكية وفوقها حجارة عثمانية ، يمثل كل صف منها عهداً أو حضارة عاصرت حضارة

دمشق التي تمثلت تلك الحضارات وتفاعلت معها وتراكمت فيها معطياتها ، وكانت المدينة تصل بين هذه الأحجار بملاط طابعه عربي إسلامي حفظ لها أصالتها وأبقى لها طابعها العربي الأصيل ، إلا أنها قد تجددت اليوم وتحولت الى مدينة تضارع مدن العداثة في العالم ، محتفظة في الوقت نفسه برونق الأبواب الأثرية، ومنها سورها العظيم، الذي دافع عنها لأكثر من خمسة عشر قرناً من الزمن وكان لها الحارس الأمين .

محمود عصام الميداني

★ ★ ★

□ مراجع البحث :

- ١ - تاريخ الطبري ابن جرير الطبري
- ٢ - خطط الشام محمد كرد علي
- ٣ - تاريخ دمشق ابن القلانسي
- ٤ - مجلة الحوليات الأثرية لعام ١٩٧٩ د. عبدالقادر ربحاوي
- ٥ - موجز تاريخ سورية القديم د. حرب فرزات
- ٦ - أثارنا د. أبو الفرج العشي
- ٧ - دمشق وأهميتها العمرانية بشير زهدي
- ٨ - نزعات أثرية د. سليم عادل عبدالحق
- ٩ - الآثار الإسلامية في مدينة دمشق كارل ولتسينجر
- ١٠ - قلعة دمشق د. عبدالقادر ربحاوي
- ١١ - خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى فيليب حتي

★ ★ ★

تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بؤادر التصحيف والوهم

تأليف : الخطيب البغدادي تحقيق : سكيئة الشهابي عرض : د. نسيب نشاوي

عودتنا الأديبة الباحثة الأستاذة سكيئة الشهابي على تلقي بحوثها في التراث العربي الاسلامي واهياء ما اندثر من المخطوطات النادرة ، وقد أخرجت مؤخراً ١٩٨٥ م موسوعة أعلام المحدثين : « تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بؤادر التصحيف والوهم » للخطيب البغدادي أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت ٣٩٢ - ٤٦٣ هـ صاحب « تاريخ بغداد » العالم المصنف العظيم المشهور . مؤلفاته تزيد عن الستين ما زال أكثرها مخطوطاً وقد نشر منها القليل مثل كتاب « البغلاء » ١٩٦٤ م بتحقيق الدكتور أحمد مطلوب وزملائه وكتاب « التطفيل وحكايات الطفيليين » ١٩٦٦ م بتحقيق الاستاذ كاظم جعفر ، وكتاب « الفقيه والمتفقه » ١٣٨٩ هـ بتحقيق الشيخ اسماعيل الانصاري ، وكتاب « اقتضاء العلم والعمل » ١٣٨٦ هـ بتحقيق الشيخ ناصر الدين الالباني ، وكتاب « الرحلة في طلب الحديث » ١٩٧٥ م بتحقيق الأستاذ نور الدين المتمر ، وكتاب « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » ١٩٨٣ بتحقيق الدكتور محمود الطحان . عدا عن « تاريخ بغداد » ١٩٣١ م ، والكتاب الذي نحن بصدد « تلخيص المتشابه وحماية ما أشكل منه » ١٩٨٥ م .

للاستاذة الفاضلة سكيئة الشهابي محققة « تلخيص المتشابه » تجربة راسخة وأصيلية في معرفة التراث العربي وتحقيقه ونشره واهياء مخطوطاته ، فقد أمضت ثلاثة عشر عاماً في مجال البحث العلمي بجمع اللغة العربية بدمشق - وما تزال - تطالع كنوز المخطوطات وتستكشف أسرارها وتنوّه بعظمتها وخفاياها وتحيي ما درس منها ٠٠٠ وقد أغنت المكتبة العربية بنشرها كتاب « تلخيص المتشابه » محققاً تحقيقاً علمياً لا ريب .

استماتت المحققة بعدد من النسخ المخطوطة المحفوظة بمكتبات الوطن العربي ، فصورت نسخة من دار الكتب بالقاهرة وأخرى من تونس وثالثة ورابعة من الظاهرية بدمشق وخامسة

من القدس ، وفي ضوء ما جاء في النسخ جميعاً بذلت الجهد لتقويم النص المخطوط واعطائه شكله السليم مستمينة بالمصادر تارة وبالاكتفاء بالشخصي تارة أخرى الى أن تم لها وضع التصور النهائي للنص الأصلي ، فالكتاب الذي تقدمه كتاب رجال فيه نحو ١٤٤٢ ترجمة علاوة على ما ورد فيه من أحاديث نبوية يزيد عددها عن ألف حديث شريف .

كانت غاية الخطيب البغدادي رحمه الله أن يجمع في كتابه الأسماء المتشابهة في الرسم لحمايتها من التصحيف والتحريف وهي أسماء رواة الحديث النبوي ليس غير وقد أورد في خطبة الكتاب قول علي بن المديني : « أشد التصحيف التصحيف في الأسماء » ، نورديما يلي مقتطفات من خطبة الكتاب المحقق توضح أبوابه وفصوله :

« الحمد لله الذي بفضلته ونمته تتم الصالحات .. ثم اني رسمت في هذا الكتاب ، بتوفيق الله وعونه من أسماء المحدثين وأنسابهم ومن الأسماء والأنساب التي يدونونها في كتبهم ما تشبه صورته في الخط دون اللفظ ، مفرداً عما يقع الاتفاق فيه حال النطق به ، والكتب له ، اذ كنا قد فرغنا قبل من ذلك النوع في كتابنا الذي ألفناه في « المتفق والمفترق » وقد جعلت هذا المرسوم فصلاً خمسة كل فصل منها يشتمل على أبواب عدة يتضمن كل باب تراجم كثيرة :

- ذكرت في الفصل الأول ما تشبه صورته في الخط وتشفق حروفه في الهجاء .
- وفي الفصل الثاني ما يشبه في الخط ، وهجاء بعض حروفه مختلف .
- وفي الفصل الثالث ما كان في بعض حروفه تقديم على بعض مع اتفاقها في الصورة .
- وفي الفصل الرابع ما يتقارب لاشتباهه ، وبعض حروفه مختلف في الصورة .
- وذكرت في الفصل الخامس نواذر هذا الكتاب ، ولخصت جميع ذلك وقيدته بذكر لفظ حروفه وشكلها وتسمية شيوخ المذكورين الذين سمعوا منهم ، وخالفهم الذين صحبهم ونقلوا عنهم وسياق بعض رواياتهم وأخبارهم ..
- .. كان وكيع بن الجراح كثيراً ما يشتمل بهذا البيت :

خلق الله للحديث رجالاً ورجالا لآفة التصحيف

« الكتاب كما تقول المحققة « قطعة خالدة من التراث » وقد وثقته بالكتب وحرصت فيه على ما حرص عليه الخطيب من تقديم الرجال وضبط أسمائهم أو أسماء آبائهم ، كما كانت شايئها أيضاً في تخريج الحديث ، ضبط روايته وتسهيل فهمه ، اعتماداً على الكتب الصحيحة الستة أولاً ثم على الكتب الشاملة مثل « الجامع الصغير » و « كنز العمال » ثانياً بادئة برواية الخطيب نفسه في تاريخ بغداد .

وللأستاذة سكيئة الشهابي فرع آخر من حياتها العلمية وقفته على مصنفات الحافظ ابن عساكر صاحب كتاب « تاريخ مدينة دمشق » فقد نشر لها مجمع اللغة العربية بدمشق عدة أجزاء من هذا الكتاب لا يقل الجزء الواحد عن ألف صفحة من الحجم الكبير منها :

جزء (عثمان بن عفان) ١٩٨٤ م .

ثم الأجزاء ٣٨ ، و ٣٩ و ٤٠ من هذا التاريخ الضخم .

ولها أيضاً تحقيق كتاب « المعجم المشتمل » للحافظ ابن عساكر - طبعته دار الفكر بدمشق - ١٩٧٩ ، وكتاب « المنتخب من كتاب أزواج النبي » للزبير بن بكار طبعته مؤسسة الرسالة ببيروت ١٩٨٣ م .

وأخيراً جاء هذا « تلخيص المشابه في الرسم » ١٩٨٥ م للخطيب البغدادي .

وكانما استقت من العالمين الكبيرين الخطيب البغدادي ت ٤٦٣ هـ والحافظ ابن عساكر ت ٥٧١ هـ حب البحث وتعميق النظر وتدقيق الأخبار وسعة الاطلاع وكثرة المحفوظ من القرآن الكريم والحديث النبوي والشعر العربي وأنساب العرب وقبائلهم وأخبارهم وأسماء محدثيهم والقابهم وكناهم وسلاسل اسنادهم .

وكثيراً ما تقرن اسمي الرجلين الخطيب البغدادي والحافظ ابن عساكر تستعين بكتب أحدهما لمعرفة الآخر وتنوه بفضلهما وعلمهما وسبقهما زمانيهما على بعد ما بينهما .

أحب في الخطيب البغدادي وفي الحافظ ابن عساكر زهدهما وغناهما عن الناس وكبعضهما جراح النفس وبمدهما عن مزالق الهوى علاوة على منهجهما العلمي النادر المثال . وأوردت في مقدمتها للكتاب « تلخيص المشابه » قطعة من شعر الخطيب البغدادي نقلتها عن ابن الجوزي صاحب « المنتظم » تفصح عن صلابه عود الخطيب وتحمله ضربات الزمان . ومذهبه في الحياة . وفيها قوله :

لعمرك ما شجاني رسم دار	وقفت به ولا ذكر المغاني
ولا اثر الغيام أراق دمعني	لأجل تذكيري عهد الفواني
ولا ملك الهوى يوماً قيسادي	ولا عاصيته فثنى عناني
عرفت فعاله بذوي التصابي	وما يلقون من ذل الهوان
فلم أطمعه في ، وكم قتيل	له في الناس ما يحصى وعاني
طلبت أخاً صحيح الود محضاً	سليم الغيب مأمون اللسان
فلم أعرف من الإخوان الا	نفاقاً في التباعد والتداني

وللأستاذة الشهابي منهج في التحقيق التزمته وسارت عليه لاستكشاف كنوز التراث .

التراث العربي .. خطته ومنهج*

د. شكري فيصل

١ - المقدمة :

● مكانة التراث في حركتنا الثقافية :

يشغل التراث العربي من نفوس المعاصرين مثل المنزلة التي شغلها في نفوس أصحابه حين كانوا يكفون عليه : ينشئونه أو يصنعونه .. انه يمثل عبقريتهم وخبرتهم وثقافتهم ، على نحو ما يمثل في وجدان المعاصرين بواعث هذه المبقرية ومظاهر هذه الخبرة والطريق الى تحديث الثقافة .. انه يكون منا (نحن - الماضي) وبالتالي يكون (نحن - المستقبل) بمقدار ما يكون من تأثير الماضي في صياغة المستقبل ، وبمقدار ما نستطيع أن نجهد نحن في فهم هذا الماضي وأن نعمل في سبيل الارتفاع فوقه والاضافة عليه .

والاجماع منمقد بين دارسي النهضة على أن بذور المستقبل لا تنفصل عن تراب الماضي ، وأن النظرة الى وراء انماهي شرط لتصويب النظرة الى أمام .. وأن في الحياة العربية الماضية من الحوافز والتجارب والمبادرات والابداعات ، ما لا يمكن أن نستغني عنه في تطلمها نحو الأتي .

* بحث لم ينشر كان المرحوم كتبه لاحدى اللجان في معهد المخطوطات العربية بالكويت .

فلا عجب اذن أن يشغل هذا التراث أذهان المعاصرين وأن يلتفتوا اليه بالمين الفاحصة ، وأن يقيموا بينه وبين حركتهم المعاصرة هذه الجسور التي تمر من فوقها أجيال المستقبل في طريقها الى بناء هذا المستقبل ، والى تصميم مساراته حيناً ، أو املائه بالقوى الغضبية الفاعلة حيناً آخر .

ولقد التقى على الاهتمام بهذا التراث العرب والمستعربون ، الشرقيون والمستشرقون . . واجتمع عليه أعداؤه وأصدقاؤه .

فأما أعداؤه فقد أدركوا منذ حين بعيد أنهم لا يستطيعون أن يقيموا هذا الجيل من الناس اليوم ، وهو فهم يهدف الى السيطرة والاستثمار والغلبة والاحتواء والالتهام - الا اذا فهموا جذوره الأولى ، وأدركوا بدايات هذه الجذور أو عرفوا تربتها ومسالكها الى النمو ليكون عملهم نقيضاً لهذا النمو وتضاداً معه . . ولذلك وضعوا أيديهم على كل مظاهر الفرقة فيه ، فأحيوا هذه الفرقة ، وأمسكوا بكل مظاهر الضعف فأفادوا منها لتأصيل هذا الضعف ، وفقهوا كل أسباب القوة والابداع فقطعوا هذه الأسباب الى كل مظاهر الابداع . . ولم يدعوا منفذاً من منافذ الشك الا سلكوه اليه ولا صورة من صور التوهين الا هالوها عليه .

وأما أصدقاؤه فقد راوا فيه كذلك بداية التعرف الى الذات ، ولكن لا لطمسها كما فعل الأعداء ، بل للانطلاق بهذه الذات ، وأيقنوا أنهم حين يريدون أن تخلص حياتهم في الحاضر مما أصابها من عوج أو أمت فإنهم لا بد لهم أن يتبينوا مصادر هذا العوج وبدايات هذا الأمت ، وأن يكونوا من ذلك على بصيرة . . وانهم حين يريدون الاسهام في الحياة الحضارية المعاصرة فإنهم لن يجدوا دوافعهم المحركة الى ذلك الا اذا استمدوا من هذا التراث ما يؤكد عندهم قدرتهم ويضع أمام أعينهم تجاربهم السابقة . . ان هذا التراث هو جواز دخولهم الى موكب الحضارة المعاصرة ومشاركتهم فيها .

التراث اذن والاهتمام به ليس عملاتاريخياً ماضياً بقدر ما هو عمل حيوي مستقبلي . . والأمر لا يمكن أن يبقى ، كما هو الآن ، في حدود الوفاء النظري له والاشادة العاطفية به . . وانما هو كذلك ، أو قبل ذلك ، في الانتفاع به ، والوفاء

لأنفسنا من خلاله .. انه ليس زينة ، ولكنه سلاح .. وليس تباهاً وادلالاً ، ولكنه قبل ذلك نوع من الاعداد ولون من كسب الثقة بالنفس . والثقة بالنفس أشد ما تحتاج اليه الشعوب في هذا التفجر الحضاري المتسارع .

ومن أجل هذا اكتسب التراث في نفوسنا نوعاً من القداسة .. لا أستعمل الكلمة بمعناها أو بظلالها الغيبية ، وإنما أريد منها معناها الشاهد ، معناها الموضوعي ، الذي يولد في النفس العربية ألقتها ويحفظ عليها بريقها وتوهجها ، والذي يضع الأسس لآقرارها على أصول سليمة ، تنطلق من القولة التي كان أطلقها أستاذنا الشيخ أمين الخولي : ان أول الجديد قتل القديم فهماً .

٢ - العمل للتراث في الماضي :

لقد ابتدأ الاهتمام بهذا التراث مع بدايات النهضة .. ولكن العناية به على مدى هذين القرنين : التاسع عشر والعشرين كانت هذه العناية الممزقة ان صح التعبير .. لم يكن لهذه العناية منهج مرسوم ، ولم يكن وراءها نظرة كلية سابقة على العمل ، ولم تنهض به قوة واحدة مؤتلفة ..

كانت قوى الوطن العربي والبلاد الإسلامية مشتتة ، وقد جوبه الاهتمام بهذا التراث مشتتاً .. بدأ كل من حيث استطاع أن يبدأ ، وعمل كل في الاتجاه الذي استطاع أن يعمل فيه .. ونهضت الحكومات أحياناً بهذا العبء في بعض البلاد ، مصر مثلاً ، واحتمل العبء مؤسسات أو أفراد أو جماعات في بلاد أخرى .. وانمكست كل مظاهر التجزئة النفسية والفكرية والسياسية على العمل في هذا التراث حين عملنا له وعلى إهماله حين أهملناه .. واستبدت بالتوجه نحوه والعمل له اتجاهات مختلفة يمكن أن نكون موضع بحث دقيق خاص ، لعل هناك من ينهض به ويربط بينه وبين مظاهر الحيات الأخرى .. وأصبحنا ندرك بوضوح ، يوماً بعد يوم ، أن هذا التراث - وهو بطبيعة الحال تراث مشترك - لا بد فيه من عمل مشترك ، وأن ثقل الحمل يقتضي ، أول ما يقتضي ، التعاون على حمله ، وإن انتسابه الى الوطن العربي والبلاد الإسلامية يحتم ان يكون العمل فيه نقطة التقاء بين أطراف الوطن العربي والبلاد الإسلامية .. وإن النظر الجزئي له إنما هو استمرار لروح التجزئة ، والعمل المشتت فيه إنما هو تغذية لهذا التشتت والفوضى ، وإطالة لطريق الهدف ، وتمويق لحركتنا في الوصول اليه

من هنا يستمد العمل للتراث واهتمام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم به قيمته .. انه جزء من العمل الصامت للوحدة والعمل الصلب لها .. العمل الذي يؤتي ثمرته باذن ربه كل حين .

٣ - نحو خطة عمل جديدة : الميادين الخمسة :

ولكن كيف نستطيع أن نعمل للتراث عملاً مشتركاً اذا كان التفتيت هو الذي يطبع الحياة العربية ويبدد جهودها ؟ .. ان ذلك يقتضي توليد النقيض من النقيض .. ولن يكون صعباً اذا توفر لنا الايمان بأن العمل للتراث هو في ذاته عامل وحدة ، وان من واجبنا أن نجنب هذا الميدان أن يؤول - كما آلت اليه ميادين كثيرة في الحياة العربية - اقليمياً ضيقاً .

قد تتكاثر الآراء ، وتختلف المناهج ، ولكنني أرجو أن أقترح الخطوة التالية : يبدو لي أن العمل في التراث يمكن أن يتحرك في الميادين الخمسة التالية ، أو المراحل الخمس التالية :

الميدان الأول : مرحلة التعرف :

ليس هناك من يزعم أننا نعرف هذا التراث كله .. اننا نعرف بعضه ، ولا نزال نجهل الكثير منه .. فنحن نجهل مواطنه التي تبدد فيها ، ونجهل ما تضمه هذه المواطن بعد أن توزعته أقطار ومكتبات وأفراد وجماعات في الشرق والغرب .. ولذلك فإن من الطبيعي أن نجهد في خطوتنا الأولى ، لمعرفة هذا التراث وتوزعه .. وهي معرفة تتدرج في مستويين متماقيين :

أ - معرفة أولية سريعة للأمكنة التي تفرق فيها هذا التراث أو للأمكنة التي نقدر أن يكون فيها .

ب - معرفة مفصلة للمخطوطات ذاتها .

أ - في المعرفة الأولية :

هناك مجموعات وكتل من هذا التراث لا تزال مستغلقة على الوصول اليها .. فهل نحن على معرفة دقيقة بكل مجموعات التراث في آسيا مثلاً أو في افريقيا ؟ في

الأقطار الإسلامية التي يشغلها الاتحاد السوفياتي أو في بعض مقاطعات الهند...
في المساجد أو الزوايا أو البيوتات الخاصة في المشرق العربي أو في المغرب العربي...
ودع عنك ذكر المراكز الأخرى التي تشتت فيها هذا التراث .

ب - وأعني بالمعرفة المفصلة :

أن نتبين تفاصيل هذه الكتل والمجموعات .. وأن تكون لدينا قوائم تمهيدية
تدل عليها ، وتيسر السبيل من بعد إلى التعرف الدقيق لها .

الميدان الثاني : مرحلة الجمع :

إذا كنا لا نملك أن نستفيد هذه الثروة من البلاد التي آلت إليها - وهو أمر
أحسب أن من الواجب أن نتحرك نحوه - وإذا كنا لا نملك أن نعاود تجميعها في مكان
واحد .. فإن المعطيات التقنية الحديثة ، وكذلك تجاربنا السابقة في معهد
المخطوطات - تمكن لنا ، في كثير من اليسر ، أن تكون عندنا صور دقيقة « أفلام »
لها .. ألم يكن ذلك هو الذي ابتمت فكرة إنشاء معهد المخطوطات ؟ ..

إن هذا الجمع إذا تيسر انجاز ضخم في نطاق احياء التراث وفي نطاق النهضة
السليمة ، وتصحيح لحركة الاحياء هذه .. فكثيراً ما نعمل في كتاب ونحن لا نجد
نسخه الأفضل ، وكثيراً ما نقدم أعمالاً ثانوية على أعمال رئيسية ، وأعدنا طبع
كتب سقيمة طبعاً تجارياً وكان من الممكن إعادة النظر فيها .. وقد اضطررنا أحياناً
إلى طبع كتب قبل أن تطبع أصولها التي أخذت عنها .. ومثل هذا الجمع ذو أثر
كبير على احكام العمل بعد في المراحل التالية ، وتوجيهه توجيهاً سديداً لا نقدم
معه على عمل قبل استكمال مواده الأولى استكمالاً جامعاً أو قريباً من أن يكون
جامعاً .

الميدان الثالث : مرحلة الفهارس الأولية :

اجتماع مصورات هذه المخطوطات في بلد عربي ، أو في عدد من البلاد العربية
يفتح الطريق عريضاً أمام عمل تنظيمي آخر شاق هو اعداد الفهارس الأولية
وطباعتها طباعة مبدئية على شكل قوائم ، وتعميم نشرها على المؤسسات العلمية في
الوطن العربي كله .

الميدان الرابع : مرحلة الفهارس الدقيقة :

وذلك عمل علمي يحتاج الى أن نعدله منذ الآن .. لأنه يقتضينا مجموعات من العلماء في كل فرع من فروع الثقافة الاسلامية ، ينقطعون لهذه الفهرسة العلمية ، ويقصرون جهدهم عليها .. وحسبهم أن يكونوا رواد هذا التراث ، وحسبهم من عملهم العلمي أن يمكن لهم من التعريف به وفتح الأعين عليه .

وهذه المرحلة في حقيقتها تمهيد لعملية التحقيق في المرحلة التالية ، لأن معرفة النسخ وتقييمها وانسابها ومصادر مؤلفيها يوفر كثيراً من الجهد في عملية التحقيق ، ويمهد لها .

الميدان الخامس : مرحلة التحقيق والنشر :

وهذه المرحلة ثمرة المراحل السابقة ، ثم هي بدورها بذرة الحركة العلمية التي نريد أن نضطلع بها .. ان نشر هذا التراث نشرأ محققاً هو السبيل الى الافادة منه ثم هو السبيل كذلك الى تصفيته وتنقيته وتجاوز تراكماته ، واعادة تكوين صورة الحياة العلمية العربية في حركتها طوال القرون منذ أن كانت نشأتها الى أن كان ازدهارها ثم كان توقفها .. ونحن في حاجة الى هذه الصورة لتجلية المشكلات التي علقنا بتاريخنا ..

ان أي امر علمي نفكر فيه الآن من مثل تجديد كتابة التاريخ ، وتوثيق النصوص ، واعداد المعجم التاريخي ، ودراسة التطور اللغوي ، ومعرفة المنحول والموضوع ، وتبين العناصر الثابتة والمتحولة .. ان كل ذلك مرهون بنشر مالم ينشر من هذا التراث على هذا النحو العلمي الذي يمهد الطريق الى الدراسات العلمية ، ويوفر كثيراً من الجهد في سبيلها .

ولن يكون مقبولا أن نتابع طرائق النشر التي كانت منذ بداية النهضة .. انه لا بد من أن يكون لنا طرائقنا الجديدة في النشر : طرائق تستفيد من التقنيات الحديثة من جهة ، وتمهد لاستخدام هذه التقنيات وبخاصة في مجال الحاسب الآلي .. فلم يعد سراً أن جهوداً كبيرة نستطيع أن نحفظ بها اذا نحن أخضعنا عملية التحقيق والنشر بحيث نستطيع أن نستخدم بها بعد ذلك الحاسب الآلي .. وهو أمر

له آثار كبيرة على حركة الفهرسة والتثبيت والتوثيق والوصول السريع الى المواد اللازمة لدراسة موضوع ما في الثقافة الاسلامية .

* * *

٤ - صعوبات مترتبة :

وبعد ، فانا أقدر أنني تحدثت عن هذه المراحل الخمس حديثاً موجزاً جداً . .
ان كل مرحلة منها في حاجة الى فيض من الدراسات ، وفي حاجة الى كثير من الاعداد ، حتى تقود الى المرحلة التي تليها ، وحتى تحقق المراحل في مجموعها غايتها البعيدة .

ان لكل من هذه الميادين مشاكلها العالقة بها . . ففي ميدان التمرير بالجمع نواجه مشكلة الصلة بالبلاد التي هجر اليها هذا التراث ومزق فيها ، وموقف هذه البلاد ، أوروبية أو اسلامية ، من التعاون معنا في هذا السبيل . . فهناك قيود مطروحة ، وهناك حذر ، وهناك معارضات ، وهناك عصبية . . وتلك أمور يجب أن تنهض بها الأجهزة السياسية في الجامعة العربية وفي ميدان الفهارس الأولية أو التفصيلية نحتاج الى أعداد كبيرة من المتخصصين لأن هذه الفهارس التحليلية هي نصف الطريق الى البحث العلمي والدرس الجاد وهي التي تضمن تنظيم الجهد وتوفير الوقت .

وفي ميدان التحقيق والنشر نحتاج الى جهود ضخمة من جهود العاملين في التحقيق والمتخصصين في الطباعة ، كما نحتاج الى اصطناع منهج واحد أو مناهج متماثلة تعين على النهوض بهذه المرحلة . . وتبدو لنا هنا مشكلة تضام الجهود وتكاملها ومعرفة السبيل الى ذلك مشكلة واضحة حقاً أمام هذا التناوب السياسي المائل .

ولست الآن لأحصي هذه المشاكل والصعوبات ، والخطط التي يمكن أن تستخدم لتذليل هذه الصعوبات . . ولكنني قدمت الإشارة الى بعضها وألفت الآن الى بعض آخر :

من ذلك أن نتساءل : هل تجمع هذه المصورات في بلد واحد ؟ . . وهل نقيم فروعاً في الكليات لتحقيق التراث ، أم تؤسس معاهد مستقلة ؟ . . وهل تكون هذه المعاهد في بلد بمينه أم في عدد من البلاد . . وهل تتولى النشر شركة واحدة

أم تتصرف فيه الفعاليات العلمية في كل بلد على هواها .. وهل نستخدم المركزية الضيقة أم نوزع المسؤولية بين الأقطار العربية ، أم نزاوج بين المركزية وبين توزيع المسؤولية يتولى ذلك جهاز قادر توضع بين يديه الامكانيات المختلفة ؟ .. الى آخر الأسئلة المشابهة التي تفرض نفسها .

٥ - ثلاث ملاحظات :

وأخيراً لا أجد بداً من ابداء الملاحظات التالية :

أولاً :

ان الأخذ بهذا الأسلوب المرحلي في الميادين المختلفة ليس بديلاً مباشراً عن الأوضاع السائدة ولا الغاء لها ، ولكنه تمهيد لوضع أفضل .
ولهذا فان الأوضاع السائدة يجب أن تستمر مهما تكن درجة فعاليتها ، ومهما تكن مظاهر التناقض فيها .. ان النقد والتوجيه مما يساعد على ترسيدها والتنسيق بينها .. ولذلك يجب أن يقتصر هذا المشروع المقترح بسلسلة من التدابير التي توائم بينه وبين الواقع الحالي بحيث ينصهر هذا الواقع الحالي بعد ذلك في اطار هذا المشروع ويكون من صلبه .

ثانياً :

ان هذه المرحلة في العمل لا تعني أن تكون مرحلة زمنية بحيث نعمل في المرحلة الأولى أولاً ثم نعمل في التي بعدها .. ولقد قرنت بين تعبيري : الميدان والمرحلة قاصداً الى ذلك ، فالمرحلة متداخلة متكاملة على نحو تداخل الميادين وتكاملها .. ونستطيع ، في حدود ما بين أيدينا من وسائل ومواد ومشاريع أن نمضي قدماً هنا أو هناك ، في هذا الميدان أو ذاك .

ان طبيعة هذا العمل أنه متنام دائماً وأنه لا حدود له .. لأن هناك كشوفاً كثيرة عن المخطوطات .. ولهذا فان العمل في أي مرحلة يمكن أن يكون رافداً للعمل في المراحل الأخرى .

ثالثاً :

وأيما كان الحال فان الذي يجب ألا يغيب عن أذهاننا أننا في حاجة ماسة الى الاستعانة بالخبرات العملية المتجددة في نطاق النسخ والتصوير والتكبير والنقل

لأن الأخذ بها يمكن أن يكون توفيرا لكثير من الجهود .. وأقترح هنا أن تكون عندنا اتصالات عملية بالمؤسسات التي تعنى بهذه الأشياء امتحانا للاستفادة من خبراتها المستحدثة .

ان عملنا في التراث يحتاج الى الافادة من كل ما في المعاصرة من تقنية يمكن استخدامها .. انه يحتاج الى ثورة رشيدة، ولا يمكن أن يكون كاملا في نطاق تصوراتنا التي ألفناها منذ بدأنا مع هذا المخطوطات ، لأن التصورات العملية والعلمية تسبقنا في ذلك .

★ ★ ★

٦ - الخاتمة :

أيها الأخوة والزملاء ،

اني أعرف أن ما يدور في ذهن كل واحد منا هو - أو بعضه - ما يدور في ذهن الآخر .. وقد يكون ما عندكم أضاف ما عندي .. ولكنني انما أردت أن أضع بين أيديكم تصورا يفتح الطريق ، بفضل مناقشاتكم ومشاركاتكم الجادة ، الى التصور الأكمل ، ويساعد على تقليب الرأي في قضايا التراث بغية الوصول الى فكرة جامعة وتخطيط صحيح .

ونحن نقدم على هذا العمل وفي اذهاننا وقلوبنا أنه عمل أصيل في حركة النهضة وسير للبحث العلمي في جامعاتنا ومؤسساتنا الثقافية .. انه عمل يحتاج الى متابعة متصلة ، ويحتاج الى نفقة كبيرة ، وادارة حكيمة ، وجهود اقليمية متكاملة مع الجهد المركزي .. ويحتاج الى أن يؤمن به المشرفون على التنظيمات المربية .. فاذا لم يتيسر لنا تحقيق هذا الايمان فان من الخير أن ننفض أيدينا منه حتى لا تحملنا الأجيال مسؤولية الاخفاق فيه أو العجز عنه .

ولن يحقق ما نرجوه مثل أن نممل له متكاتفين عليه بين الأقطار العربية جميعاً .. والثقافة قادرة على أن تتلافى تهاون السياسة في هذا الشأن بل هي كذلك قادرة على حفزها وتوجيهها . ومن ذلك ننطلق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كتب وأبناء تراشيّة

خلق الانسان في اللغة

لأبي محمد العسن بن أحمد بن عبد الرحمن • تحقيق وتقديم دكتور أحمد خان
راجعه وزاد في حواشيه مصطفى حجازي • من منشورات معهد المخطوطات العربية في
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الكويت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ صدره الأستاذ
الدكتور محي الدين صابر مدير المنظمة •

عالم المحقق في المقدمة تاريخ التأليف في خلق الانسان ، وعرض أسماء المؤلفين مرتبة
زمنياً على سني وفياتهم ، ثم عرض خطة المؤلف في كتابه وهي قوله في الاستهلال :
« اذكر كل ما في جسد الانسان من عضو أول حرف من اسمه ألف وكل ما أول حرف من
اسمه باء وتاء وثاء ثم نجري ذلك على ترتيب حروف المعجم الى آخرها حتى آتني على سائر
الأعضاء الظاهرة والباطنة وغير الأعضاء مما يشتمل عليه الجسد ويتعلق به كالدم والمخ
والشعر وما أشبه ذلك مما لا ينفك منه بشر مخلوق » ثم أورد المؤلف في كل حرف ما
ذكرته العرب من هذه الأسماء وما أشتته وما نطقت فيه بالتذكير والتأنيث • وما أشكل فيه
من الاعراب كما أضاف فقراً من كلام جالينوس مما ليس هو من علوم العرب حتى لا يخلو
الكتاب من فائدة ، ولا يمرى من طريقة •

هذا ويحيط بالمؤلف وبعيئاته جو من الفموض حاول المحقق الفاضل أن يخفف هذا
الفموض • والمظنون انه عاش في أوائل القرن السابع الهجري •

يقع الكتاب في نحو ٤٥٠ صفحة من القطع المتوسط • وفي آخره فهرس عامة
تسهل الرجوع الى كل ما فيه من الآيات والأحاديث والأمثال والألفاظ والأشعار والأعلام
والشعراء والقبائل والكتب المذكورة في الكتاب •

لا شك أن هذا الكتاب كنز مفيد للغويين والأدباء والأطباء والمترجمين الذين قد
يموزهم لفظ عربي في هذا المضمار •

المؤلفات الرياضية لشرف الدين الطوسي في مجلدين

تحقيق رشدي الراشد • صدر من دار الآداب الرفيعة للنشر في باريس عام ١٩٨٦ •
طبع المجلد الأول على نفقة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي والمجلد الثاني على نفقة مركز
الدراسات والبحوث العلمية في سورية •

والكتاب بنصه العربي وترجمته الفرنسية يوضح التقدم الكبير الذي سبقت اليه الحضارة العربية الاسلامية في مجال الرياضيات ويسفر عن وجه مجهول لتلك الحضارة من وجوه هذا العلم ويعين على اعادة التأريخ لبعض فصول الرياضيات ولا سيما ما يتعلق ببداية التحليل الرياضي . وقد عاش المؤلف في أواخر القرن السادس الهجري الذي يوافق أواخر القرن الثاني عشر الميلادي .

رسالة التنبيه على سبيل السعادة للفارابي . دراسة وتحقيق الدكتور سحبان خليفات من منشورات الجامعة الاردنية ١٩٨٧ .

كتب المعلم الثاني أبي نصر الفارابي كثيرة وغالبيتها تحتاج الى ضبط وتحقيق ولو كانت مطبوعة . وقد عول محقق الرسالة على ثمانى نسخ مخطوطة لها اضافة الى طبعة حيدر آباد الدكن . وقدم لها بمقدمة مستفيضة ضبط فيها عنوان الرسالة وأثبت صحة نسبتها الى الفارابي وقارنها بمؤلفاته الاخرى كما أبان مصادر الرسالة من عربية ويونانية وتقنى أثرها في الفكر الفلسفي الاسلامي .

علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب

دراسة وتحقيق لرسائل الكندي وابن عدلان وابن الدريهم . من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

قام بهذه الدراسة الدكتور محمد مراياتي ومحمد حسان الطيان ويعني مير علم وقدم لها الدكتور شاكر الفحام .

ولا شك أن هذا الجزء الأول الذي صدر من هذه الدراسة ١٩٨٧ يوضح مهارة العرب في هذا الميدان لمصر من عصور حضارتهم المتقدمة كما يوضح الطرق الأساسية للتعمية في عباراتهم ويعطي القارئ فكرة طريفة عن طواعية اللغة العربية لشتى الأفراس والمقاصد .

المؤتمر الفلسفي العربي الثاني وانشاء الجمعية الفلسفية العربية

تعاونت الجامعة الاردنية ومركز دراسات الوحدة العربية في الدعوة لهذا المؤتمر الذي انعقد في الجامعة الاردنية من ١٣ الى ١٦ كانون الأول ١٩٨٧ بعد أن أهدى المدعوون له من المشتغلين بالفلسفة في ربوع الوطن العربي بحوثاً تتناول المحاور الأربعة الآتية : ١ - الفلسفة والسلطة ٢ - الفلسفة والعلم ٣ - الفلسفة والتراث ٤ - الفلسفة والفن . وكان أبرز ملامح المؤتمر المستوى الرفيع الذي كتبت فيه تلك البحوث ، والمستوى الراقى الذي نوقشت فيه والذي كان في بعض الأحيان جافاً وقاسياً . ومع ذلك فقد ساد الجو روح الاخاء العلمي والجهد الموضوعي والحرية الرواعية . ثم أفضى المؤتمر في ختامه الى انشاء الجمعية الفلسفية العربية وتضم مختلف المشتغلين بالفلسفة في الاقطار العربية وتكون أداة ارتباط بينهم مع اعتماد عمان مقراً لها وانتخاب الأستاذ الدكتور أحمد ماضي رئيساً لها أيضاً .

فاطمة عصام صبري

في ذمة الغلود

واهتم الدكتور جواد علي باللغة العربية القديمة وبتاريخ اليمن وحضارته قبل الاسلام، واستوعب النقوش والكتابات القديمة، واختص باللغة اليمنية القديمة .

الأستاذ عبدالهادي هاشم

نمي مجمع اللغة العربية وهيئة تحرير مجلة « التراث العربي » بدمشق أحد أعضائهما الأستاذ عبدالهادي هاشم . ولد عام ١٩١٢ بدمشق وتوفاه الله في ١٩ جمادى الأولى ١٤٠٨ - ٨ كانون الثاني ١٩٨٨ . شغل مناصب متعددة في سورية منها محاضر في كلية الآداب في فقه اللغة ورئيس لجنة التربية والتعليم وأمين عام في وزارة المعارف ومدير دار الكتب الظاهرية ثم سمي رئيس تحرير الموسوعة الفلسطينية وكان له نشاط واسع في ميدان اللغة العربية ونشر عدة مقالات في مجلة المجمع وفي غيرها وشارك في مؤتمرات عالمية وإقليمية متعددة .

الدكتور جابر عزيز الشكري

عضو المجمع العلمي العراقي توفاه الله في الأول من شهر كانون الأول ١٩٨٧ وكان قد ولد سنة ١٩١٨ . حصل على دكتوراه في الكيمياء من جامعة زوريخ سنة ١٩٤٦ وعاد الى العراق فدرس في دار المعلمين العليا ببغداد ثم شغل مناصب عدة ثم سمي في الجامعة باحثاً علمياً متفرغاً وأستاذاً للكيمياء ومادة تاريخ العلوم والحضارة العربية في كليتي العلوم والتربية الى سنة تقاعده ١٩٨٣ . من مؤلفاته « الكيمياء عند العرب » و « النفط في التراث العربي » و « المصطلح الكيميائي في التراث العربي » و « الجوانب الفنية في اخراج المخطوط العربي » .

اعداد محمد مطيع العافظ ونزار أباطة

أعلام تراثيون

الدكتور أحمد ناجي القيسي

عضو المجمع العلمي العراقي اختاره الله الى جواره في ١٨ رمضان سنة ١٤٠٧ - ١٦ أيار ١٩٨٧ وكان قد ولد في بغداد سنة ١٣٣٨ - ١٩١٩ في أسرة علم وفضل ونشأ فيها على محبة العلم .

درس في دار المعلمين العالية وكلية الآداب والشريعة وفي الجامعة المستنصرية ببغداد وشارك في تأليف عدد من الكتب أو تحقيقها من أبرزها « كتاب الوفيات » لأبي الوفاء الحاجي الاصبهاني (اشترك في تحقيقه مع الدكتور بشار عواد معروف و « دقائق التصريف » للقاسم بن المؤدب (بالاشتراك) .

الدكتور جواد علي

عضو المجمع العلمي العراقي توفاه الله يوم السبت ٣ صفر ١٤٠٨ / ٢٦ ايلول ١٩٨٧ وكان قد ولد في الكاظمية سنة ١٣٢٤ - ١٩٠٧ . حصل على شهادة الدكتوراه بدرجة امتياز من جامعة همبورغ .

عرف بدراساته الدقيقة المتميزة في ميادين الحضارة العربية ، وله مجموعة من البحوث التاريخية واللغوية من أبرزها « موارد تاريخ الطبري » ، و « موارد تاريخ المسعودي » ، و « معجم الفاظ المساند » ، وقد دلت على الأصالة والشمول .

ركز جهوده العلمية على تاريخ العرب قبل الاسلام ، وأحاط بالبحوث التي كتبها المؤرخون القدماء والمحدثون عنه في العربية وغيرها ، فنسق منها ونقدها وحللها ، ثم أخرج كتابه الذي يقع في عشر مجلدات ضخمة لها مكانتها المتميزة .